

البابا شنوده الثالث

حياة الرجاء

Life Of Hope
By H.H. Pope Shenouda III

١٩٩١م

الكتاب: حياة الرجاء

المؤلف: قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث.

المطبعة: الأنبا رويس الأوفست – العباسية– القاهرة

الناشر: الكلية الإكليريكية

رقم الإيداع بدار الكتب: ١٩٩١/٤٩٧٤م



قداسة البابا شنوده الثالث بابا الإسكندرية

وبطريرك الكرازة المرقسية الـ١١٧

قصة هذا الكتاب

كثيرون جدًا يحتاجون أي كلمة تعيد إليهم الرجاء... يحتاجون إلى نافذة من نور، تبدد الظلمة التي تكتنف نفوسهم...

نفوسهم تصغر أمام المشاكل التي تبدو معقدة، وبلا حل... وتزيد حروب الشيطان من المخاوف في عدم حلها...

كذلك يظنون أنه لا فكاك من الخطايا التي استمرت معهم زمانًا، حتى صارت شبه مسيطرة عليهم، يكررونها في كل اعتراف بلا توبة، مهما حاولوا التوبة...

هؤلاء يقولون مع داود النبي ما ردده في المزمور الثالث:

"كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِي: لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلهِهِ" (مز٣: ٢).

وللأسف لا يكملون باقي المزمور وما فيه من رجاء...

*****

ولأهمية هذا الموضوع، ولحاجة الكثيرين إليه، تكلمت في عظات عديدة جدًا عن الرجاء، ودخل الرجاء ضمن عظات أخرى من الصعب أن أحصيها، ولذلك لما أردت أن أجمع كل ما قلته في موضوع الرجاء، بدا الأمر صعبًا... مما تسبب في تعطيل صدور هذا الكتاب الذي دخلت أجزاء من مقالاته في المطبعة وجمعت... وانتظرت أخواتها، وطال الانتظار... وتحيرت ماذا أقدمه للطبع، وماذا أتركه أو أرجئه؟؟

وأخيرًا اكتفيت بهذه المقالات الخمس عشرة التي ضمها هذا الكتاب، حتى يمكن أن يصدر الآن. على أن نستبقي المقالات الأخرى الخاصة بالرجاء، لكي تنشر في جزء ثانٍ، أو تضاف إلى هذا الكتاب عند إعادة طبعة بمشيئة الله.

*****

والرجاء هو أحد الفضائل الثلاث الكبرى التي ذكرها الرسول في (١كو١٣: ١٣).

وأعني بها: "الإِيمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ".

ولقد أصدرنا لك كتابًا عن (حياة الإيمان) في بداية الثمانينات. وها هوذا كتاب الرجاء. وبقي كتاب ثالث نصدره عن المحبة... محاضراته كلها جاهزة، لا تنقصها سوى مراجعة بسيطة وتقدم إلى المطبعة... بصلواتك.

وبهذا تكمل المجموعة إن شاء الله.

البابا شنوده الثالث

الفصل الأول

الرجاء

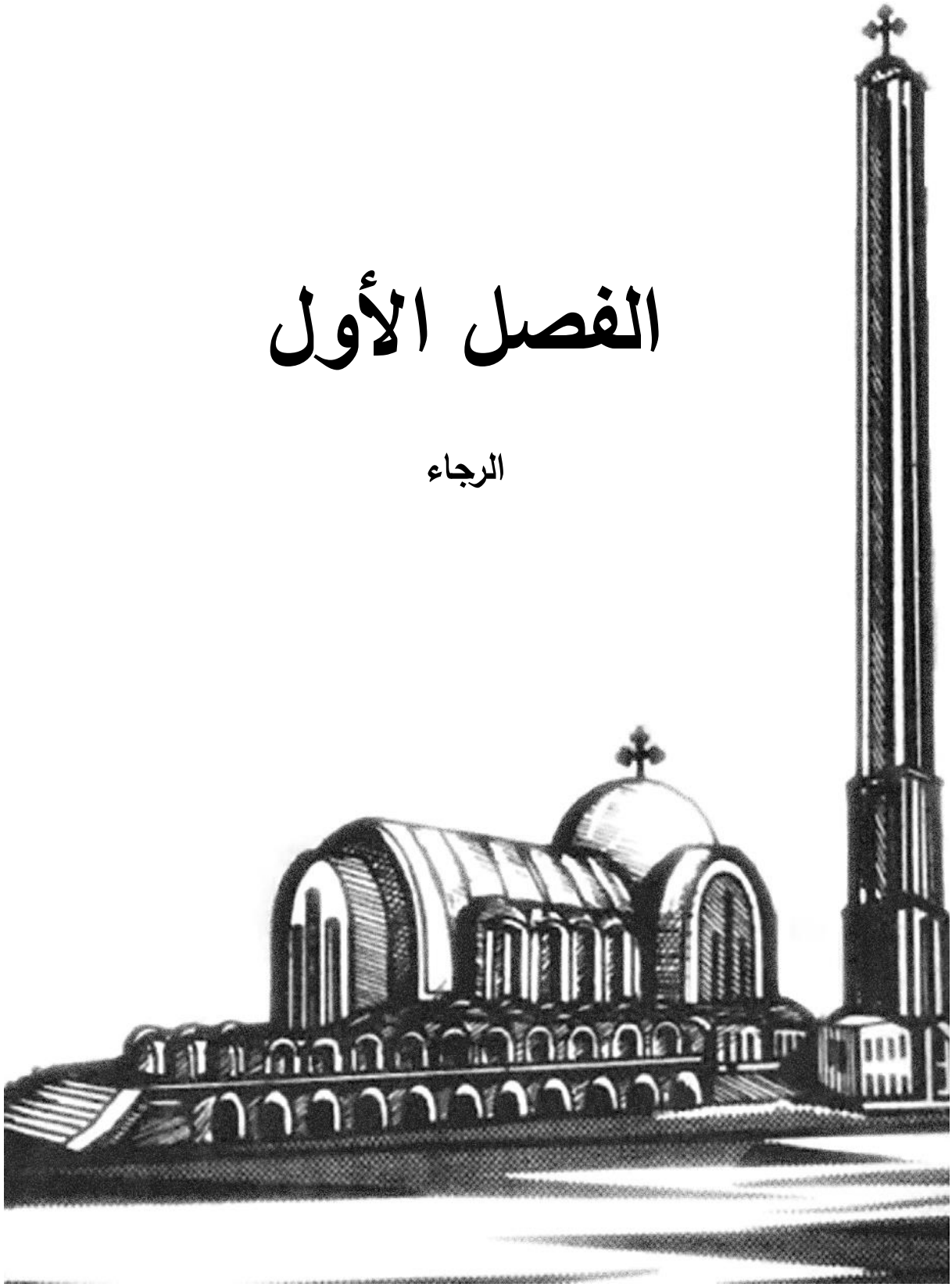

الرجاء

الرجاء هو إحدى الفضائل الثلاث الكبرى التي ذكرها معلمنا بولس الرسول في رسالته الأولى إلى كورنثوس حيث قال: "الإِيمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ، هذِهِ الثَّلاَثَةُ" (١كو١٣: ١٣) وهذه الثلاثة ترتبط بعضها بالبعض الآخر. فالإيمان يلد الرجاء، لأن الذي يؤمن بالله، إنما يكون له رجاء فيه، والذي يكون له رجاء في الله، يحبه وهكذا يصل إلى قمة العلاقة بالله في المحبة.

****

الرجاء قديم قدم البشرية بل أقدم منها، فأول رجاء عرفه البشر هو رجاء في الخلاص، حينما وعد الرب قائلًا لآدم وحواء: "إن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية" (تك٣: ١٥).

وظل هذا الرجاء في قلوبهم آلاف السنين حتى تحقق أخيرًا في تجسد الرب، وفي صلبه عن البشرية.

وحتى الذين لم ينالوا هذا الرجاء، عاشوا فيه، وكما قال معلمنا بولس: "لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا" (عب١١: ١٣).

وهكذا رقدوا على رجاء، إلى أن افتقدهم الرب وأرجعهم إلى الفردوس مرة أخرى.

*****

على أن الرجاء كان موجودًا قبل آدم وحواء، في قصة الخليقة الأولى، كان هناك رجاء لتلك الأرض الخربة الخاوية المغمورة بالمياه، "وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ" (تك١: ٢).

وحقق الله لها هذا الرجاء حينما قال: "لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ". ورتب الله هذه الأرض

الخربة، فإذا بها في أجمل صورة ممكنة، فيها الأشجار والأثمار والأزهار والأطيار. ورأى الله أن كل شيء فيها حسن جدًا. ولذلك مهما كانت الأرض خربة في يوم من الأيام ومهما كانت خاوية، ومهما كانت مغمورة بالمياه، ومهما كانت مظلمة، فهناك رجاء أن الله يخرج منها هذه الصورة الجميلة من الطبيعة المملؤة بالجمال التي نراها الآن.

*****

الرجاء إذن هو شيء هام في الحياة، ولو فقد الإنسان الرجاء فقد كل شيء، لأن الإنسان الذي يفقد الرجاء، يقع في اليأس، ويقع في الكآبة، وتنهار معنوياته، ويقع في القلق، والاضطراب ومرارة الانتظار بلا هدف، وقد يقع بذلك ألعوبة في يد الشيطان، لذلك نقول إن الشيطان هو الذي يقطع الرجاء.

أما أولاد الله فباستمرار عندهم رجاء، يعيشون في الرجاء في كل وقت... في الضيقة يعيشون في رجاء، ومهما تعقدت الأمور، ومهما بدا أن الله قد تأخر عليهم، ومهما بدا كل شيء مظلمًا، هناك رجاء.

******

وأولاد الله عندهم رجاء أيضًا في الحياة الأخرى، في العالم الآخر في تحقق وعد الرب من حيث مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ (١كو٢: ٩). هذه هي الحياة الأخرى التي نجاهد على الأرض لكي ننالها. وعلى رأي معلمنا القديس بولس الرسول: "إِنْ كَانَ لَنَا فِي هذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ، فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاسِ" (١كو١٥: ١٩).

وهناك رجاء أيضًا حتى للخطاة في التوبة، بل أشرّ الخطاة على الأرض لهم رجاء.

******

وهناك رجاء للص وهو على الصليب في أخطر ساعات حياته.

وهناك رجاء لزكا رئيس العشارين الذي كان يمثل قمة الظلم في عهده، وهناك رجاء للمجدلية التي كان فيها سبعة شياطين فإذا بها إحدى المريمات القديسات، وقد استحقت أن تكون مُبشرة للأحد عشر بالقيامة. وهناك رجاء حتى للشجرة التي لم تثمر ثلاث سنوات، فقال الرب: "أَنْقُبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زِبْلاً"، لعلها تثمر فيما بعد (لو١٣: ٨).

******

المسيحية تعطي رجاء حتى للقصبة المرضوضة وللفتيلة المدخنة.

القصبة المرضوضة قادر الله أن يعصبها، والفتيلة المدخنة قادر الله أن يرسل لها ريحًا فتشتعل، ولهذا من جهة الرجاء قال الرب: "شَجِّعُوا صِغَارَ النُّفُوسِ" (١تس٥: ١٤). وأعطى في ذلك رجاء حتى للركب المخلعة، وحتى للأيدي المسترخية (عب١٢: ١٢).

******

في المسيحية يوجد رجاء للأفراد، ويوجد رجاء للهيئات، ويوجد رجاء للكنائس، ويوجد رجاء للبلاد، ويوجد رجاء للعالم كله.

******

لنا رجاء في افتقاد الرب للبشرية في كل وقت. هذا الرجاء لا يضعف أبدًا عند المؤمنين مهما بدا الأمر صعبًا، وكيف ذلك؟

******

لقد كان هناك رجاء ليونان النبي وهو في بطن الحوت.

هل إنسان يكون في جوف الحوت ويكون له رجاء؟ ولكن يونان ركع على ركبتيه وصلى وهو في جوف الحوت. وقال للرب: "أَعُودُ أَنْظُرُ إِلَى هَيْكَلِ قُدْسِكَ" (يون٢: ٤).

كان له رجاء، وقد تحقق.

وكان هناك رجاء حتى للثلاثة فتية وهم في أتون النار، ولدانيال وهو في جب الأسود.

******

وكان هناك رجاء حتى للعاقر التي لم تلد...

التي قال لها الرب في سفر إشعياء: "تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ... أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ... لأَنَّ نسلك يَرِثُون أُمَمًا، وَيُعْمِرُون مُدُنًا خَرِبَةً" (إش٥٤: ١- ٣).

كان هناك رجاء أعطاه لنا الرب في رمز الذين قاموا من بين الأموات.

حتى لعازر الذي قالت عنه أخته مرثا أنه "قَدْ أَنْتَنَ" (يو١١: ٣٩). قدم لنا الرب رجاء في أن يقوم من الأموات.

******

وهناك رجاء قدمه الرب في شفاء الأمراض المستعصية...

في إعطاء البصر للعميان، والصحة للجدع، والعرج والمشلولين، وكل ذي عاهة، وصاحب اليد اليابسة، حتى الإنسان الذي قضى ثماني وثلاثين سنة إلى جوار البركة لا يجد من يلقيه فيها، كان له رجاء أن يأتي له المسيح ويقول له: "قُمِ. احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ" (يو٥: ٨).

مهما كان الأمر مستعصيًا، ومهما كان الأمر صعبًا، ومهما بدا للناس معقدًا، هناك رجاء يقدمه الله.

ولعل الرب أعطانا مثالًا جميلًا في هذا حينما قال: "غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللهِ" (لو١٨: ٢٧) بل صدقوني هناك آية أعمق من هذه جدًا، وهي قول

الكتاب: "كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ" (مر٩: ٢٣).

******

عبارة "كل شيء مستطاع" (مر٩: ٢٣) تعطينا رجاء لا حدود له.

وهكذا يقول بولس الرسول في الرجاء: "أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي" (في٤: ١٣). عبارة كل شيء هي مدى أوسع جدًا يعطينا فكرة أنه لا حدود للرجاء، ما دام لا حدود لقدرة الله ولمحبته.

إذًا لا حدود للرجاء في المسيحية.

والإنسان المسيحي يجد اختبارًا لفضيلة الرجاء فيه، حينما يقع في ضيقة أو في تجارب متنوعة، أو في آلام صعبة، أو في مشاكل تبدو لا حلول لها، يعرف بالرجاء أن الرب عنده حلول كثيرة، وأن الرب لا بد أن يأتي مهما بدا أمام الناس أنه قد تأخر.

******

صدقوني أنني في بعض الأحيان كنت أعاتب أبي ومعلمي القديس داود النبي، حينما كان يقول للرب: "أَسْرِعْ... فَلا تُبْطِئ" (مز٧٠: ١، ٥).

لأن الرب يا إخوتي ليس عنده إسراع ولا إبطاء. الله يعمل، ويعمل في كل حين، وهو لا يتأخر مهما ظن التلاميذ أنه قد مر الهزيع الرابع من الليل ولم يأت بعد. الرب لا بد سيأتي، إذا كان عندنا إيمان، نؤمن أن الله لا بد سيعمل وسيعمل بقوة، وسيعمل في الوقت المناسب.

أما عبارة التأخير، فهي تحمل مفهومًا نسبيًا عند البشر، يظنون أنه قد تأخر، ولكن مواعيد الله هي هي، تحددها حكمته، وتحددها رؤيته الصادقة للأمور على حقيقتها.

فالله يعمل باستمرار، وإن ظننا في وقت من الأوقات أنه قد تأخر، يقول لنا المرنم في

المزمور: "انْتَظِرِ الرَّبَّ. لِيَتَشَدَّدْ وَلْيَتَشَجَّعْ قَلْبُكَ، وَانْتَظِرِ الرَّبَّ" (مز٢٧: ١٤).

******

وهنا نعرف معنى الرجاء على حقيقته...

إن الإنسان يرجو الرب وينتظر الرب، ليس في قلق، ولا في ضجر، ولا في تذمر، ولا في شك.

ولكن ينتظر الرب، وقد تشدد قلبه، هو قوي القلب في الداخل، قوي بالإيمان أن الرب يعمل، لا أقول إن الرب سيعمل، فهذا مستوى ضعيف. وإنما أقول إن الإنسان يكون عنده رجاء أن الرب يعمل فعلًا.

أنت لا تؤمن أن الله سيعمل في المستقبل، وإنما ينبغي أن تؤمن أن الله يعمل حاليًا. ولذلك يكون عندك رجاء، فيما لا تراه من عمل الله، ولكن توقن تمامًا وتثق أن الله يعمل. إن الطائرة قد تبدو لمن يستخدمها لأول مرة أنها واقفة في الجو، بينما تكون في سرعة أكثر من ثمانِ مائة كيلو مترًا في الساعة، ولكنها تبدو واقفة! وبعض المراوح الشديدة الحركة تبدو متوقفة، وهي تكون في أقوى درجة من السرعة، وكذلك الكثير من الأجهزة.

******

الله يعمل، أنت لا تراه يعمل لكن تؤمن بذلك، ويكون لك رجاء بنتيجة عمله التي ستراها بعد حين.

في الضيقات... الإنسان الذي يرجو الله ينفعه قول المزمور: "إِنْ يُحارِبَنِي جَيشٌ فلَنْ يَخافَ قَلْبي. وَإِنْ قامَ عَليَّ قِتالٌ فَفي هَذا أَنَا مطَمْئِنٌّ" (مز٢٧: ٣).

ولماذا هو مطمئن؟ لأنه يرجو عمل الله فيه، ويرى كما كان أليشع يرى، أن هناك

جيوش الرب تحارب حول المدينة "لأَنَّ الَّذِينَ مَعَنَا أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ مَعَهُمْ" (٢مل٦: ١٦).

ويقول مع المرنم: "نَجَتْ أَنْفُسُنا مِثْلَ العُصْفورِ مِنْ فَخِّ الصَّيّادينَ، الفَخُّ انْكَسَرَ ونَحْنُ نَجَوْنا" (مز١٢٤: ٧).

******

الإنسان الذي عنده رجاء، لا ينظر إلى الضيقات، إنما ينظر إلى الله الذي ينتصر على الضيقات. الذي قال: "أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ" (يو١٦: ٣٣) ويظل فيه هذا الرجاء إلى آخر نسمة، في كل حين، في كل حال، في كل موقف، الرجاء لا يفارقه.

وهذا الرجاء يعطي الإنسان سلامًا في القلب، طمأنينة في الداخل، فرحًا قلبيًا على أساس، ولهذا يقول الرسول في الأصحاح الثاني عشر من رسالته إلى رومية: "فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ" (رو١٢: ١٢).

******

الرجاء بأن الله لا يعسر أمر عليه وأنه قادر على كل شيء، الرجاء في محبة الله وفي مواعيد الله، الرجاء في الله الذي قال: "لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ" (يش١: ٥) الله الذي قال: "هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨: ٢٠) الذي قال: "عَلَى كَفَّيَّ نَقَشْتُكِ"، الذي قال إن "أَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا" (مت١٦: ١٨) ... الرجاء في الله الذي عمل في القديم، والذي يعمل كل حين، الذي نقول له مثلما قالوا في القديم: "قم أيها الرب الإله وليتبدد جميع أعدائك، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضي اسمك القدوس".

الله الذي غلب العالم، نرجوه أن يغلب العالم أيضًا مرة أخرى، يغلب الإلحاد الذي في العالم، يغلب الإباحية والمادية، ويغلب الحقد والكراهية التي في العالم، ويغلب الانقسام والتفكك الذي في العالم، ويغلب العنف واستخدامه الذي في العالم.

هذا هو الإله الذي نرجوه، الذي يعيد الأرض إلى صورتها الأولى وأيضًا الله الذي يقف إلى جوار أولاده باستمرار، الذي رآه يوحنا في رؤياه وهو "فِي وَسْطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ... وفي يمينه مَلاَئِكَةُ السَّبْعِ الْكَنَائِسِ" (رؤ١: ١٣، ٢٠).

فالله ما يزال وسط أولاده، وفي يمينه رعاة الكنائس وقادتها، وهو يقول لنا أغنيته الجميلة: "لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي" (يو١٠: ٢٩).

******

لنا رجاء في الله الذي قال عنه يوحنا الحبيب في رؤياه:

"نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ" (رؤ٤: ١).

فالإنسان الذي يعيش في الرجاء باستمرار ينظر بابًا مفتوحًا في السماء ويرى الله واقفًا في هذا الباب يقول إنه "يَفْتَحُ وَلاَ أَحَدٌ يُغْلِقُ" (رؤ٣: ٧).

******

الله الذي يسعى لخلاصنا دون أن نسعى نحن، والذي يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا، والذي يعرف الخير لنا، أكثر مما نعرف الخير لأنفسنا، الله ضابط الكل الذي يقود الكون كله والذي حياة العالم كله في يديه. هو يدبر الأمور حسب حكمته التي لا تحد، نحن نرجو هذا الإله، ونحن نغني مع الرسول قائلين:

"كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ" (رو٨: ٢٨). ونقصد الخير بالمقاييس الإلهية وليس الخير بمفاهيمنا البشرية. الله هذا صانع الخيرات، هو الذي نرجوه. وهو الذي نعلق كل رجائنا عليه. وهو الذي نقول له في بعض صلوات القداس الإلهي: "يا رجاء من ليس له رجاء. معين من ليس له معين". ونقول في المزمور: "الاِتِّكَالُ عَلَى الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الاِتِّكَالِ عَلَى البَشَرِ. الرَّجَاءُ بِالرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الرَّجَاءِ

بالرُّؤَساءِ" (مز١١٨: ٨، ٩).

******

الرجاء في مواعيد الله الصادقة والرجاء في الحياة الأبدية الجميلة، في القيامة السعيدة، الرجاء الذي نعلقه لا في أمور العالم، وإنما في ذلك الوطن السماوي، "الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الأَسَاسَاتُ، الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ" (عب١١: ١٠).

الإيمان في حياة أخرى جديدة لا تعرف خطية، ولا تعرف إثمًا، الإيمان في التجديد العجيب الذي ننالـه في السماء، حيث ترجع إلينا الصورة الإلهية الأولى، وفي وضع لا يخطئ فيما بعد، الرجاء في الحرية التي ننالها من الرب، بحيث تكون حرية تفعل الخير فقط، ولا تعود تعرف الخطية بعد، الإيمان بملكوت الله الذي نعيش فيه في ذلك الأبد، ونعد أنفسنا له من الآن.

هذا هو الرجاء الحقيقي الذي نرجو فيه ما لا يُرى. لأن الأشياء التي تُرى تدخل في العيان، وليس الرجاء. إنما نحن نرجو ما ننتظره بالصبر، وليس ما نراه كما يقول الرسول: "هذا الرجاء المفروض أن ندعو الجميع إليه".

******

المفروض أن نقول لكل أحد: إن كل باب مغلق له ألف مفتاح، والله يستطيع أن يفتح جميع الأبواب المغلقة ونقول له إن كل ظلمة لا بد بعدها نور، وكل مشكلة لها حل أو عشرات الحلول، وكل ضيقة لها إله هو إلهنا الصالح الذي يُخرِج من الجافي حلاوة، ومن الآكل أكلًا. والذي يحول كل الأمور إلى الخير، كل الأمور التي تمر بنا في حياتنا إن كانت خيرًا ستصل إلينا خير، وإن كان شرًا فالله صانع الخيرات يحول الشر إلى خير.

******

لذلك نحن نعيش في الرجاء فرحين باستمرار. السلام يملأ قلوبنا، لأننا لا نعتمد على ذواتنا ولا على وسائط عالمية، إنما نعتمد على الله الذي يعمل كل خير.

في هذا الرجاء أحب أن نعيش جميعًا، ككنيسة ترجو ملكوت الله وتنتظره، وترجو عمل الله فيها في كل حين، ونؤمن بعمله، وكعالم واسع الأرجاء في كل قاراته، يرجو من الله أن يسود السلام في كل مكان ويسود الخير في كل مكان، ويرجع الحب إلى قلوب الناس جميعًا، فيرتبطون به، ويعيشون به، وكما قال المسيح: "بِهذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلاَمِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضًا لِبَعْضٍ" (يو١٣: ٣٥).

هذا الرجاء إن لم يكن فينا فلنطلبه كعطية مجانية من الله، الذي يملأ القلوب بسلامه وبرجائه. له المجد الدائم من الآن وإلى الأبد آمين...

******

حياة الرجاء يلزمها الثقة

حياة الرجاء يلزمها الثقة في الله، والثقة في مواعيده، وفي عمله، وفي محبته لك وللكل، وفي حكمة تدبيره.

لكي يمتلئ قلبك بالرجاء، ينبغي أن تثق بأن الله يحبك أكثر مما تحب نفسك، وأنه يعرف ما هو الخير لك أكثر مما تعرف أنت بما لا يقاس. وأن كل تدابير الله من جهتك هي في عمق الحكمة والخير، مهما بدت غير ذلك من خلال الشك...

*****

ولا بد أنك تعلم أنك في يد الله وحده، ولست في أيدي الناس، ولا في أيدي التجارب والأحداث، ولا في أيدي الشياطين...

أنت في يد الله وحده. والله قد نقشك على كفه (إش٤٩: ١٦). وقد يظلل عليك

بجناحيه (مز ٩١: ٤) ويحرسك الليل والنهار، ويحفظ دخولك وخروجك (مز ١٢١: ٨). ومن محبته لك، دعاك ابنًا له (١يو٣: ١). وهو الراعي الذي يرعاك فلا يعوزك شيء (مز٢٣: ١). نحن كلنا شعبه وغنم رعيته. ولا يمكن لله كراعٍ صالح أن يغفل عن غنمه. ولا يمكن له كأب أن يغفل عن أولاده.

*****

أما إن كان لديك مشكلة، فيريحك جدًا أن تنتظر الرب. ولا بد أنه سينقذك منها. فهذه نصيحة مباركة يقدمها لنا أحد مزامير صلاة باكر، يقول فيها المرتل:

"انْتَظِرِ الرَّبّ. تَقوَّ وليتَشَدَّدْ قلْبكَ وانْتَظِرِ الرَّبّ" (مز٢٦ [٢٧]: ١٤).

والنصيحة التي يقدمها لنا هذا المزمور، ليس مجرد أن ننتظر الرب، وإنما أن ننتظره في قوة، ونحن متشددون في الداخل...

لا ننتظر الرب في ضيقة، أو في ضجر وتذمر واحتجاج: لماذا لم يعمل الرب حتى الآن؟ أين محبته؟ أين عمله؟! ولا ننتظر ونحن نشك في عمل الله، أو نشك في قيمة الصلاة وفاعليتها!! ولا ننتظر الرب في ضعف داخلي، وفي انهيار، وقد فقدنا معنوياتنا!! كلا، فكل هذه المشاعر ضد فضيلة الرجاء... فالإنسان المضطرب أو اليائس أو الخائف أو المنهار، يدل على أنه فاقد الرجاء... لأن الذي ينتظر الرب في رجاء، إنما يمنحه الرجاء قوة. وكما قال إشعياء النبي:

"وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ" (إش٤٠: ٣١).

فما معنى عبارة "يجددون قوة"؟ معناها أنه كلما حاربهم الشيطان بالقلق أو بالضعف والاضطراب، تتجدد القوة فيهم من تذكرهم لمواعيد الله الصادقة، وصفاته الإلهية المحبوبة باعتباره الأب والراعي والحافظ والساتر والمعين... الله الحنون، المحب، صانع

الخيرات، الذي لا يغفل ولا ينام... فكلما يتذكرون صفة من هذه الصفات تتجدد القوة فيهم، ويرفعون أجنحة كالنسور.

إن منتظر الرب يثق ثقة لا تحد بمحبة الله الفائقة للبشر، وبحكمة الله التي هي فوق إدراكنا البشري...

*****

يثق أن الله يعطينا باستمرار دون أن نطلب، وقبل أن نطلب. فكم بالحري إن طلبنا... وهو يثق أيضًا أن الله يعطينا ما ينفعنا، وليس حرفية ما نطلبه. لأنه ربما تكون بعض طلباتنا غير نافعة لنا... وهنا تظهر حكمة الله في محبته...

لذلك في حياة الرجاء، لا بد أن تثق بحكمة الله في تدبيره لحياتك.

لا تطلب وتصرّ. إنما اطلب وقل: لتكن مشيئتك...

وحينما تقول: "لتكن مشيئتك" ليكن ذلك بفرح، بغير ألم ولا حزن.

*****

هناك أمور كثيرة لا تدريها. وهي معروفه ومكشوفة أمام الله.

ربما الذي تطلبه، لا يكون مناسبًا لك ولا نافعًا لك. وربما الوقت الذي تحدده، يعرف الله تمامًا أنه غير صالح، ويرى أن تأجيل الاستجابة أفضل... لذلك تواضع، واترك لحكمة الله أن تتصرف. وانتظر الرب في ثقة...

أليس من المخجل أننا نثق بذكائنا وفطنتنا أكثر مما نثق بالله!

إننا نضع حلولًا للأمور، واثقين أنها أفضل الحلول، أو أنها الوحيدة النافعة. وربما يكون في ذهن الله حلّ آخر لم يخطر لنا على بال، هو أفضل بما لا يقاس من كل تفكيرنا. ليتنا إذًا نثق بالله... وننتظر حله في رجاء.

أمور تساعد على الثقة

وكما نثق بمحبة الله وحكمته، نثق أيضًا بمواعيده المليئة بالرجاء...

نثق بوعده الصادق "هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨: ٢٠). نثق بقوله: "لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ" (تك٢٦: ٢٤). "لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ. تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ". "لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ" (يش١: ٥، ٦). "تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (يش١: ٩). "لاَ تَخَفْ، أَيُّهَا الْقَطِيعُ الصَّغِيرُ" (لو١٢: ٣٢). "... أَنَا مَعَكَ، وَلاَ يَقَعُ بِكَ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَكَ" (أع١٨: ١٠). "يُحَارِبُونَكَ وَلاَ يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ، يَقُولُ الرَّبُّ، لأُنْقِذَكَ" (إر١: ١٩).

******

وما أكثر عبارات الرجاء التي تحفل بها المزامير...

ليتك تجمع هذه الآيات وتقرأها أو تتذكرها كلما كنت في حاجة إلى الرجاء في حياتك. يكفي أن تسترجع مثلًا مزمور ٩٠ (٩١) أو ١٢٠ (١٢١) حيث يقول لك الوحي الإلهي: "يَسْقطُ عَنْ يَسارِكَ أُلوفٌ وعَنْ يَمينكَ رِبْواتٌ، وأمّا أنْتَ فَلا يَقْتَربُ إلَيْكَ الشَّرُّ. بَلْ بِعَيْنَيْكَ تَتَأَمَّلُ ومُجازاةُ الخُطاةِ تُبْصرُ"، "لأَنَّهُ يوصي مَلائِكتَهُ بِكَ. ليَحْفظوكَ في سَائِرِ طُرُقِكَ..."، "تَطأُ الأفْعَى ومَلِكَ الحيّات، وتَسْحقُ الأسَدَ والتِّنّينَ. لأَنَّهُ تَعلَّقَ بي فَأنجّيه، أُرفّعُهُ لأَنَّهُ عَرفَ اسْمي" (مز٩١: ٧- ١٤). "لا يُسَلِّمُ رِجْلَكَ للزَّلَلِ... الرَّبُّ يَحْفَظُكَ"، "الرَّبُّ يَحْفَظكَ مِنْ كُلِّ سوءٍ، الرَّبُّ يَحْفَظُ نَفْسَك. الرَّبُّ يَحْفَظُ دُخولَكَ وخُروجَكَ" (مز١٢٠: ٣، ٧، ٨).

كلها آيات تبعث الرجاء في النفس، وتقوي القلب في الداخل.

******

ويزيد الرجاء فيك أيضًا، تذكرك معاملات الله لقديسيه...

إن تذكرت كل هذا، يمتلئ قلبك بالرجاء، وتنتظر الرب في ثقة.

الفصل الثاني

كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ

(رو٨: ٢٨)

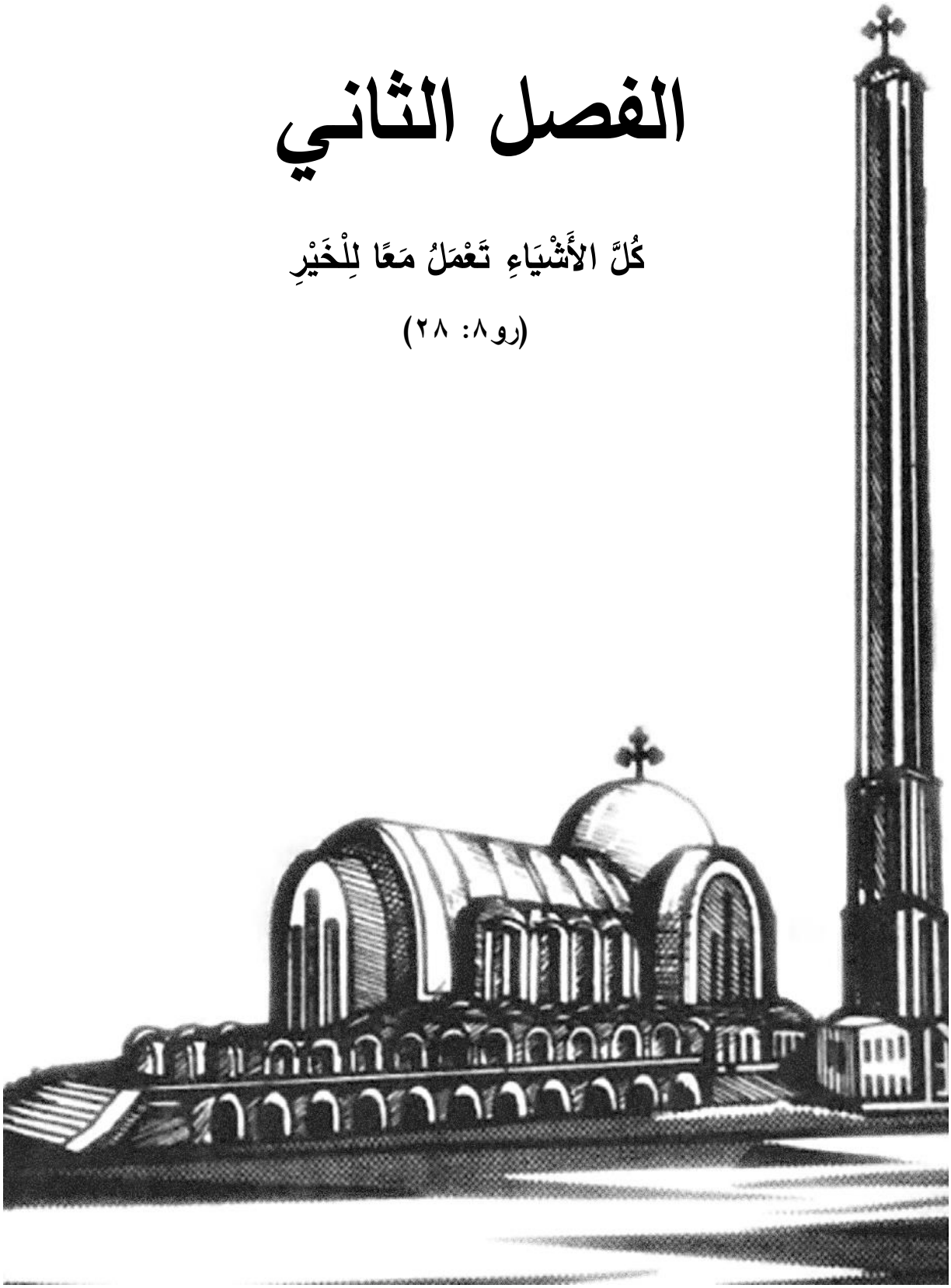

كل الأشياء تعمل معًا للخير (رو٨: ٢٨)[١]

كثير من الناس تمر عليهم التجارب والضيقات، فتعصرهم عصرًا، ويقعون في الكآبة الشديدة، وربما في اليأس. وهؤلاء يريحهم قول الكتاب:

"كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ" (رو٨: ٢٨).

والكتاب المقدس حافل بقصص كثيرة معزية في هذا المجال:

قصة يوسف الصديق

إنسان يقسو عليه إخوته، ويلقونه في بئر، ثم يبيعونه كعبد لتجار من الإسماعيليين. وبعد أن يخلص لسيده كل الإخلاص، وينجح في عمله جدًا، تلفق ضده تهمة رديئة من امرأة سيده، ويُلقى في السجن. وتطول به الأيام في سجنه...

ولكن كل هذه الأمور، كانت تعمل للخير.

فلولا التهمة التي أوصلته إلى السجن، ما كان خبره يصل إلى فرعون فيجعله وزيره الأول، والثاني في المملكة.

وطبعًا لولا قسوة إخوته، ما كان قد بيع إلى بيت فوطيفار. ولولا أن امرأة فوطيفار كانت خاطئة، ما كانت تشتهيه، ثم تلفق له التهمة التي أوصلته إلى السجن. ولولا سجنه ما كان قد تعرف على رئيس سقاة فرعون الذي أخبر فرعون بقدرته على تفسير الأحلام، فاستدعاه فرعون. وخرج من السجن إلى المملكة (تك٣٩- ٤١).

*****

وبدون كل هذا، ما كان إخوته قد تابوا، وبكوا، واعترفوا بخطيئتهم، وعادت المحبة

[١] من محاضرة ألقيت في الكاتدرائية يوم الجمعة ٢٠ فبراير ١٩٧٦م

إلى الأسرة، ونجوا من المجاعة، واجتمعوا كلهم في مصر...

المشكلة أن الناس تحصرهم المشكلة، ولا يكون لهم الرجاء في أنها ستؤول إلى الخير.

يقفون عند البداية التي تبدو سيئة أو مؤلمة، ولا يتابعون العمل الإلهي، الذي يحول الشر إلى خير، والذي يخرج من الجافي حلاوة (قض١٤: ١٤).

لا شك أن قصة يوسف الصديق، هي درس في الرجاء، وفي أن كل الأشياء تعمل معًا للخير.

نتدرج إلى نقطة أخرى تبدو غريبة وعجيبة، وهي:

خطية آدم

إنها خطية، جرت على العالم ما لا يحصى من الكوارث. وبها دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت (رو٥: ١٢).

ومع ذلك، فإن الله الذي يخرج من الجافي حلاوة، استطاع أن يجعل كل الأمور تعمل معًا للخير.

وكنتيجة لذلك عرفنا عمليًا محبة الله لنا (يو٣: ١٦). وبركات الكفارة والفداء.

ولو كان آدم لم يخطئ، لبقي في الفردوس. في جنة يأكل فيها ويشرب، ويعيش مع الحيوانات والطيور والأسماك... أما الآن، فقد صار لنا الملكوت بكل ما يحمل من بركات غير مرئية، فيها "مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ" (١كو٢: ٩).. ولنا فيه عشرة الملائكة القديسين...

وهذا يذكرنا بنقطة أخرى عجيبة وهي:

الموت

كل الناس يكرهون الموت، ويرونه سببًا للحزن! ويلبسون لأجله السواد، ويقابلونه بالدموع والبكاء... ولكنه أيضًا من الأمور التي تعمل للخير...

فالموت هو الطريق إلى حياة أفضل، وإلى مستوى أعلى ستؤول إليه البشرية...

حيث في القيامة، سنقوم بأجساد سماوية يمكنها أن ترث الملكوت (١كو١٥)... ولولا الموت لبقينا في هذا الجسد المادي... أليس الموت أيضًا يعمل معًا للخير.

فلنتأمل قصة القديس الأنبا أنطونيوس، وموت أبيه.

كان موت أبيه درسًا عميقًا له في فناء الحياة الدنيوية وبطلانها. ولقد نظر الشاب أنطونيوس إلى أبيه الميت، وقال له: "أين هي عظمتك وسلطانك؟! لقد خرجت من الدنيا على الرغم منك. ولكني سأخرج منها بإرادتي، قبل أن يخرجوني مثلك كارهًا"... وكانت بداية الحياة الرهبانية...

الأمراض

المرض آفة يحاربها الناس ويهربون منها إلى الطب والدواء... ومع ذلك فإن الأمراض "تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ" (رو٨: ٢٨).

أمراض كثيرة قادت إلى التوبة، وفعلت ما لم تفعله أعمق العظات...

وبخاصة الأمراض الخطيرة والمؤلمة... كم قد أدخلت كثيرين في عهود مع الله، وفي نذور قدموها إلى الله، وفي حياة جديدة مع الله، أو أدخلتهم في توبة واستعداد للموت... وهكذا كانت تعمل معًا للخير.

*****

وأمراض قادت الناس إلى الصلاة وإلى الصوم.

وإلى زيارة الأماكن المقدسة، والتشفع بالملائكة والقديسين، وإلى إقامة القداسات، والقيام بأعمال الرحمة نحو الفقراء والمساكين.

وهكذا كما استفاد المريض نفسه اقترابًا إلى الله، استفاد أيضًا أقاربه ومحبوه فوائد روحية عديدة...

بل الأمراض كانت نافعة للقديسين، لإشعارهم بضعفهم ومنع المجد الباطل عنهم.

وفي ذلك يقول القديس الرسول: "وَلِئَلاَّ أَرْتَفِعَ بِفَرْطِ الإِعْلاَنَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي الْجَسَدِ، مَلاَكَ الشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي، لِئَلاَّ أَرْتَفِعَ" (٢كو١٢: ٧).

وقد صلى بولس ثلاث مرات، ليشفيه الله من ذلك المرض. ولكن الله قال له: "تَكْفِيكَ نِعْمَتِي". واستبقى مع بولس هذه الشوكة التي في الجسد، لأنه – تبارك اسمه – كان يعرف كم تعمل مع قديسه للخير، وكم تجلب له من اتضاع قلب...

وقصة القديس بولس مع المرض، تذكرنا بيعقوب أبي الآباء.

لقد صارع مع الله وغلب (تك٣٢: ٢٨)، ونال البركة. ومع ذلك ضرب الله حق فخذه فانخلع. وظل يخمع على فخذه (تك٣٢: ٣١). وبقى هذا المرض معه، كعطية من الله، يعمل معه للخير، ويهبه الاتضاع إذ يشعر بضعفه، لئلا يرتفع قلبه بسبب أنه نال البركة، وأنه صارع مع الله وغلب...

تجربة أيوب

لعل إنسانًا يسأل: لماذا هذه التجربة تحل على إنسان قديس، شهد له الله مرتين بأنه "لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ" (أي١: ٨) (أي٢: ٣) ...

والحقيقية أن هذه التجربة كانت للخير من عدة نواح:

كانت التجربة لخير أيوب، أوصلته إلى الاتضاع.

كان محاربًا بشيء من المجد الباطل... كان بارًا، ويعرف عن نفسه أنه بار. ولهذا قال: "لَبِسْتُ الْبِرَّ فَكَسَانِي. كَجُبَّةٍ وَعَمَامَةٍ كَانَ عَدْلِي" (أي٢٩: ١٤). وقيل عنه أنه كان "بَارًّا فِي عَيْنَيْ نَفْسِهِ" (أي٣٢: ١) ... فكانت التجربة لازمة له، لتعمل معه للخير، توصله إلى انسحاق القلب، وإلى معرفة الله. ولما وصل إلى عبارة "وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ" (أي٤٢: ٦) ... رفع الله عنه التجربة

وكانت التجربة نافعة لأصحاب أيوب الثلاثة:

ذلك لأنهم كانوا "مُعَزِّينَ مُتْعِبِينَ" (أي١٦: ٢). وقد "اسْتَذْنَبُوا أَيُّوبَ" وأساءوا إليه (أي٣٢: ٣). وحتى من جهة الله، لم يتكلموا عنه بالصواب (أي٤٢: ٨). فكانت التجربة لازمه لهم، لتصحيح مفاهيمهم الروحية. وقد قادتهم إلى التوبة "واصعدوا محرقات لأجل أنفسهم" (أي٤٢: ٩).

*****

وكانت التجربة نافعة للعالم كله.

تلقى بها العالم درسًا في الصبر، كما قال القديس يعقوب الرسول: "خُذُوا يَا إِخْوَتِي مِثَالاً لاحْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ وَالأَنَاةِ... هَا نَحْنُ نُطَوِّبُ الصَّابِرِينَ. قَدْ سَمِعْتُمْ بِصَبْرِ أَيُّوبَ وَرَأَيْتُمْ عَاقِبَةَ الرَّبِّ..." (يع٥: ١٠، ١١).

******

وحتى تجربة أيوب، من الناحيتين العائلية والمادية، كانت نافعة له.

فقد "زَادَ الرَّبُّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لأَيُّوبَ ضِعْفًا... وَبَارَكَ الرَّبُّ آخِرَةَ أَيُّوبَ أَكْثَرَ مِنْ أُولاَهُ" (أي٤٢: ١٠، ١٢). أعطاه الرب ضعف ما كان له من الخيرات المادية. ووهبه

الرب بنين وبنات "وَلَمْ تُوجَدْ نِسَاءٌ جَمِيلاَتٌ كَبَنَاتِ أَيُّوبَ فِي كُلِّ الأَرْضِ" (أي٤٢: ١٥). ووهب الرب أيوب عمرًا طويلًا، "وَعَاشَ أَيُّوبُ بَعْدَ هذَا (التجربة) مِئَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَرَأَى بَنِيهِ وَبَنِي بَنِيهِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَجْيَال"...

وهكذا كانت التجربة لخيره، لما احتملها.

*****

وكانت تجربة أيوب خجلًا للشيطان.

أو كانت هزيمة جديدة له، لأن الشيطان قد لا يخجل من أخطائه. لذلك نقول كانت هذه التجربة سبب خزي له. فتعبير "خزي" أكثر موافقة للمعنى...

وهكذا كانت تجربة تعمل معًا للخير لكل الأطراف...

*****

التجارب عمومًا

يخاف البعض من التجارب، وقد يضطرب لها. بينما يقول الرسول:

"اِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ" (يع١: ٢).

المسألة تحتاج إلى ثقة في عمل الله معنا أثناء التجربة، وكيف يجعلها تؤول إلى خيرنا. وهنا نرى القديس يعقوب الرسول، لا يدعونا فقط إلى الاحتمال والصبر، وإنما بالأكثر يدعونا إلى الفرح بالتجارب.

وهكذا ندخل في حياة الفرح الدائم. في النعمة نفرح، وفي التجربة أيضًا نفرح. ونقول:

المر الذي يختاره الرب لي، خير من الشهد الذي اختاره لنفسي...

نقول كل طرقك يا رب، بحكمة قد صنعتها... كله للخير...

هيرودس أراد أن يقتل المسيح وهو طفل،

فصار هذا خير لمصر لما جاءها المسيح.

بارك الرب أرض مصر، وصارت لنا مقادس فيها. وسقطت كثير من الأصنام (إش١٩: ١٩– ٢٢)، وكانوا حينما يطردون العائلة المقدسة من بلد بسبب سقوط الأصنام، تذهب إلى بلد مصري آخر. فكثرت البلاد التي تقدست بزيارة العائلة المقدسة لمصرنا، وصار ذلك تمهيدًا لانتشار الإيمان المسيحي فيها...

بتذكرنا لكل هذا، نسعد بكل ما يحدث لنا، مؤمنين أنه:

إن لم يكن الأمر خيرًا في ذاته

فلا بد سيكون خيرًا في نتيجته

*****

خذوا كمثال: متاعب داود من شاول الملك.

لقد طارده من مدينة إلى مدينة، ومن برية إلى أخرى. وعاش بسببه هاربًا في البراري والقفار، يترصده الموت في كل خطوة. ولكن كل ذلك التعب أعده لتحمل مسئوليات المُلك فيما بعد. إذ نضج داود سنًا وشخصية. وصار جبار بأس، كثير الاحتمال.

يعرف كيف ينتظر الرب بإيمان ويؤمن بتدخله.

والضيقات التي احتملها، صارت نبعًا لمزاميره.

يغنيها على العود والقيثار والمزمار. وصارت ينبوعًا لتأملات روحية وصلوات عميقة، تصليها الأجيال من بعده. وترى فيها كيف يختلط الطلب بالشكر بالإيمان... وأعطانا أسلوبًا نصلي به ونحن في وقت الألم والضيقة. وصار داود رجل صلاة، صقلته التجارب، وصاحب خبرة بالعشرة مع الله.

ولو عاش داود مدللًا، تُرى ماذا كانت شخصيته ستكون؟!

*****

الضيقات لو لم تنته إلى خير على الأرض، فعلى الأقل ستعد لنا أكاليل يهبها لنا في ذلك اليوم الديان العادل.

*****

إن الضيقات هي مدرسة للصلاة.

ربما حياة التنعم تبعدنا عن الله. أما حياة الألم فإنها تقربنا إليه. فتصير صلواتنا أعمق وأكثر، وتصير أصوامنا أكثر روحانية. كما نقترب إلى الله بالتوبة والمصالحة معه، فنرجع إليه.

إن الضيقة التي وقع فيها إخوة يوسف، جعلتهم يتذكرون خطيئتهم إليه "وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «حَقًّا إِنَّنَا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هذِهِ الضِّيقَةُ... فَهُوَذَا دَمُهُ يُطْلَبُ" (منا)" (تك٤٢: ٢١، ٢٢).

*****

حتى سقوط الناس في الخطية كان يؤول بالتوبة إلى خير.

عاش أغسطينوس في الخطية زمنًا طويلًا، بكت عليه فيه أمه القديسة مونيكا...

ثم تاب أغسطينوس، وكان من نتائج حياته الأولى كتابه الرائع عن اعترافاته، وهو كنز روحي، وسبب منفعة روحية للملايين، يعرفنا كيف يعترف الإنسان علنًا، ويعترف حتى بخطاياه وهو طفل أو رضيع...

*****

وبالمثل يمكن أن نتحدث عن خطية داود النبي.

كيف أوصلته الخطية إلى حالة عجيبة من انسحاق النفس، قال فيها: "أُعَوِّمُ كلَّ لَيلةٍ سَرِيرِي، وبِدُمُوعِي أبلُّ فِراشِي" (مز٦: ٦). وكيف اعترف إلى الرب قائلًا: "لَكَ وحْدَك أخْطأْت، والشَّرُّ قدامَكَ صَنعْتُ... قَلْبًا نَقيًا أخْلقْ فيَّ يَا الله، ورُوحًا مُسْتَقيمًا جدِّدهُ في أحْشَائِي" (مز٥٠: ٤، ١٠)... إلى آخر ما حواه المزمور الخمسون، مزمور التوبة وما حوته باقي مزاميره من مشاعر الانسحاق...

كان ملكًا عظيمًا، محترمًا ومبجلًا من الكل. ولكن الخطية أذلته، فقال:

"خَيرٌ لي أنّكَ أذلَلْتَني حتى أتَعلّمُ فَرَائِضَكَ (وصاياك)" (مز١١٩: ٧١).

وحينما أهانه شمعي بن جيرا إهانة مؤلمة، وهو هارب من أبشالوم، لم يسمح لأنصاره أن ينتقموا من هذا الإنسان، بل قال في اتضاع "دَعُوهُ يَسُبَّ لأَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُ: سُبَّ دَاوُدَ... لَعَلَّ الرَّبَّ يَنْظُرُ إِلَى مَذَلَّتِي" (٢صم١٦: ١٠، ١٢).

*****

وبالمثل ما استفاده خاطئ كورنثوس من خطيئته وعقوبته.

كم أوجد فيه ذلك من الحزن والبكاء، حتى أن القديس بولس الرسول في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، أمرهم أن يمكنوا له المحبة "لِئَلاَّ يُبْتَلَعَ مِثْلُ هذَا مِنَ الْحُزْنِ الْمُفْرِطِ" (٢كو٢: ٧) ... وكان درسًا لغيره، ودرسًا للمدينة كلها في أن "يعزلوا الخبيث من وسطهم" (١كو٥: ١٣).

*****

سقوط إنسان في خطية، تدعوه إلى الشفقة على الذين يسقطون.

لأنه قد أدرك بالخبرة، قوة حروب الشياطين وسهولة السقوط في الخطية التي "طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى، وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ" (أم٧: ٢٦). ولذلك يقول القديس بولس: "اُذْكُرُوا

الْمُقَيَّدِينَ كَأَنَّكُمْ مُقَيَّدُونَ مَعَهُمْ، وَالْمُذَلِّينَ كَأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا فِي الْجَسَدِ" (عب١٣: ٣).

*****

والسقوط أيضًا يكشف للإنسان ذاته وضعفه.

وهذا يؤول إلى الخير، إذ يجعله يكون أكثر حرصًا وتدقيقًا في المستقبل، ويبعد عن التهاون. كما أن اكتشاف ضعفه يعطيه فرصة للرد على كل فكر كبرياء أو افتخار يحاربه فيما بعد.

*****

لذلك عيشوا باستمرار في بشاشة وفرح.

"اِفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ" (في٤: ٤).

في كل ما يحدث لكم قولوا: إننا تحت رعاية الله محب البشر، الله الذي يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا، والذي يعرف خيرنا أكثر مما نعرفه... الله الذي يسخر جميع الأمور لكي تعمل من أجل خيرنا... الذي جعل قوانين الطبيعة أيضًا تعمل معًا للخير، والذي خلق الحيوانات والطيور والنباتات أيضًا لأجل خيرنا. وخلق الهواء والشمس والقمر والنجوم من أجلنا... كلها تعمل معًا للخير، من أجل راحتنا وسعادتنا.

*****

فلنشكر الله الذي جعل كل الأشياء تعمل معًا للخير، لأجلنا.

الله صانع الخيرات، الذي قيل عن ملائكته: "أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!" (عب١: ١٤).

ولأجلنا أيضًا عين الرب رتبًا في الكنيسة "أَعْطَى الْبَعْضَ أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً، وَالْبَعْضَ أَنْبِيَاءَ، وَالْبَعْضَ مُبَشِّرِينَ، وَالْبَعْضَ رُعَاةً وَمُعَلِّمِينَ، لأَجْلِ تَكْمِيلِ الْقِدِّيسِينَ لِعَمَلِ الْخِدْمَةِ،

لِبُنْيَانِ جَسَدِ الْمَسِيحِ" (أف٤: ١١، ١٢).

*****

عش سعيدًا مهما حدث لك. قل: كله للخير.

بهذا يكون إنسان الله خاليًا من كل الأمراض النفسية. خاليًا من الكآبة، والاضطراب، والحزن السيئ، والتعقيد واليأس... بل باستمرار يملك السلام على قلبه... السلام القائم على الإيمان بالله وعمله...

*****

ولكن كل ذلك على شرط واضح في الآية، وهو "كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ الرب" (رو٨: ٢٨).

إذًا الشرط هو: أن تكون ممن يحبون الرب.

لأن هناك أناسًا لا تعمل الضيقات معهم للخير: بل ربما الضيقة تسبب له ألوانًا من التذمر والتعب والتجديف واليأس.

هناك أناس لا يحبون الرب المحبة التي تجعلهم يثقون به وبمواعيده وبتدخله وبحلوله. ليس لديهم الإيمان الكافي، لذلك تعصرهم الضيقة، وتجعل نفوسهم متأزمة معقدة، تعيش في رعب المشكلة، وليس في حلها.

*****

كلمات في الرجاء

ليتنا بدلًا من أن ننظر إلى الحاضر المتعب الذي أمامنا، ننظر بعين الرجاء إلى المستقبل المبهج الذي في يد الله.

*****

كل مشكلة تبدو معقدة أمامنا، لها عند الله حلول كثيرة.

وكل باب مغلق، له في يد الله مفتاح بل مفاتيح عديدة...

هو "الَّذِي يَفْتَحُ وَلاَ أَحَدٌ يُغْلِقُ" (رؤ٣: ٧).

*****

الرجاء يمنع الخوف، ويمنع القلق والاضطراب، ويبعث الاطمئنان.

بل إننا نكون "فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ" (رو١٢: ١٢).

لا ننظر إلى المتاعب مجردة، بدون عمل الله، الذي يقدر أن يحول الشر إلى خير...

*****

الله قادر أن يحول كل مجريات الأمور، في اتجاه مشيئته.

*****

الذي لا يستطيعه الضعف البشري، تقدر عليه قوة الله.

والذي لا تستطيعه حكمة الناس، تقدر عليه حكمة الله.

*****

ثق أنك لست وحدك. أنت محاط بمعونة إلهية.

وقوات سمائية تحيط بك، وقديسون يشفعون فيك.

*****

الفصل الثالث

تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ

(مت١١: ٢٨)

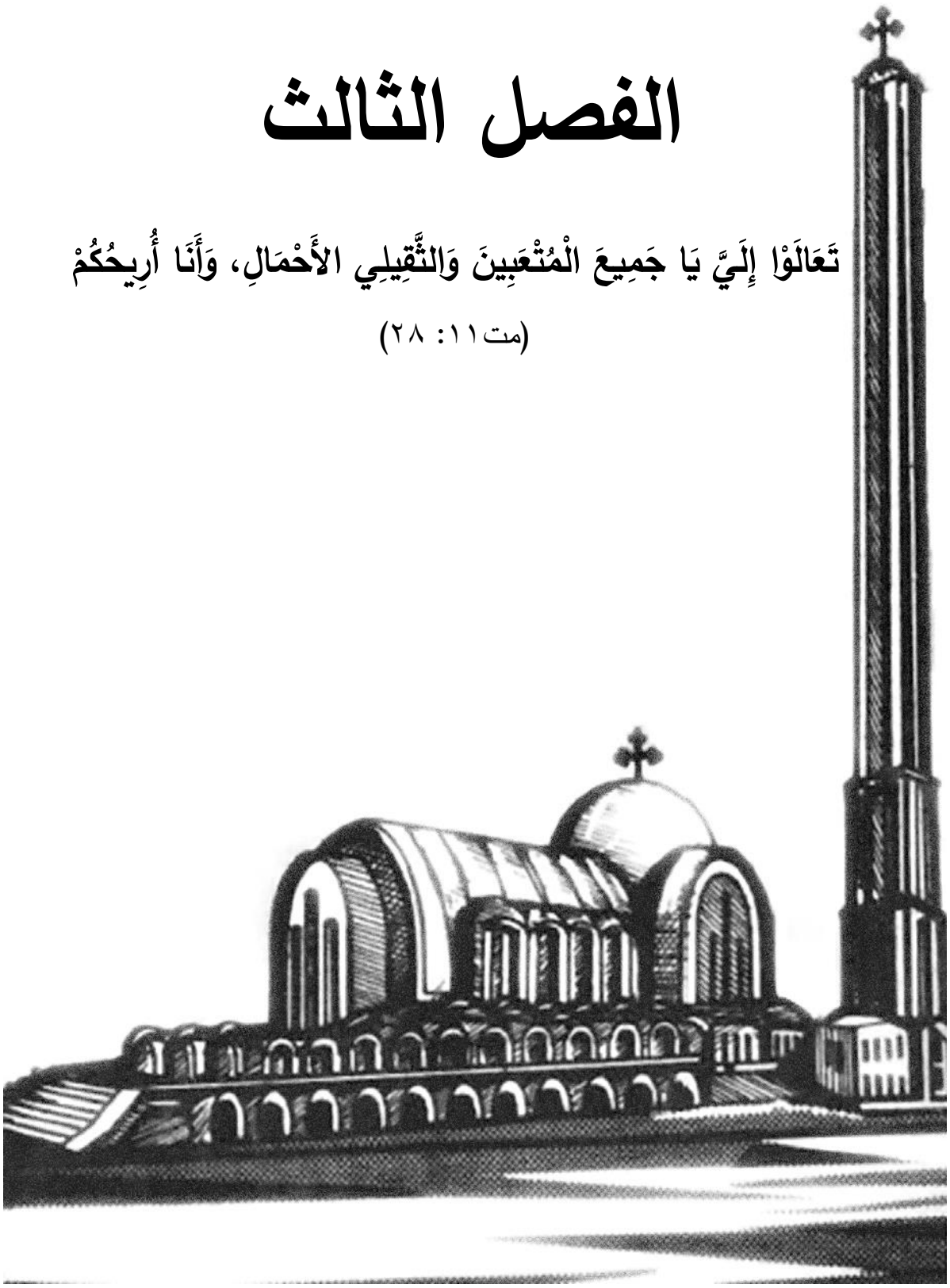

تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم[٢]

كل إنسان في الدنيا له متاعبه الخاصة، سواء كانت متاعب ظاهرة للآخرين، أو مكتومة في القلب، سواء كانت متاعب روحية، أو متاعب نفسية، أو متاعب جسدية، أو متاعب عائلية أو اجتماعية.

والسيد المسيح قد جاء من أجل التعابى.

"جَاءَ لِكَيْ يُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (مت١٨: ١١). جاء ليخلص العالم من خطيئته كما قال إشعياء النبي: "كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا" (إش٥٣: ٦). وأيضًا جاء المسيح ليخلص العالم من آلامه ومتاعبه، ولذا قال نفس النبي: "لكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا" (إش٥٣: ٤). وهو أيضًا قال: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت١١: ٢٨).

لماذا قال "يا ثقيلي الأحمال؟" ربما لأن الذي حمله خفيف يحتمل ويسكت. أما الذي حمله ثقيل، فليس أمامه إلا أن يقول: يا رب...

المفروض أن نلجأ إلى الرب، سواء كان الحمل ثقيلًا أو خفيفًا. ولكن على الأقل إذا كان الإنسان مضغوطًا جدًا من ثقل أحماله، فلن يجد أمامه سوى وعد الرب بأن يريحه.

تعالوا... وأنا أريحكم. إنها دعوة ووعد.

دعوة من الله، ووعد إلى عالم تعبان، مثقل بمشاكل من كل نوع: مشاكل الانشقاقات والحروب، ومشاكل الإسكان والتموين، ومشاكل الزواج والطلاق، ومشاكل التطرف والإرهاب، ومشاكل الفساد والإدمان. وفي كل هذه المشاكل، يقول الرب تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين... وأنا أريحكم.

---

[٢] من محاضرة ألقيت في الكاتدرائية يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر ١٩٨٦م

وهنا نجد صفة جميلة من صفات الرب، وهو أنه مريح.

مريح التعابى والثقيلي الأحمال، كثيرون في متاعبهم يجلسون مع آخرين فيزيدونهم تعبًا على تعبهم.

وقد يلجأون إلى البعض، فلا يجدون منهم سوى الإهمال واللامبالاة. لكن المسيح المريح، كل من يلجأ إليه يستريح. إنه دائمًا يعطي. يعطي الناس راحة وهدوًا وعزاءً، وسلامًا وطمأنينة في الداخل. ويرفع عن الناس أثقالهم، ويحملها بدلًا عنهم، ويريحهم. وهكذا يفعل من لهم صورة الله...

قال الرب: "ادْعُنِي فِي يَوْمِ الضِّيقِ أُنْقِذْكَ فَتُمَجِّدَنِي" (مز ٥٠: ١٥).

البعض إذا أصابته ضيقة، يظلّ يغلي بالألم والحزن داخل نفسه. أفكاره تتعبه، ونفسيته تتعبه، وربما اليأس يتعبه. وربما لا يجد أمامه سوى الشكوى أو التذمر أو البكاء. وفي كل ذلك لا يفكر أن يلجأ إلى الله، ولا أن يضع أمامه قول المزمور:

"أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ هَمَّكَ فَهُوَ يَعُولُكَ" (مز٥٥: ٢٢).

تعال إذًا وكلم الرب عن متاعبك بكل صراحة، سواء كانت تتعبك معاملة الآخرين أو ضغوطهم. أو ظلمهم أو قسوتهم... أو كانت تتعبك شكوك أو أفكار، أو خطايا، أو عادات مسيطرة عليك، وتأكد أن الرب يعرف متاعبك أكثر مما تعرفها أنت ويريد أن يخلصك منها جميعًا. فاطلبه في رجاء وثقة، واضعًا أمامك قول المزمور:

"يَسْتَجِيبُ لكَ الرَّبُّ فِي يَومِ شِدَّتكَ، يَنْصُركَ اِسْمُ إِلَهِ يَعْقُوبَ" (مز٢٠: ١)

وثق أن الكنيسة أيضًا تصلي من أجلك، حينما تقول في آخر صلاة الشكر "كل حسد وكل تجربة، وكل فعل الشيطان، ومؤامرة الناس الأشرار، وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنا وعن سائر شعبك"... كذلك تذكر كل متاعبك في صلوات القداس

الإلهي.

*****

تأكد أيضًا أن الضيقات ليست لونًا من التخلي.

فالله سمح أن رسله وقديسيه تصيبهم الشدائد، ولكنه كان واقفًا إلى جوارهم يريحهم. وهكذا قال القديس بولس الرسول عن نفسه وعن زملائه في الخدمة "مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لكِنْ غَيْرَ مُتَضَايِقِينَ. مُتَحَيِّرِينَ، لكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ. مُضْطَهَدِينَ، لكِنْ غَيْرَ مَتْرُوكِينَ..." (٢كو٤: ٨، ٩).

نعم، ما أكثر متاعب الناس... والمسيح مستعد أن يريحهم جميعًا.

هناك شخص يتعبه الآخرون. وهناك من تتعبه نفسه. كإنسان مغلوب من شهواته، أو مغلوب من طباعه، أو من عاداته. أو تعبان من أفكاره وضغطها عليه. ويريد أن ينتصر على نفسه ولا يستطيع... هذا يستند على قول الرب: "تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين... وأنا أريحكم".

وهناك إنسان تتعبه الخطية ولا يستطيع فكاكًا منها...

كلما يتوب، يرجع فيخطئ مرة أخرى. ومهما اعترف بخطية، يعود إليها ويكرر اعترافاته. يضع لنفسه تداريب روحية، ولكنه لا يثبت فيها. يحاول أن يغصب نفسه على حياة البر، ومع ذلك فلا يزال يحيا في الخطية. خطيته هي هي منذ سنوات، وطبعه الرديء هو هو، ولا تحسن! إنه مغلوب وساقط. تكاد الخطية أن تصبح طبيعة له. وقد لجأ إلى الآباء والمرشدين الروحيين، وإلى القراءات وأقوال الآباء القديسين وسيرهم، ولا فائدة. هذا الإنسان ليس أمامه سوى قول الرب: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت١١: ٢٨).

فشل الالتجاء إلى غير الله

لماذا تجعل الرب آخر من تلجأ إليه. أبدأ به حتى تصل ولا تضل. هوذا الرب يعاتبنا قائلًا:

"تَرَكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ، لِيَنْقُرُوا لأَنْفُسِهِمْ أَبْآرًا، أَبْآرًا مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَاءً" (إر٢: ١٣).

نعم، كثيرون يلجأون إلى الآبار المشققة، سواء من جهة الآخرين أو أنفسهم. يقع أحدهم في مشكلة. فيحاول أن يحلها بذكائه الخاص وتفكيره، بحيله وتدبيره. أو يلجأ إلى الآخرين لكي يسندوه في مشكلته. ولا ينتفع من كل ذلك شيئًا، لأنه لم يلقِ همه على الله وحده وهو يعوله. لم يطلب المسيح لكي يريحه. إنه يحاول الاعتماد على الذراع البشري! ويتجاهل قول الرب: "تَعَالَوْا إِلَيَّ"... لذلك يفشل ويبقى في مشاكله بلا حل.

أخآب الملك اشتهى شهوة. اشتهى حقل نابوت اليزرعيلي. ولم يلجأ إلى الله، بل لجأ إلى إيزابل، فضيعته. أسند رأسه المتعبة على إيزابل فضاع.

كذلك شمشون أسند رأسه المتعبة على دليلة، فضاع!

ولم يحدث أن أحدًا منهما وجد حلًا... كذلك اليهود لما لجأوا إلى فرعون، لكي يخفف عنهم تعبهم، لم يخففه، بل أزاد أثقالهم، قائلًا لهم: "مُتَكَاسِلُونَ أَنْتُمْ، مُتَكَاسِلُونَ!" (خر٥: ١٧). ولما لجأ الشعب إلى رحبعام ليخفف عنهم نير سليمان أبيه، أجابهم "أَبِي أَدَّبَكُمْ بِالسِّيَاطِ وَأَنَا أُؤَدِّبُكُمْ بِالْعَقَارِبِ" (١مل١٢: ١٤).

إن الذراع البشري ليس هو الذي ينقذ الإنسان. إنما الذي ينقذه هو الله.

لذلك ارفع بصرك إلى الله وقل له: "كل حملي سألقيه عليك، ولا أعود أفكر فيه ثانية، أنت الذي تحله، لأنك أنت حلال المشاكل وليس غيرك. وكلما ألجأ إلى غيرك تزداد

مشاكلي وتتعقد...

*****

عجيب أن البعض يحاول أن يحل مشاكله بخطايا!

هناك من يحاول أن يحل المشكلة بالكذب، وأحيانًا يقول إنه كذب أبيض! أو قد يلجأ إلى المكر وإلى الدهاء. بل قد يحاول في بعض الأوقات أن يحل مشكلته بالعنف. أو قد يهرب من مشكلته بتعاطي الخمر أو المخدرات لكي ينساها، أو قد يلجأ إلى المسكنات والمنومات، أو إلى التدخين. وكل ذلك لا يحل مشكلته، بل يضيف إليها مشكلة أخرى وأسوأ من ذلك يلجأ إلى السحرة والعرافين والدجالين.

*****

والبعض قد يحاول حل مشكلته بالوهم وأحلام اليقظة.

فيجلس ويتخيل أنه قد صار وصار... وإذ لا يعجبه الواقع، يحاول على الأقل أن يتلذذ بالخيال! ويقول لنفسه: إن لم أنل النجاح. فعلى الأقل أحلم به! وإن استيقظت من أحلامي، أنام مرة أخرى لأحلم بها...! ولكن أحلام اليقظة لا تحل مشاكله التي تظل باقية. إنما يحلها قول الرب: "تعالوا إليَّ وأنا أريحكم".

*****

الله هو حلّال المشاكل

هناك أشخاص لم يكن لهم حل سوى الله. مثال ذلك: الثلاثة فتية، حينما ألقوا في أتون النار. ويونان النبي حينما كان في جوف الحوت. ودانيال النبي حينما ألقوه في جب الأسود. حقًا من كان ينقذ كل هؤلاء سوى الله وحده؟! الذي أرسل ملاكه فسد أفواه الأسود (دا٦: ٢٢)، وأمر الحوت فقذف يونان إلى البر (يون٢: ١٠). ولم يسمح للنار

أن تؤذي الفتية.

كذلك تدخلت يد الله في المشكلة الأريوسية...

لقد قامت الكنيسة كلها على أريوس الهرطوقي. حرمه المجمع المسكوني، ورد عليه القديس أثناسيوس. ولكنه استمر يشكك الناس في الإيمان، ويلجأ إلى سلطة الإمبراطور لحمايته فأمر بإرجاعه. والتفت الرب إلى الكنيسة قائلًا: "تَعَالَوْا إِلَيَّ... وَأَنَا أُرِيحُكُمْ". وأقيمت الصلوات، فانسكبت أحشاء أريوس، ومات...

كذلك فعل الله مع جيش سنحاريب، ومع فرسان فرعون.

حزقيًا الملك مزق ثيابه وتغطى بمسح، ودخل بيت الرب، ملقيًا همه عليه. فخرج ملاك الرب وضرب من جيش أشور ١٨٥ ألفًا (٢مل١٩: ١، ٣٥). وأغرق الرب فرعون وفرسانه في البحر الأحمر. ذلك لأن موسى النبي قال للشعب: "قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ... الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ" (خر١٤: ١٣، ١٤).

*****

حقًا: حينما تفشل جميع الحلول، يبدو حل الله واضحًا. والرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون.

إنه أمين في قوله: "أنا أريحكم". ما أجمل الترتيلة التي تقول: "لما أكون تعبان أروح لمين غيرك"... بنفس الوضع أراح الرب الكنيسة من دقلديانوس الذي سفك دماء آلاف الشهداء، بل دماء مدن بأسرها، كشهداء أخميم وشهداء إسنا. وأراحنا الله من دقلديانوس، وجاء قسطنطين بمرسوم ميلان للتسامح الديني... وأراح الله الكنيسة من اضطهاد شاول الطرسوسي لها. وحوله بنعمته إلى أقوى كارز بالمسيحية فصار بولس.

ولا ننسى أيضًا كيف أراح الله داود النبي من شاول الملك الذي كان يطارده من برية

إلى أخرى...

*****

إن حلول الله هي أقوى الحلول وأنجح الحلول. فعلينا أن نلجأ إليها ونتمسك بها.

يعقوب أبو الآباء، كان خائفًا من أخيه عيسو، وعاجزًا عن ملاقاته، ولكنه عندما تمسك بالرب وقال له: "لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي" (تك٣٢: ٢٦)، "نَجِّنِي مِنْ يَدِ أَخِي، مِنْ يَدِ عِيسُوَ، لأَنِّي خَائِفٌ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ وَيَضْرِبَنِي الأُمَّ مَعَ الْبَنِينَ" (تك٣٢: ١١) ... حينئذ ركض عيسو للقائه وعانقه وقبله باكيًا (تك٣٣: ٤).

وأنت إن استطعت أن تغلب في صراعك مع الله – كيعقوب – لا بد سيريحك من كل متاعبك.

لقد تعب سمعان بطرس الليل كله ولم يصطد شيئًا. ولكنه لما تلاقى مع الرب وعلى كلمته ألقى الشبكة، حينئذ اصطاد سمكًا كثيرًا حتى كادت الشبكة تتخرق (لو٥: ٤– ٦).

والمرأة الخاطئة حينما أمسكت بقدمي المسيح وبللتهما بدموعها، أمكنها أن تتخلص من خطاياها، وتنال المغفرة. وما كان ممكنًا لها ذلك، لولا ذهابها إليه.

المهم أن تأتي إلى الله ولكن كيف تأتي؟

كيف تأتي إلى الله؟

١– تأتي بقلب منسحق، مثلما أتى الابن الضال:

إنه كان في الكورة البعيدة يعيش في تعب. ثم فكر أن يأتي إلى أبيه ليستريح. فأتى إليه بقلب منسحق يقول: "أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا" (لو١٥: ٢١). وبهذا الانسحاق قبله أبوه، وأقام له وليمة فرح، وألبسه الحلة الأولى، وجعل خاتمًا في يده... بينما أخوه الأكبر خسر الموقف، لأنه رفض أن يأتي، وتكلم مع

أبيه بكبرياء قلب.

لا تأت إلى الله متكبرًا، تقول له: لماذا تتركني وتضطهدني.

ولا تنسب إلى الله كل أسباب مشاكلك، غير معتقد أنك أنت السبب، بل تنسب السبب إلى تخلي الله عنك!! إنما تعال إليه منسحقًا، لكي تصطلح معه. وكما قال أحد الآباء:

اصطلح مع الله، تصطلح معك السماء والأرض.

إذًا لا تأت إليه فقط لكي يريحك من أتعابك ويحل لك مشاكلك، إنما تعال أولًا لكي تصطلح معه. فربما يكون السبب الأصلي في مشاكلك، أنك في خصومة مع الله، وأن طرقك لا ترضيه... ويقول لك الله: أنا مستعد أن أريحك، إنما المهم أن تترك الطريق الخاطئ الذي تسير فيه. وكما يقول:

"ارْجِعُوا إِلَيَّ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ" (ملا٣: ٧).

*****

٢- إذًا تعال إليه تائبًا، لكي تصطلح معه.

وحينما تصطلح مع الله. تجد الدنيا كلها قد اصطلحت معك، ويعطيك الرب سلامًا وراحة في قلبك. يعطيك هدوءًا داخليًا، وثقة وطمأنينة. وغالبًا ما يكون سبب تعب الإنسان، هو شيء في داخله يتعبه. وهنا يعجبني قول القديس يوحنا ذهبي الفم:

لا يستطيع أحد أن يضر إنسانًا، ما لم يضر هذا الإنسان نفسه.

فمن الجائز أن يكون سبب متاعبك، هو أنك تضر نفسك، فإذا ما اصطلحت مع الله وأتيت إليه تائبًا، ستتخلص من ضررك لنفسك، وتكون راحتك سهلة وممكنة.

*****

٣- كذلك ينبغي أن تأتي إلى الله، بالإيمان، وبالصلاة.

كثيرون يأتون إلى الله، ولكن ليس عندهم إيمان أن الله سيحل مشاكلهم! ويصلون وهم لا يحسون إن الصلاة ستكون لها نتيجة. وهكذا يستمرون في تعبهم بسبب عدم إيمانهم، وبسبب فقدانهم للرجاء والثقة بالله.

لقد قال السيد المسيح للمرأة الخاطئة التائبة: "إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ" (لو٧: ٥٠) وقال للأبرص الذي شفي "قُمْ وَامْضِ، إِيمَانُكَ خَلَّصَكَ" (لو١٧: ١٩). وقال للأعمى المستعطي في أريحا "أَبْصِرْ. إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ" (لو١٨: ٤٢) وقال للأعميين: "بِحَسَب إِيمَانِكُمَا لِيَكُنْ لَكُمَا" (مت٩: ٢٩) ... لذلك تعال إليه بإيمان، واثقًا أنه سيريحك، وحينئذ ستستريح...

*****

٤- تعال إليه أيضًا، وأنت تحمل نيره عليك.

فهو الذي قال: "اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ" (مت١١: ٢٩). إذًا احمل صليبك واتبعه. وحينما تأتي إليه في مشاكلك، لا تأت متذمرًا متضجرًا، بل تعال في حياة التسليم، خاضعًا لمشيئته، متذكرًا قول الرسول:

"اِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ" (يع١: ٢).

بهذا لا يضغط عليك التعب، لأن قلبك سليم من الداخل. لم تستطيع المتاعب التي في الخارج أن تتعب القلب من الداخل، لأنه محصن بالإيمان وبحياة التسليم، ولأنه يحمل نير الرب بفرح. والقلب في الداخل مملوء بالسلام والطمأنينة وبالفرح، حتى في وسط الضيقات...

فإن لم يكن لك هذا الشعور، اطلبه من الله.

وهو الذي يهبك السلام، لأنه هو الذي قال: "سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ" (يو١٤: ٢٧). إن من ثمار الروح "مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ" (غلا٥: ٢٢). فإن كانت لك ثمار الروح هذه، ستحيا دائمًا مستريحًا.

٥- ادخل إذًا في شركة الروح القدس، ولتكن لك ثمار الروح، وتعال إلى الله هكذا، تجد راحة لنفسك.

الفصل الرابع

سعي الله لخلاصنا

يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ

(١تي٢: ٤)

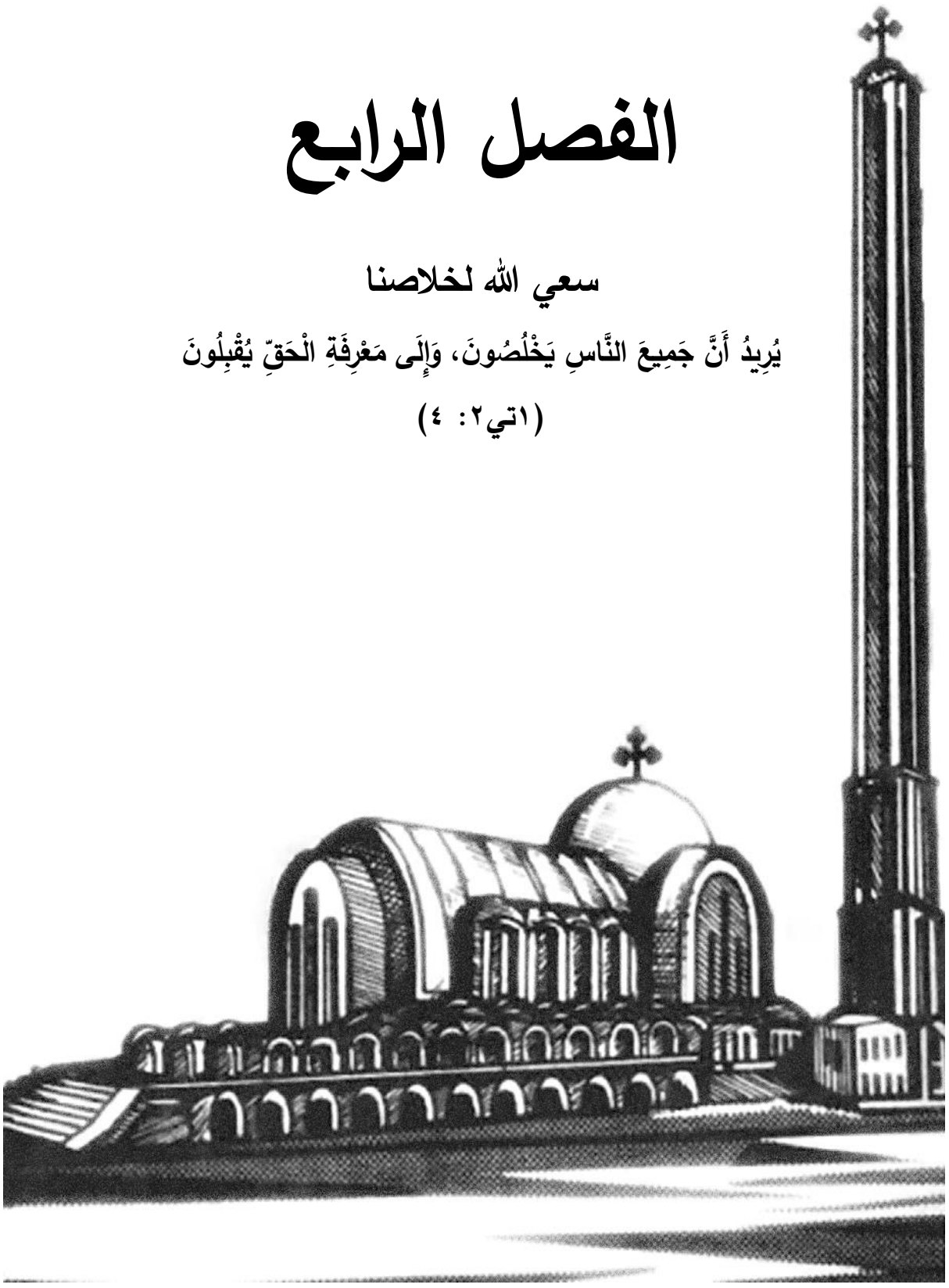

سعي الله لخلاصنا

قد يفقد الإنسان رجاءه في الخلاص، لأن أعداءه قد اعتزوا أكثر منه، ولا قدرة له على مقاومتهم، سواء في ذلك أكانوا أعداءه الروحيين، أو مضايقيه في هذا العالم. وهو خلال ذلك يصرخ "إنَّ الغُرَباءَ قَدْ قاموا عَلَيَّ والأقْوِياءَ طَلَبوا نَفْسي، لَمْ يَجْعلوا اللهَ أمامَهُم" (مز٥٤: ٣). "ضاعَ الْمَهْرَبُ مِنّي ولَيْسَ مَنْ يَسْألُ عَنْ نَفسي" (مز١٤٢: ٤).

أو قد يفقد خاطئ رجاءه في التوبة، لأنه لا يقدر على الوصول إليها، أو بالأكثر لا يريدها...!

ولكننا نقول لكل واحد من هؤلاء وأمثالهم:

لا تفقد رجاءك. فإن الله يهتم بخلاصك أكثر مما تهتم أنت... بل هو الذي يسعى لخلاصك. وهذا هو أسلوب الله منذ البدء...

*****

بدأت قصة الخلاص منذ أيام أبوينا الأولين آدم وحواء. لقد سقط الاثنان في الخطية، واستحقا حكم الموت. وكان الخلاص لازمًا لهما جدًا. ومع ذلك نرى أن الله نفسه هو الذي سعى لكي يخلصهما...

لا آدم طلب الخلاص، ولا حواء، بل هربا كلاهما من وجه الله، واختفيا خلف الأشجار...!

ما كان الهروب وسيلة عملية تؤدي إلى الخلاص. ولكن الخلاص لم يكن يشغلهما في ذلك الحين. وكل ما كان يشغلهما هو الخوف والخجل. ما سمعنا قط أن آدم قال لله: يا رب اغفر، يا رب سامح. أخطأت إليك، فامح ذنبي... ولا حواء قالت شيئًا من هذا... ولعل هذه الألفاظ لم تكن في قاموسهما الروحي في ذلك الحين...

وفيما هما لا يبحثان عن خلاص نفسيهما، كان الله يبحث عنهما...

كان ينادي في الجنة "آدَمَ... أَيْنَ أَنْتَ؟" (تك٣: ٩). كان الله هو الذي يفتش عن آدم وحواء، وهو الذي يفتح الموضوع، ويستدرجهما إلى الكلام، ويشرح لهما ما وقعا فيه من خطأ، وما يستحقانه من عقوبة. ثم يقدم لهما أول وعد بالخلاص، وهو أن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية (تك٣: ١٥).

*****

صدقوني، لو أن الله ترك الإنسان إلى حريته وحده، أو إلى قدرته وحده... ما خلص أحد على الإطلاق...!

ولكن الله هو الذي يسعى وراء خلاص الكل... كما أعطانا مثلًا عن سعيه وراء الخروف الضال، ووراء الدرهم المفقود (لو١٥).

*****

كان الخروف سائرًا في ضلاله، لا يدري أين هو، وربما لا يدري ما هو فيه. وفيما هو كذلك كان الراعي الصالح مهتمًا بخلاصه. الراعي هو الذي اكتشف ضياع هذا الخروف، وهو الذي بحث عنه وفتش، وجرى وراءه في الجبال والوديان إلى أن وجده. لعلها كانت مفاجأة له، حينما وجد راعيه أمامه، يأخذه في حنان، ويحمله على منكبيه فرحًا. حقًا ما أجمل قول الوحي الإلهي عن الرب كراعٍ:

"أَنَا أَرْعَى غَنَمِي وَأُرْبِضُهَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأَطْلُبُ الضَّالَّ، وَأَسْتَرِدُّ الْمَطْرُودَ، وَأَجْبِرُ الْكَسِيرَ، وَأَعْصِبُ الْجَرِيحَ..." (حز٣٤: ١٥، ١٦).

هو الذي يطلب ويسترد، وهو الذي يجبر ويعصب. العمل هو عمله، وليس عملنا نحن... أليس هذا أمرًا يبعث الرجاء في النفس؟

وفي مثال الدرهم المفقود، نرى نفس الوضع، وبأسلوب أعمق:

الدرهم لا يملك حياة، ولا عقلًا ولا فكرًا ولا إرادة... ولا يدري إلى أين هو قد تدحرج، وأين استقر به الأمر. وأيضًا لا يعرف كيف يرجع إلى كيس صاحبه أو جيبه...

وقد كان الدرهم المفقود رمزًا إلى كثيرين من نوعه...

كان رمزًا لكثيرين ممن لا حياة لهم ولا إرادة... وكان رمزًا أيضًا للضآلة... فلو أن الأرملة كانت فقدت مائه جنيهًا ذهبًا، لكان من المعقول أن تبحث عنها وتفتش... أما مجرد درهم واحد ينال منها كل ذلك الاهتمام، فهو أمر يدعو إلى التأمل، ويضع أمامنا عمقًا في الرجاء وهو:

إن الله يبحث عن خلاصك، مهما بدا قدرك ضئيلًا!

لقد ضرب الله لنا مثل الدرهم لنعرف قيمة النفس عنده.

لأنه قد يسأل بعضهم ما قيمة هذا الدرهم الضئيل، حتى يصير هذا البحث الجاد عنه، وهذا الفرح وهذه الوليمة عند العثور عليه؟! إن كل هذا رمز لاهتمام الرب بالنفس الواحدة، مهما كانت تبدو ضئيلة الشأن. ويعبر المثل عن سعي الله لخلاصنا حتى لو لم نسع نحن، وفرحه بخلاصنا وفرح الملائكة أيضًا.

ألست أنت عند الله أفضل من درهم واحد مفقود؟!

*****

ثق أن نفسك ثمينة في نظرة الله إليها، مهما كانت تبدو ضئيلة في نظر الناس، أو في نظرك أنت... مثل المرأة السامرية التي سعى الرب لخلاصها، وهي محتقرة في نظر الناس... ومثل زكا العشار الذي ذهب الرب إلى بيته، وهو في نظر الكل رجل خاطئ لا يستحق (لو١٩: ٧).

حقًا إن الرب يسعى لخلاصنا، ويفرح بذلك جدًا...

كما أخذ الخروف الضال، وحمله "عَلَى مَنْكِبَيْهِ فَرِحًا" (لو١٥: ٥)، وكما قال إنه "يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ" (لو١٥: ٧)، وكما فرح برجوع الابن الضال، وذبح له العجل المسمن، وكما فرح بالعثور على الدرهم المفقود (لو١٥: ٢٣، ٩). إنه يسعى لخلاصنا أكثر مما نسعى نحن، ويفرح بخلاصنا أكثر مما نفرح نحن. ويفتش عنا بكل اهتمام، أكثر مما نفتش نحن عن أبديتنا. وما أجمل ما قاله الرسول عنه إنه:

"يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١تي٢: ٤).

وقيل عنه أيضًا إنه لا يشاء موت الخاطئ، بل أن يرجع ويحيا (حز١٨: ٢٣). ونقول عنه في آخر كل صلاة من صلوات الأجبية: "الداعي الكل إلى الخلاص من أجل الموعد بالخيرات المنتظرة"...

*****

إن عمل الله ليس فقط أن يفرح بتسبيح السارافيم، أو بنقاوة الملائكة، أو بكرازة الرعاة، أو بجهاد القديسين، إنما هو يفرح "بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ" (لو١٥: ٧).

يطلب ما قد هلك!

لا تفقد الرجاء إذًا مهما ضللت، لأنه هناك درجة أبشع كثيرًا من الضلال قد جاء الرب لخلاصها، كما قال عن نفسه إنه:

"جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لو١٩: ١٠).

يخلص مَنْ؟ ليس مجرد الضعيف أو الخاطئ أو المتواني أو المريض... وإنما "مَا قَدْ هَلَكَ"...! ليس فقط من هو في طريق الهلاك، إنما ما قد هلك!!... أي رجاء أعظم من

هذا، أن الرب "جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ"... ولم يقل "ويخلص الطالبين..." إنما هو الذي يطلب... الذي يسعى لخلاص كل أحد...

إذًا حتى الذي هلك، ما زال له رجاء في الخلاص!

نعم بلا شك. إن المسيح قد جاء ليخلص هذا الهالك وأمثاله. جاء يخلص الموتى بالخطايا (أف٢: ٥).

لا يقل أحد إذن، مهما حدث منه، ومهما حدث له: أنا انتهيت، أنا ضعت. وليست هناك فائدة مني، ولا وسيلة لخلاصي...! اطمئن فحتى إن كنت قد هلكت فعلًا، فأعلم أن باب الخلاص لا يزال مفتوحًا أمامك، والرب قد جاء يطلب ويخلص ما قد هلك...

وهب الله رجاء للمجدلية التي كان عليها سبعة شياطين.

وعندما قام من الأموات، يقول مرقس الإنجيلي إنه "ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ، الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ" (مر١٦: ٩). ولما أراد أن يبشر رسله القديسين بقيامته، اختار هذه بالذات لكي تبشرهم!! ونحن لا ندري هل كان عليها سبعة شياطين فقط أم رقم سبعة هنا له معنى رمزي يدل على عدد كبير من الشياطين!!

ولكن ماضي المجدلية قد نُسي، وقد أصبحت مُبشرة للرسل! يا للعجب! أليس هناك رجاء لك من خلال قصة هذه المرأة العجيبة؟!

*****

حقًا "اُنْظُرُوا، لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ" (مت١٨: ١٠).

سواء الصغار في سنهم، أو في روحياتهم، أو في نوعيتهم، أو أصحاب الماضي الطويل الأثيم. لا تحتقروا أحدًا. ولا تصغر نفس أحد إن كان واحدًا من هؤلاء، ولا يفقد رجاءه.

صدقوني، إن الله في اليوم الأخير سيرتبنا ترتيبًا آخر غير الذي نحن عليه الآن...

ترتيبنا في العالم الحاضر هو حسب السن أو المركز أو الدرجة، أو المواهب والقدرات... أما في الأبدية فسيكون حسب القلب الذي يعرفه الله. وربما كثير من الصغار هنا، ومن المزدرى وغير الموجود، يسبقون أصحاب الدرجات والمواهب، وأصحاب المناصب والرئاسات. فلا تحتقروا إذن أحد هؤلاء الصغار.

*****

ولما أراد الله خلاص أريحا، اختار راحاب الزانية (يش٢).

ودخلت راحاب في شعب الله، كما دخلت في سلسلة الأنساب (مت١) وصارت قديسة، ونسى لها ماضيها. وصارت صورة حيّة للرجاء لكل مَن يتذكرها.

ولعلك تسأل: ما معنى اهتمام الله بامرأة زانية، وبأخرى كان عليها سبعة شياطين؟! أقول لك إنه نفس اهتمامه بالأشياء الصغيرة، بالمزدرى وغير الموجود (١كو١: ٢٨).

إن قصة "المدوسة بدمها" في سفر حزقيال، تعطي رجاء للكل...

قال عنها الكتاب إنها كانت عريانة وعارية، ومطروحة على الحقل بكراهة نفسها، وأنها كانت مدوسة بدمها... فهل تركها الله هكذا؟ كلا، إنه يقول لها وهي في هذه الحالة السيئة:

"مَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ".

أي حب يا رب لهذه المكروهة، العارية من كل فضيلة، المطروحة على الحقل؟! نعم إن الله أحبنا ونحن خطاة، ولهذا بذل نفسه عنا، ومات لأجلنا، البار من أجل الأثمة. وماذا عن هذه الأثيمة الخاطئة؟ يقول لها: "مررتُ بك"، وليست هي التي ذهبت إليه. وماذا أيضًا؟ يقول:

"فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ". غطى الخطية ولم يحتقر صاحبتها...

*****

"وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي"...

وفي هذا العهد، منحها الرب الكثير من نعمه الروحية. يقول:

"فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ" يعني المعمودية، حيث غسلها من كل خطاياها.

"وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ" يعني الميرون، فنالت المسحة المقدسة، مسحة الروح القدس.

"وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً... وَكَسَوْتُكِ بَزًّا" أي البر الجديد الذي نالته.

وماذا أيضًا؟ يقول: "وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ" أي للملكوت. (حز١٦: ٨-١٣)

"وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلاً بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ" (حز١٦: ١٤).

عجيب حقًا هو الله الحنون هذا، الذي يطرح بهاءه على هذه المدوسة بدمها، المكروهة، فتصير كاملة الجمال، وتصلح لمملكة، وتدخل في عهد مع الله، وتنال من كل نعمه، بل يقول لها: "وَتَاجَ جَمَال عَلَى رَأْسِكِ" (حز١٦: ١٢).

أليس كل هذا يعطينا درسًا عجيبًا في الرجاء...؟

ليس المهم ما نحن فيه، إنما ما يصيرنا الرب إليه...

وفي قصة هذه الخاطئة، التي ترمز لأورشليم كلها، كان الرب يعمل كل شيء. ولو تركها لنفسها لضاعت، واستمرت في عبادة الأصنام. ولكن مناخس الرب كانت تحرك الضمير باستمرار وتقوده إلى التوبة. ولعل هذا الأمر يذكرنا أيضًا بقصة شاول الطرسوسي.

مثال شاول الطرسوسي

هل شاول الطرسوسي بحث عن المسيح، أم بحث المسيح عنه؟

كان شاول "مُجَدِّفًا وَمُضْطَهِدًا (للكنيسة) وَمُفْتَرِيًا" كما قال عن نفسه (١تي١: ١٣) وكان "يَسْطُو عَلَى الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ يَدْخُلُ الْبُيُوتَ وَيَجُرُّ رِجَالاً وَنِسَاءً وَيُسَلِّمُهُمْ إِلَى السِّجْنِ" (أع٨: ٣). ولكن الله كان يفكر في خلاص شاول، وفي استخدام مواهبه للخير، فظهر له في طريق دمشق، ودعاه.

إن شاول لم يطلب الإيمان. وفي يوم لقائه بالرب، لم يكن شاول يرتب لهذا اللقاء ولم يفكر فيه، ولا طرأ على ذهنه...

ولكن الله هو الذي سعى إلى شاول، وطلبه وخلصه ودعاه.

إن في تحول شاول الطرسوسي مضطهد الكنيسة إلى أعظم رسول في المسيحية، وتعبه لأجل الكلمة، لهو درس عظيم في الرجاء أمام كل من هم بعيدين عن الرب.

لعل مثله أريانوس والي أنصنا، أكثر ولاة مصر عنفًا في قتل الشهداء وتعذيبهم، وكيف أمكن أن يتحول هو نفسه إلى شهيد... بعمل الرب فيه ولأجله...

في سعي الله لخلاصنا، نذكر أيضًا قصة عذراء النشيد.

*****

مثال عذراء النشيد

كانت نائمة ومسترخية، وقد تعطرت وتطيبت، خلعت ثيابها، وغسلت رجليها، ونامت. وصوت حبيبها يسعى إليها من بعيد "طَافِرًا عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزًا عَلَى التِّلاَلِ"، يقول لها: "قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ" (نش٢: ٨، ١٠). بل هو يقف على بابها يقرع:

"اِفْتَحِي لِي يَا أُخْتِي، يَا حَبِيبَتِي، يَا حَمَامَتِي، يَا كَامِلَتِي! لأَنَّ رَأْسِي امْتَلأَ مِنَ الطَّلِّ، وَقُصَصِي مِنْ نُدَى اللَّيْلِ" (نش٥: ٢) ... أي سعي من الرب أكثر من هذا، وأي انتظار في إلحاح على طلب النفس، أكثر من رأسه تمتلئ من ندى الليل. إنه درس في الرجاء لكل نفس نائمة، لا تطلب الله، بل تهتم بذاتها وراحتها...!

الله هو الواقف على الباب، وهو الذي يقرع...!

وهو إلى يقول في كل حين "هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي" (رؤ٣: ٢٠). إن الله الطيب الذي لم يتركنا حتى في تكاسلنا وإهمالنا وبعدنا عنه في حياة التراخي واللامبالاة، وإنما بلغ من فرط محبته أنه:

سعى حتى إلى العشارين والخطاة، وجلس على موائدهم، ليجذبهم إليه!

إنه يسعى إلى كل هؤلاء، وينزل إليهم لكي يرفعهم إليه، ويقول إن هؤلاء أيضًا أبناء لإبراهيم (لو١٩: ٩). بل إن من أجمل الآيات في هذا المجال، هي قوله عن نفسه إنه: **"جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لو١٩: ١٠)** ...

*****

وسعي الله لخلاصنا، ترمز إليه قصة الخليقة:

تحكي لنا الآيات الأولى من سفر التكوين أن "الأَرْضُ كَانَتِ خَرِبَةً وَخَالِيَةً" وكانت مغمورة بالمياه "وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ" (تك١: ٢). صورة كئيبة بلا شك. ولكن الله لم يترك الأرض الخربة هكذا، وإنما كان "رُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ". ثم "قَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ". وبدأ الله ينظم هذه الأرض، ويمنحها حياة وجمالًا، ويخلق فيها الأشجار والأزهار والأطيار، ووضع قوانين الفلك بما فيه من شمس وقمر، ونجوم وكواكب.. ثم خلق الإنسان. وصارت الأرض جميلة وعامرة بالحياة...

وفي كل هذا يعطي الرب رجاء لكل أرض خربة تغمرها المياه...

لا تيأس مهما وصلت المياه إلى نفسك، فروح الله يرف على وجه المياه. ولا تيأس مهما غمرتك الظلمة، فلا بد سيأتي الوقت الذي يقول فيه الله: ليكن نور...

لذلك ليكن لك رجاء ما دام الله يسعى بنفسه لخلاصك.

*****

إن البشرية عاجزة عن تخليص نفسها. وما لا تستطيع أن تفعله من أجل خلاصها، يعمله الرب من أجلها...

أليست هذه هي قصة التجسد والفداء في صميم مفهومها اللاهوتي: الله بنفسه يسعى لخلاص البشر، ويقدم لهم الكفارة والفداء. أو ليس هو أيضًا الذي أرسل الأنبياء والرسل لهذا الغرض، لكي ينادوا داعين الجميع: "تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (٢كو٥: ٢٠). ومن أجل هذا أيضًا أرسل لنا الوحي الإلهي في "الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ، الْقَادِرَةَ أَنْ تُحَكِّمَكَ (تحكمنا) لِلْخَلاَصِ" (٢تي٣: ١٥).

زيارات النعمة للجميع

إن (زيارات النعمة) تمر على بيوت الجميع، ولم تغفل أحدًا، بل كل خاطئ كان له نصيب منها...!

قيل عنه إنه "جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا" (أع١٠: ٣٨) يفتش عن النفوس الضائعة، مهما عاندت، ومهما قاومت، ومهما هربت منه...! يظل وراءها حتى يرجعها إليه، مهما كانت حالتها تدعو إلى اليأس. وهنا نقول قاعدة هامة وهي:

إن الله لا ييأس مطلقًا من خلاص الناس، مهما يئسوا هم...

الله دائمًا يعمل، ويعمل مع الكل. ليس فقط مع المريض روحيًا، وإنما حتى مع الميت

الذي قد أَنْتَنَ (يو١١: ٣٩)، حتى مع اللص في آخر ساعات حياته على الأرض (لو٢٣: ٤٣)، حتى مع رئيس العشارين، زكا...! ومع السامرية التي عاشت مع خمسة (أزواج)!! (يو٤: ١٨).

وهو يبحث عن هذه المرأة الضائعة، ويجذبها إلى التوبة...

هو الذي ذهب إلى البئر حيث تستقي. وهو الذي دبر المقابلة بحكمته، ورتب موعد اللقاء. وهو الذي جرَّ الحديث معها، وكلمها عن الماء الحي، وهو الذي فتح الموضوع وشجعها على الاعتراف، وهو الذي نطق باعترافاتها الصعبة حتى لا تحرج، وقبل منها مجرد الموافقة. ولم يبال في كل ذلك بأن "الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ"، ولا بأن تلاميذه "كَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ" (يو٤: ٩، ٢٧).

*****

حقًا كما قال القديس يوحنا ذهبي الفم عن محبة الله:

إن الله يجول ملتمسًا سببًا لخلاصنا، ولو دمعة تسكبها... يأخذها الله – قبل أن يخطفها شيطان المجد الباطل – ويجعلها سببًا لخلاصك... حقًا أنه لا يوجد أحن من قلب الله علينا... أحن منا على أنفسنا! إنه هو الذي قال: "بَسَطْتُ يَدَيَّ طُولَ النَّهَارِ إِلَى شَعْبٍ مُعَانِدٍ وَمُقَاوِمٍ" (رو١٠: ٢١؛ إش٦٥: ٢) حتى إلى هذا الشعب المتمرد السائر وراء أفكاره، بسط الله يده، طالبًا خلاصه...! ولعل هذا يذكرنا بمثل الزارع.

*****

لقد قبل الرب دموع المرأة الخاطئة، وقال لها مغفورة لكِ خطاياك. وقال للمتكئين إن خطاياها الكثيرة قد غُفرت لها لأنها أحبت كثيرًا. وشرح كيف أنها كانت أفضل من الفريسي...

هذه الدموع أمام الله محت كل الماضي الأثيم الذي للمرأة.

لم يذكر لها كل خطاياها القديمة، أمام هذا الانسحاق الحاضر. حقًا ما أجمل قول الرب عن خطايانا: "لا أعود أذكرها".

مثال الزارع

الله شبه نفسه بزارع يلقي بذراه في كل أرض...

لقد ألقى بذاره على الأرض الجيدة في كل مستوياتها، التي تنتج ثلاثين كالتي تنتج ستين كالتي تنتج مائة. الكل سعى الرب لتزويده بعمل نعمته، بتوصيل كلمة الخلاص إليه... ولكن ماذا عن الأرض المتحجرة، والأرض المحاطة بالأشواك؟ كل منها أيضًا زارته النعمة. ولكن "مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ" (مت١٣: ٩).

الله يسعى لخلاص الكل. لا يمنع كلمته المحيية عن أحد...

حتى الطريق، وصلته بذار من الرب، وكذلك الأرض التي لم يكن لها عمق. فإن كان الله قد عمل في كل هؤلاء... فليكن لك رجاء أن الله سيعمل فيك أنت أيضًا، لكي تثمر. وإن لم تثمر، هو "ينقب حولك ويضع زبلًا" (لو١٣: ٨)..

هنا ونقول: ما أجمل تلك العبارات المعزية التي نصليها في القداس الغريغوري "لم تدعني معوزًا شيئًا من أعمال كرامتك. ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة".

*****

لولا طيبة الله، ما كان يلقي بذاره حتى وسط الأشواك...

لو أن واحدًا منا في نفس الموقف، لقال لتلك الأرض: "انزعي الشوك منك، لكي ألقي بذاري فيك"... ولكن الله لم يفعل هكذا... حقًا إن بعض الأراضي استطاع الشوك أن يخنق زرعها. ولكن الله قادر أن ينقي الشوك من كل أرض. هو نفسه ينظفها "ينقب

حولها". لأن كثيرًا من الأنفس لا تستطيع أن تنزع الشوك من حولها، وإنما هي تصرخ مع كلمة الوحي قائلة للرب:

"تَوِّبْنِي فَأَتُوبَ، لأَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ إِلهِي" (إر ٣١: ١٨).

وتقول أيضًا مع المرتل: "تَنضَحُ عَليَّ بِزُوفَاكَ فأَطَّهَّرُ، تَغْسلُنِي فَأَبْيضُّ أَكْثَر مِنَ الثَّلجِ" (مز ٥١: ٧). أنت يا رب الذي تغسلني، وأنت الذي تطهرني. وأنا أقول مع ذلك الأبرص: "يَا سَيِّدُ، إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي" (مت٨: ٢). فيجيب الرب – كما قال لذاك – أُرِيدُ، فَاطْهُرْ!".

الله يصالحنا معه

الله يريد أن يصالحنا ويصلحنا، بكل الوسائل الممكنة...

من أجل ذلك أرسل الله الرسل والأنبياء والوحي الإلهي... ولماذا أرسل كل هؤلاء؟ يجيب القديس بولس الرسول قائلًا: "اللهِ، الَّذِي صَالَحَنَا لِنَفْسِهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ... إِذًا نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (٢كو٥: ١٨، ٢٠).

*****

الله الحنون صالحنا لنفسه، ولم يحسب لنا خطايانا...

وفي ذلك يقول بولس الرسول أيضًا: "إِنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ" (٢كو٥: ١٩). وكما نقول عنه في خاتمة كل صلاة: "الداعي الكل إلى الخلاص من أجل الموعد بالخيرات المنتظرة".

*****

والله في صلحه معنا وفي غفرانه، يقدّر ضعف طبيعتنا...

يقول المرتل في المزمور: "كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا. كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ" ولماذا؟ "لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ" (مز١٠٣: ١٢- ١٤)... الله ينزل إلى هذا التراب، ويقيم صلحًا معنا، واضعًا في اعتباره ضعف طبيعتنا.

*****

صدقوني، إنه يفعل هذا حتى مع الهاربين منه...!

ذكرنا قبلًا، كيف سعى الله إلى آدم وهو هارب منه ومختبئ خلف الأشجار (تك٣: ٨). ونضيف مثالًا آخر في قصة يونان النبي.

قصة يونان النبي

كان يونان النبي هاربًا من الله... وسعى الله لخلاصه...

لم يرفضه الله، لأنه هرب منه إلى ترشيش، مخالفًا أمره في الذهاب إلى نينوى. ولم يرفضه في ثاني مرة، حينما تابت نينوى ورحمها الله، فاغتاظ يونان! وإنما عمل الله على مصالحة يونان وإقناعه بالصواب الذي اغتاظ منه يونان حتى الموت!! (يون٤: ٣، ٤). انظر حنو الله على يونان في حزنه الذي لم يكن يتفق مع مشيئة الله. يقول الكتاب: "فَأَعَدَّ الرَّبُّ الإِلهُ يَقْطِينَةً فَارْتَفَعَتْ فَوْقَ يُونَانَ لِتَكُونَ ظِلاً عَلَى رَأْسِهِ، لِكَيْ يُخَلِّصَهُ مِنْ غَمِّهِ" (يون٤: ٦).

*****

إن سفر يونان يعطينا مثلاً جميلًا عن سعي الله لخلاص البشر:

ما كان أهل نينوى يفكرون في خلاص أنفسهم.

وما كان بحارة السفينة التي ركبها يونان يسعون إلى خلاصهم.

ولا يونان شعر أنه أخطأ وطلب الخلاص لنفسه!

ولكن الله بنفسه سعى لخلاص كل هؤلاء، وخلصهم...

الله هو الذي بدأ. والمبادرة أتت منه. ثم أتت استجابتهم هم لعمله الإلهي، مباشرة من بحارة السفينة وأهل نينوى، وبعد إقناع وبعد وقت من جانب يونان النبي...

*****

اجتذب الله أهل السفينة إليه بخطة بارعة...

بالأمواج التي لطمت السفينة حتى كادت تنكسر، وبالخوف الذي أصاب البحارة حتى صرخ كل واحد إلى إلهه، وليس إلى الله الواحد، ثم بعمل الله في القرعة التي ألقوها، وأيضًا باعتراف يونان. ثم بهدوء البحر بعد إلقاء يونان. ونجحت الخطة الإلهية مع البحارة "فَخَافَ الرِّجَالُ مِنَ الرَّبِّ خَوْفًا عَظِيمًا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَةً لِلرَّبِّ وَنَذَرُوا نُذُورًا" (يون١: ١٦).

وكان البحارة قد استخدموا أولًا طرقهم البشرية، فلم تنجح إذ "طَرَحُوا الأَمْتِعَةَ الَّتِي فِي السَّفِينَةِ إِلَى الْبَحْرِ لِيُخَفِّفُوا عَنْهُمْ" ولكن "البحر كان يزداد هيجانًا" كذلك فإنهم "جَذَفُوا لِيُرَجِّعُوا السَّفِينَةَ إِلَى الْبَرِّ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا" (يون١: ٥، ١٣) ولو استطاعوا ما خلصوا إيمانيًا. ولكن الله تدخل بطريقته التي أمكنها أن تخلصهم من البحر وتخلصهم من جهة الإيمان. ونجحت خطة الله في خلاصهم...

*****

واجتذب الرب أهل نينوى، بالإنذار الإلهي، ومناداة يونان.

وما كان أهل نينوى قادرين على خلاص أنفسهم إذ كانوا أمميين بعيدين عن الإيمان، كما أنهم كانوا جهلة "لاَ يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ" (يون٤: ١١). ولكن إنذار الله لهم

بأن المدينة ستنقلب وتهلك، أتى بثماره، فخافوا وتابوا وصاموا "ورجعوا عن طريقهم الرديئة، وقبل الله توبتهم".

*****

وبقى يونان. وخلَّصه الله أيضًا، على دفعتين...

في المرة الأولى سعى الله لتخليص يونان من عواقب مخالفته وهروبه. واستخدم لذلك الخطر الذي تهدده في البحر. والذي قابله يونان أولًا بلا مبالاة. وكان نائمًا حتى في الوقت الذي صلى فيه كل البحارة الأمميون، لدرجة أن رئيس النوتية وبخه قائلًا: "مَا لَكَ نَائِمًا؟ قُمِ ادْعُ إِلَى إِلهِكَ عَسَى أَنْ يَفْتَكِرَ الإِلهُ فِينَا فَلاَ نَهْلِكَ" (يون١: ٦). ثم أكمل الله خطته الإلهية بأنه "أَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلِعَ يُونَانَ" (يون١: ١٧).

*****

وتخلص يونان من عصيانه، وبقى أن يتخلص من محبته لكرامته.

وفعل الله ذلك بالشمس التي ضربت رأس يونان فذبل، واليقطينة التي ظللت عليه، والدودة التي أكلت اليقطينة، ثم تفاهم الله معه.

وهكذا استطاع الله أن يخلص يونان، كما خلص نينوى وأهل السفينة.

وكان عند هؤلاء جميعًا استجابة لعمل الله فيهم وعمله من أجلهم. ولعل هذا يقودنا إلى نقطة وهي:

الشركة مع الله

الله يعمل لأجلك، يسعى لخلاصك، فعليك أن تستجيب.

تشترك في العمل معه. لا تقاوم عمل الروح كما فعل اليهود وآباؤهم (أع٧: ٥١). ولا تفعل أيضًا مثلما فعلت عذراء النشيد، التي رفضت أن تفتح لحبيبها. فكانت النتيجة أنه

– بعد طول انتظار – "تَحَوَّلَ وَعَبَرَ". فقالت العروس "نَفْسِي خَرَجَتْ عِنْدَمَا أَدْبَرَ. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. دَعَوْتُهُ فَمَا أَجَابَنِي" (نش٥: ٦).

*****

شعب موسى، كان عاجزًا عن أن يخلص نفسه من عبودية فرعون. والله هو الذي سعى إلى خلاصه وخلصه. وكما قال موسى: "الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ" (خر١٤: ١٤).

ولكن المهم هو أن هذا الشعب استجاب لعمل الله وسار وراءه، ودخل في البحر الأحمر حينما شقه الله أمامه.

*****

واحترس أن تفعل كما فعل أغريباس وفيلكس والشاب الغني.

أغريباس الملك أتته دعوة الله للخلاص. زارته النعمة وتأثر. وقال لبولس الرسول "بِقَلِيل تُقْنِعُنِي أَنْ أَصِيرَ مَسِيحِيًّا" (أع٢٦: ٢٨). ومع ذلك لم يخط خطوة إيجابية من جهته، وانصرف، ولم يَصرْ مسيحيًا.

وفيلكس الوالي زارته النعمة حينما تكلم القديس عن "الْبِرِّ وَالتَّعَفُّفِ وَالدَّيْنُونَةِ"، فارتعد فيلكس. ولكنه أجَّل الموضوع وقال لبولس: "أَمَّا الآنَ فَاذْهَبْ، وَمَتَى حَصَلْتُ عَلَى وَقْتٍ أَسْتَدْعِيكَ" (أع٢٤: ٢٥). وهكذا لم يشترك مع عمل الروح، وجعل الفرصة تفلت من يده!

وكذلك الشاب الغنى، كانت له الفرصة أن يسمع كلمة الخلاص من فم المسيح ولكنه سمح لشهوة المال أن تقهره و"مَضَى حَزِينًا، لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَال كَثِيرَةٍ" (مت١٩: ٢٢).

*****

إذًا الله يسعى لخلاصك. يبدأ العمل لأجلك. ولكن عليك أنت أن تستجيب أو تشترك

معه أو تخضع لعمله. ولقد صدق القديس أغسطينوس حينما قال:

[الله الذي خلقك بدونك، لا يشاء أن يخلصك بدونك]...

إذًا لا بد أن تشترك في العمل معه: الروح القدس يعمل فيك، وأنت تستجيب لعمل الروح. لا تطفئ الروح (١تس٥: ١٩). ولا تحزن الروح (أف٤: ٣٠). ولا تقاوم الروح (أع٧: ٥١). وإنما تدخل في شركة الروح، بأن تعمل معه. لأن الله لا يريد أن يرغمك على محبته. واعرف أن طول أناة الله، إنما لكي تقتادك إلى التوبة (رو٢: ٤). فلا تعتمد على طول أناته وعلى محبته وصبره وسعيه إليك، لكي لا تصل إلى اللامبالاة والتهاون. وهوذا الكتاب يقول: "إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ" (عب٣: ١٥).

بأنواع وطرق شتى

إن الله له طرق كثيرة في اقتياد الناس إلى الخلاص...

البعض يدعوهم إليه. والبعض يتركهم إلى حين، إلى أن يلهب قلوبهم بالحب والاشتياق إليه. والبعض يجتذبهم بالتجارب والضيقات، مثلما قاد يونان إلى الطاعة بحوت ابتلعه، واجتذب أهل السفينة إلى الإيمان بإثارة البحر عليهم ثم تهدئته، والبعض يقودهم بمجرد الإنذار مثلما فعل مع أهل نينوى.

أتشكو من التجارب والضيقات؟ ربما سيخلصك الرب بالضيقات!

ربما أنت من النوع الذي لا يصلح معه سوى هذا الأسلوب، أو يكون هذا الأسلوب أكثر سرعة في اجتذابك إلى الله.

فإن أتتك التجارب، لا تتضايق. لعلها لخيرك.

خذ الخير الذي في التجارب، ولا تركز على ما فيها من ألم.

إن الله لا يحب أن يستخدم العنف معك. ولكن إذا كان هذا العنف – في حدود

احتمالك – نافعًا لك روحيًا، فلا مانع منه إلى حين...

ونفس الوضع نقوله من جهة المدة. الله يحددها حسب الصالح... هناك طعام لا يحتمل سوى ربع ساعة على النار لكي ينضج، بينما طعام آخر قد يحتاج إنضاجه إلى ساعتين أو أكثر...

فلا تفقد رجاءك لطول المدة. إن ذلك لخيرك...

*****

أما إن كنت ضعيفًا ولا تقدر، فاله قادر أن يعينك.

إن سعي الله لخلاصنا، ليس معناه أن نأخذ موقفًا سلبيًا على طول الخط، وعمل النعمة لا يساعد على الكسل. فأمامنا قول الرب: "كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ... وَلَمْ تُرِيدُوا!" (مت٢٣: ٣٧). قل له: "توبني فأتوب" "أرددني فأخلص" ولكن سلّم إرادتك له. وثق أنه سيعمل فيك، وسيقويك... وسيقودك في موكب نصرته، بالطريقة التي تناسب طبيعتك. وعند الله طرق كثيرة.

*****

وإن كان جهدك قليلًا، كن أمينًا في هذا القليل.

إن صاحب الوزنتين سُرَّ به الله، وأعطاه نفس الطوبى التي نالها صاحب الخمس وزنات (مت٢٥: ٢٣، ٢١). وقال له كما قال لذاك: "اُدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ".

إن الله لا يطالبك بأكثر من جهدك، ولا يطالبك بأكثر مما يحتمله ضعف طبيعتك. المهم أن تكون أمينًا في القليل الذي عندك.

وإن كنت لا تملك في روحياتك حتى القليل، الله قادر أن يعطيك. وإن كنت غير قادر على الأمانة في القليل، قل له أعطني يا رب القدرة والأمانة من عندك.

إن الله الذي نفخ في التراب، وجعله نفسًا حية، قادر أن ينفخ فيك، ويجعلك روحًا حية في ملكوته...

*****

الفصل الخامس

اهتمام الله بالأشياء الصغيرة

أُنْظُرُوا، لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ

(مت١٨: ١٠)

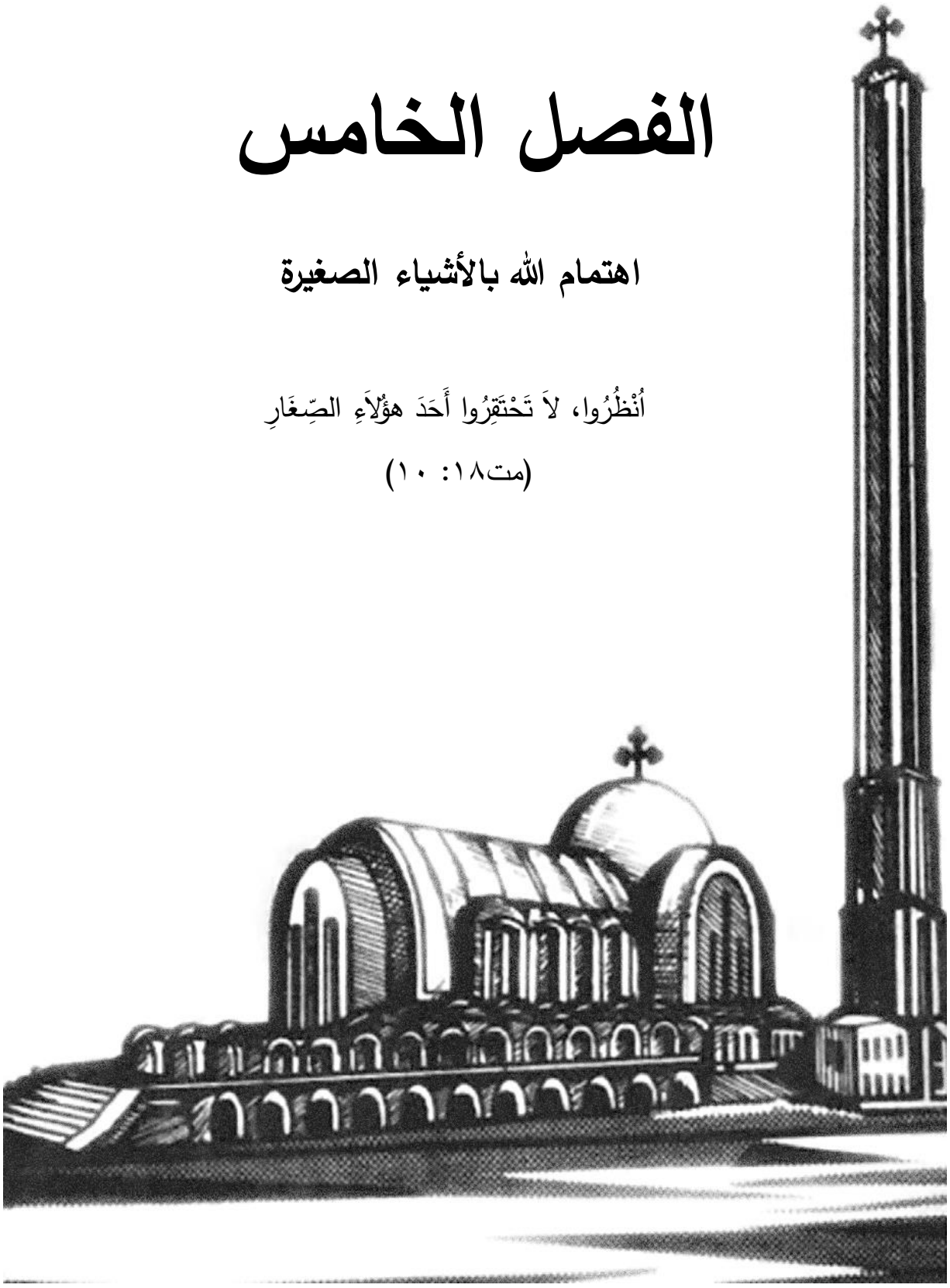

اهتمام الله بالأشياء الصغيرة[٣]

كثيرًا ما ينظر البعض إلى حياة القديسين، وإلى القمم العالية التي وصلوا إليها في حياة الروح، وإلى عمق الصلة التي عاشوا فيها مع الله...

وهنا يشعر الإنسان بصغر نفس ويتساءل: هل يمكن أن أكون مقبولًا أمام الله، وأنا في هذا المستوى الضعيف، وليس لي شيء على الإطلاق مما وصل إليه القديسون؟!

هل يمكن أن يقبل الله حياتي البسيطة الصغيرة التافهة... التي إذا قيست بسير القديسين تكون لا شيء؟!

هنا وأريد أن أحدثكم عن الله، الذي هو إله الصغار... الله الذي اهتم بالأشياء الصغيرة جدًا، وجعل لها قيمة كبيرة قدامه... والذي قيل عنه لتعزيتنا:

"المقِيمِ المسْكِينَ مِنَ التُّرابِ، الرَّافِعِ البَائِسِ مِنَ المزْبَلةِ. لِكي يُجْلِسَهُ مَعَ رُؤَسَاءِ شَعْبِهِ" (مز١١٣: ٧، ٨).

الله الذي اختار أناسًا صغارًا لم تكن لهم قيمة عند الناس، ولكن الله كان يعرف قيمتهم، أو جعل لهم قيمة وامتدت يد الله فرفعتهم.

******

اختار الصغار في السّن

وهكذا قال داود عن نفسه: "صغيرًا كنت في إخوتي، ومحتقرًا كنت عند بني أمي" كان كذلك عند إخوته. ولكن ماذا فعل الله؟

---

[٣] ألقيت هذه المحاضرة في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٨ أغسطس ١٩٧٨م

أخذ داود الصغير من بين الغنم، وجعله مسيحًا للرب.

عندما دخل صموئيل النبي ليمسح ملكًا من بيت يسَّى البيتلحمي، عرض عليه يسَّى أبناءه الكبار السمان... عرض عليه أليآب الطويل القامة الحسن المنظر، فقال الرب: "قَدْ رَفَضْتُهُ". ثم عرض عليه أبيناداب وشَمَّة وباقي السبعة، فكان النبي يقول عن كل منهم: "وَهذَا أَيْضًا لَمْ يَخْتَرْهُ الرَّبُّ" (١صم١٦: ٧– ١٠) ... وأخيرًا قال يسَّى:

"بَقِيَ بَعْدُ الصَّغِيرُ وَهُوَذَا يَرْعَى الْغَنَمَ" (١صم١٦: ١١).

نعم هذا الصغير الذي احتقره أبوه، وتركه مع الغنم دون أن يسمح له بحضور الحفل الذي يشرفه النبي العظيم صموئيل... هذا الصغير هو الذي اختاره الرب ليكون له مسيحًا...!

وحلَّ روح الرب على داود الصغير من ذلك اليوم فصاعدًا، وصار رجل المزامير، رجل المزمار والقيثارة والعشرة الأوتار، وواحدًا من أشهر أنبياء العهد القديم. حقًا إن الله لا ينظر إلى الأعمار ولا إلى المنظر الخارجي. وكثيرًا ما اختار الصغار.

*****

وكما اختار الله داود الصغير اختار أيضًا يوسف الصديق صغير إخوته.

وجعله ملكًا عليهم جميعًا، وعلى غيرهم. وأتى إخوته إليه، وسجدوا عند قدميه وهو صغيرهم...! كما جعله أيضًا أبًا لفرعون وسيدًا لكل بيته، ومتسلطًا على كل أرض مصر" (تك٤٥: ٨).

*****

واختار أيضًا إرميا النبي الصغير الذي قال: "لاَ أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لأَنِّي وَلَدٌ" (إر١: ٦).

وقال له الرب: "قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ... هَا قَدْ جَعَلْتُ كَلاَمِي فِي فَمِكَ. اُنْظُرْ! قَدْ وَكَّلْتُكَ هذَا الْيَوْمَ عَلَى الشُّعُوبِ وَعَلَى الْمَمَالِكِ... هأَنَذَا قَدْ جَعَلْتُكَ الْيَوْمَ مَدِينَةً حَصِينَةً وَعَمُودَ حَدِيدٍ وَأَسْوَارَ نُحَاسٍ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ، لِمُلُوكِ يَهُوذَا وَلِرُؤَسَائِهَا وَلِكَهَنَتِهَا وَلِشَعْبِ الأَرْضِ" (إر ١: ٥، ٩، ١٠، ١٨).

*****

نجد أن أحب التلاميذ إلى المسيح كان يوحنا أصغرهم سنًا...

وهو الذي جعله الرب أحد الأعمدة الثلاثة في رسله (غلا٢: ٩). وأطال عمره أكثر من جميعهم، وكشف له رؤى السماء، وجعله كاتب الإنجيل المملوء باللاهوتيات.

ولعل من الصغار الذي أكرمهم الرب **القديس مرقس الرسول** الذي كتب أول الأناجيل. وكان شابًا صغيرًا حدثًا في فترة كرازة السيد المسيح على الأرض، وبدأ حياته خادمًا مع القديس بولس والقديس بطرس.

وبولس الرسول اختار شابًا صغيرًا ليخدم معه، هو تيموثاوس الذي صار أسقفًا لأفسس، وقال له: "**لاَ يَسْتَهِنْ أَحَدٌ بِحَدَاثَتِكَ**" (**١تي٤: ١٢**).

*****

ومن الصغار الذين اختارهم الرب القديس العظيم الأنبا بيشوي.

اختاره الملاك من بين إخوته ليكون نذيرًا للرب، وكان أنحفهم جسمًا، وأضعفهم وأصغرهم. وعرضت أمه على الملاك أن يختار أحد إخوته الكبار الأقوياء ليخدم الرب بقوة. ولكن هذا الصغير النحيف الضعيف كان هو الذي اختاره الرب ليكون "الرجل الكامل حبيب المسيح الذي غسل قدميَّ مخلصنا الصالح".

لا تقل أنا صغير. فعجيب هو الرب في اختياره للصغار...

القديس أثناسيوس الرسولي كان شابًا صغيرًا في مجمع نيقية.

وكان في هذا المجمع المسكوني العظيم ٣١٨ من أشهر الآباء الأساقفة في العالم المسيحي. ومن حيث الرتبة كان أثناسيوس مجرد شماس. ومع ذلك وضعه الله في القمة. وأعطاه القوة في الانتصار على أريوس وفي دحض بدعته، وفي صياغة قانون الإيمان المسيحي.

وصار هذا الشماس الصغير أعظم اللاهوتيين في تاريخ الكنيسة...

وفي تاريخ الرهبنة، من أشهر الصغار العظام القديس تادرس تلميذ الأنبا باخوميوس، والقديس يوحنا القصير، والأنبا ميصائيل السائح.

لقد سمح أن يكون الشاب الصغير تادرس هو المرشد الروحي في كل أديرة القديس باخوميوس الكبير، بل هو الذي أسس كثيرًا من هذه الأديرة، وعين المسئولين فيها.

كذلك اختار الرب شابًا صغيرًا آخر ليكون المرشد الروحي في برية شيهيت، ذلك هو القديس يوحنا القصير، الذي قيل عنه إن الإسقيط كله كان معلقًا بإصبعه. وكان الرهبان يجلسون حوله ويستفيدون من تعليمه... وكان شابًا حدثًا، ولكن له نعمة أكثر من الشيوخ! والقديس ميصائيل صار من الآباء السواح وعمره حوالي ١٧ عامًا.

وأول دير في برية شهيت "دير البراموس"، تسمى باسم قديسين شابين، هما مكسيموس ودوماديوس... ومن أشهر السواح القديس الأنبا ميصائيل الذي وصل إلى درجة السياحة وهو في حوالي السابعة عشرة من عمره.

*****

إن الله حينما شاء هزيمة جليات، هزمه بفتى صغير.

فتى لا يعرف أن يلبس ملابس الحرب، لأنه لم يتعود عليها (١صم١٧: ٣٨، ٣٩)، بل استخدم خمس حصوات ملساء من البرية. وهذا الصغير مسحه الرب ملكًا، دون إخوته السبعة الكبار، وهكذا غنى داود أغنيته المشهورة "صغيرًا كنت في إخوتي، ومحتقرًا عند بني أمي... إخوتي كبار وسمان... ولكن الله لم يُسَّر بهم" (مز ١٥١)

*****

"أُنْظُرُوا، لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ" (مت١٨: ١٠).

اهتمام الرب بالأطفال واضح جدًا في الكتاب المقدس، فهو الذي أقام طفلًا وسط تلاميذه وقال لهم: "إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت١٨: ٣). وقال أيضًا: "أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ... لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ" (مت١١: ٢٥). وقال: "مَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ" (مت١٨: ٦). اعرف باستمرار أن "الْحَرْبَ لِلرَّبِّ" (١صم١٧: ٤٧)، و"لَيْسَ لِلرَّبِّ مَانِعٌ عَنْ أَنْ يُخَلِّصَ بِالْكَثِيرِ أَوْ بِالْقَلِيلِ" (١صم١٤: ٦).

*****

ما أعظم المواهب الروحية والذهنية التي وهبها الله للصغار.

ما أكثر مواهبه التي وهبها للأطفال والفتيان. داود النبي مثلًا: وهبه الله موهبة الشعر والموسيقى. فكان رجل القيثار والمزمار والعشرة الأوتار، وهو بعد حدث صغير، وكان يحسن الضرب على العود، ويستطيع أن يبعد الروح النجس عن شاول الملك (١صم١٦: ٢٣). وفوق كل ذلك كان رجل حرب وجبار بأس، وهو بعد فتى صغير...

*****

والقديس الأنبا شنوده رئيس المتوحدين وهبه الله نضوجًا روحيًا وهو طفل صغير.

فكان يمارس الزهد والصوم والصلاة وهو حدث صغير... إنها موهبة إلهية تدل على اهتمام الله بالصغار. وهكذا كان أيضًا القديس مرقس المتوحد يصوم إلى الساعة التاسعة وهو طفل.

*****

والقديس تكلا هيمانوت وهبه الله صنع المعجزات وهو طفل.

إنها ليست أمرًا موروثًا، وإنما هي هبة إلهية، ومواهب الله ليست قاصرة على الكبار، وإنما الصغار أيضًا يتمتعون بها. وما أكثرها في حياة القديسين الذين بدأوا حياتهم صغارًا، لأن نعمة الله شاءت أن تعمل فيهم في هذه السن المبكرة، كما عملت في إرمياء الذي لم يكن يعرف أن يتكلم لأنه ولد، وكما عملت في صموئيل الطفل، وفي سليمان وهو فتى صغير.

*****

ونفس النضوج الروحي كان في السيدة العذراء وهي طفلة.

العمق في الصلاة وفي التأمل وفي دراسة الكتاب... كل ذلك وهي طفلة صغيرة يتيمة تتربى في الهيكل... وتسبحتها المشهورة (لو١: ٤٦– ٥٥) تدل على مدى حفظها للمزامير وآيات الكتاب... كل ذلك وهي صغيرة السن. ولكنها نعمة الله العاملة في هذه الممتلئة نعمة، التي اختارها الله صغيرة، ولكن مملوءة بمواهبه.

لعل يوحنا المعمدان كان أيضًا أحد الأطفال الموهوبين.

والتفسير الوحيد لذلك هو قول الملاك المبشر عنه "وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (لو١: ١٥)... وهكذا كان الروح القدس يعمل فيه وهو بعد في بطن أمه. لذلك

استطاع أن يرتكض وهو جنين في بطن أمه لما سمعت سلام العذراء، بل أنه ارتكض بابتهاج، وهو جنين (لو١: ٤١– ٤٤).

******

إن النضوج المبكر للأطفال الموهوبين، ليس له تفسير إلا موهبة الله الغنية التي تنسكب على الأطفال بغنى لا يعبر عنه.

المهم أن المواهب التي يعطيها الله للأطفال، تعطيك رجاء، وتجعلك تكرر العبارة التي قالها رب المجد: "أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ... لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ" "لأَنْ هكَذَا صَارَتِ الْمَسَرَّةُ أَمَامَكَ" (مت١١: ٢٥، ٢٦)،

*****

ماذا نقول عن النضوج المبكر لأثناسيوس وطفولته العجيبة؟

ليس شيئًا سوى موهبة الله التي يمنحها للأطفال بغنى مذهل، قد تحار فيه العقول البشرية، وتعللها بأسباب شتى. ولكنها تستريح من حيرتها إن وضعت أمامها عبارتين، هما: "موهبة الله" و"محبة الله للأطفال".

هو القديس أثناسيوس الذي لقبوه بالرسولي، وهو أصغر من جلس على كرسي مار مرقس، وهو أعظم من جلس على هذا الكرسي، وكان بطلًا عظيمًا من أبطال الإيمان، وهو بعد شاب. وصار بطريركًا وهو في حوالي الثلاثين. ووضع كتبًا عظيمة مثل "تجسد الكلمة" و"الرسالة إلى الوثنيين" وهو شاب صغير.

*****

إننا نسعد جدًا، ونمتلئ بالرجاء، حينما نعرف أن نضوج الأطفال المبكر سببه موهبة الله ومحبته.

فالله الذي كان مع هؤلاء الأطفال وأعطاهم بغنى من مواهبه، هو أيضًا قادر أن يعطينا. المهم أن نتضع ونصير مثل الأطفال حسب وصيته، ونقف أمامه فارغين.

*****

نكتفي بهذه الأمثلة عن الصغار في السن، ونتكلم عن:

٢- الصغار في العدد

لقد اختار الله الصغار في العدد، لكي يبارك أو يصنع بهؤلاء الصغار عجبًا...

اختار الله الخمس خبزات والسمكتين ليصنع معجزة عظيمة.

إنه لم يحتقر هذه الكمية الصغيرة، إنما باركها، وأطعم بها خمسة آلاف من الرجال. وحتى هذا القدر الضئيل كان يحمله غلام صغير (يو٦: ٩). وفي معجزة إشباع الأربعة آلاف من سبعة أرغفة كان معهم "قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ" (مر٨: ٧). وبهذا القليل، وبهذه الصغار، أشبع الرب تلك الآلاف من الناس.

واختار الله هذه القلة الضئيلة، ليعطي رجاء لكل قلة ضئيلة.

إن الله يبارك القليل فيصير كثيرًا. إن العدد ليس هو المهم، إنما الأهمية كلها هي في البركة التي في هذا العدد. وبهذه البركة يصنع الله عجبًا.

ففي خدمتك لا تيأس من قلة مواهبك. وقل له: "استخدمني لإطعامهم كأنني من صغار السمك".

*****

انظروا في مثل الزارع: ماذا قال الرب عن الزرع الذي كان في الأرض الجيدة؟ لقد قال:

"فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ" (مت١٣: ٨).

نحن نعقل يا رب أن الزرع الذي يعطي مئة هو زرع جيد. ولكن هل يقال كذلك عن الذي يعطي ستين؟ وهل يسمى جيدًا من يعطي ثلاثين؟! وهل هذا الإنتاج الضئيل هو مقبول عند الله؟

ولعل الرب يجيب: ما دامت الأرض أعطت ثمرًا، إذًا فهي أرض جيدة، حتى إن أعطت ثلاثين...

لذلك لا ييأس ولا يفقد الرجاء، أصحاب الثلاثين. إن الله يقبل هذا القليل منهم، ما دام هذا هو جهدهم. ويبارك الرب هذا الجهد كأنه شيء كثير. انظروا ماذا نقول في أوشية القرابين:

أصحاب الكثير وأصحاب القليل. والذين يريدون أن يقدموا وليس لهم.

مجرد هذه الرغبة، حتى من غير عطاء، هي شيء مقبول عند الله، الذي لا يحتقر الشيء القليل. عجيب هو الرب في أحكامه، وفي قبوله للقليل. يذكرني هذا بقول أحد القديسين:

العنقود وإن كانت فيه حبة واحدة، لا تزال فيه بركة.

ونفس المعنى كرره إشعياء النبي (إش٦٥: ٨).

إن الله يعمل في القليل، لكي لا نفتخر نحن بقوتنا، ونظن أننا ننتصر بالكثرة وليس بقوة الله، فيكسرنا هذا الفكر.

*****

وهذا واضح من قصة الحرب التي دخلها جدعون بعدد قليل...

كان جدعون قد جمع من الشعب جيشًا كبيرًا من اثنين وثلاثين ألفًا ليحارب المديانيين. ولكن الرب قال له: "إِنَّ الشَّعْبَ الَّذِي مَعَكَ كَثِيرٌ عَلَيَّ لأَدْفَعَ الْمِدْيَانِيِّينَ

بِيَدِهِمْ، لِئَلاَّ يَفْتَخِرَ عَلَيَّ إِسْرَائِيلُ قَائِلاً: يَدِي خَلَّصَتْنِي" (قض٧: ٢) وظل الرب يغربل هذا العدد الكبير حتى وصل إلى ثلاثمائة جندي فقط.

وبارك الله في هذا العدد القليل، فانتصر على جيش المديانيين الذي كان منتشرًا كالجراد على الأرض. وماذا أيضًا:

*****

لما أراد الرب الكرازة بالإنجيل اختار لذلك اثني عشر رسولًا فقط...

واستطاع هؤلاء – على الرغم من قلتهم – أن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (مر١٦: ١٥) – وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم.

فلا تقل مطلقًا نحن قلة. فإن الله يبارك القليل فيصير كثيرًا.

من ثمانية أنفس فقط في الفلك، أعاد الله تكوين البشرية من جديد. ولم يختر لغرضه سوى هذا العدد الضئيل.

ومن ابن واحد هو إسحاق، استطاع الله أن يأتي بنسل مثل نجوم السماء ورمل البحر في الكثرة...

وكما تحدثنا عن اهتمام الله بالصغير في السن، وبالقليل في العدد، ومباركته هذا وذاك، ننتقل إلى نقطة أخرى وهي:

*****

٣- الاهتمام بالقليل في النوعيّة

لما شاء أن يهزم جليات الجبار، هزمه بحصاة ملساء في مقلاع صبي صغير هو داود.

فلا تفقد أنت رجاءك، ولا تقل مواهبي قليلة، وأنا صغير، ضئيل الشأن، لست على

مستوى قوة مَنْ يبغضونني. فلتكن حصاة صغيرة في مقلاع الرب. وليعمل الرب بك عملًا، مهما كان جهدك قليلًا.

لأن "الْحَرْبَ لِلرَّبِّ" (١صم١٧: ٤٧). و"لَيْسَ لِلرَّبِّ مَانِعٌ عَنْ أَنْ يُخَلِّصَ بِالْكَثِيرِ أَوْ بِالْقَلِيلِ" (١صم ١٤: ٦).

*****

انظر كيف نشر الله ملكوته على الأرض... إنه لم يختر لذلك جماعة من الفلاسفة أو العلماء أو الجبابرة، بل اختار مجموعة من الصيادين البسطاء، وعمل فيهم وبهم... وكما قال الرسول:

"اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. وَاخْتَارَ اللهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ. وَاخْتَارَ اللهُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ، لِكَيْ لاَ يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ" (١كو١: ٢٧- ٢٩).

ونحن نقف أمام هذه العبارة مبهورين..! قد تعبر في فهمنا كلمة الجهال والضعفاء... لكن ماذا عن المزدرى وغير الموجود؟! ما هذا العجب؟ كيف يمكن للرب أن يختار المزدرى وغير الموجود؟!

لا شك أن هذه العبارة تحيي الرجاء في نفس كل إنسان، مهما كان ضعيفًا، ومهما كان بلا مواهب وبلا إمكانيات وبلا قدرات من كل ناحية...

لذلك إن حوربت باليأس قل له: اعتبرني يا رب ضمن المزدرى وغير الموجود، ولا تحرمني من العمل معك... ليكن لي كيان قدامك، مع أنني في نظر نفسي – وربما في نظر الناس – مزدرى وغير موجود...

ربما يظن البعض أن السيد المسيح لو كان قد جاء في أيامنا، لكان يختار أصحاب

الشهادات العالية جدًا وأساتذة البحوث!

كلا، صدقوني، لأنه لا يحب أن يفتخر كل ذي جسد أمامه، ولئلا تنسب البشارة إلى العقل البشري وليس إلى عمل الروح القدس. فلو كان المسيح جاء في أيامنا، ما كنت أستغرب أن يختار بعضًا من البسطاء كما فعل من قبل، أو مجموعة من عمال التراحيل...

فليس مصدر القوة هو الإنسان وإنما روح الله العامل فيه.

والله يحب أن يستخدم الصغار، لكي لا يفتخروا، ولكي لا ييأس أحد من عمل الله فيه. فلا يفشل أحد، ولا تصغر نفس إنسان ما.

الله نشر الكرازة باثني عشر رجلًا، وما كانوا أصحاب مواهب.

بل كانت غالبيتهم من الصيادين، إنما المهم هو عمل الله فيهم. والثالث عشر الذي هو بولس، لم يعتمد على الثقافة والمواهب، بل قال لأهل كورنثوس: "وَأَنَا لَمَّا أَتَيْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَتَيْتُ لَيْسَ بِسُمُوِّ الْكَلاَمِ أَوِ الْحِكْمَةِ" (١كو٢: ١). لماذا؟ يقول: "لاَ بِحِكْمَةِ كَلاَمٍ لِئَلاَّ يَتَعَطَّلَ صَلِيبُ الْمَسِيحِ" (١كو١: ١٧)، لئلا تحسب المسيحية فلسفة، أو ينسب نجاح الكرازة إلى الحكمة وليس إلى عمل النعمة.

*****

إن باب الملكوت مفتوح للكل، وكذلك باب الخدمة...

ليس فقط للذين يقولون إنهم وصلوا إلى الملء، ويتكلمون بألسنة!! ولهم المواهب، ويرتعشون في الصلاة...! بل إن باب الملكوت مفتوح أيضًا أمام المبتدئ، الحديث في العمل الروحي، الذي لا يعرف أن يتكلم لأنه ولد (إر١: ٦).

فلا يظن أحد أنه إن لم يصعد إلى القمة في الروحيات، فهو لم يصل بعد إلى الله!

ولا تحتقروا أمثال هؤلاء الذين لم يصلوا إلى القمم. ولا تصغر نفوس هؤلاء، فإن الله يعمل في الكل، ويستخدم حتى "القليل من صغار السمك".

وما أجمل العبارة المعزية التي قالها القديس يوحنا المعمدان:

"إِنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْرَاهِيمَ" (لو٣: ٨).

وإلى مَنْ ترمز الحجارة؟ إلى صم بكم لا يتحدثون، بلا حركة وبلا حياة... هؤلاء، الرب قادر أن يقيم منهم أولادًا لإبراهيم.

إذًا لا تفقد رجاءك مطلقًا، مهما كنت بلا حياة. فأنت ولا شك أفضل من حجارة كثيرة...

*****

أمامنا مثل آخر في ميلاد المسيح يدل على اهتمام الله بالصغار:

لقد وُلد في مزود بقر، وليس في قصر ضخم. ووُلد في قرية صغيرة هي بيت لحم، وليس في المدينة العظمى أورشليم.

واستطاع أن يحوَّل المزود إلى مزار عالمي ومقدس من المقدسات الكبرى. أما بيت لحم فقال لها: من الآن فصاعدًا "لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا" (مت٢: ٦). رفعها فوق بلاد كثيرة، ومنحها قيمة بميلاده فيها.

ولعل هذا يذكرنا بدعوة الرب لجدعون، الذي شعر بصغر نفس، لضآلة أصله وبلده فقال:

"هَا عَشِيرَتِي هِيَ الذُّلَّى فِي مَنَسَّى، وَأَنَا الأَصْغَرُ فِي بَيْتِ أَبِي" (قض٦: ١٥).

ولكن الرب كان يبحث عن هذا الأصغر، ليظهر مجد الله فيه.

لذلك لا تفقد رجاءك إن كنت صغيرًا. إن كنت مزودًا، أو قرية صغيرة، أو كنت

الأصغر في بيت أبيك، أو إن كانت عشيرتك هي الذُّلَّى بين باقي العشائر...! إن الله قادر أن يعمل فيك، ويرفع شأنك فتصير شيئًا آخر ما كنت تفكر فيه.

إنه موقف يشجع الضعفاء والمساكين، الصغار والأذلاء...

*****

انظروا في اختيار موسى النبي، تروا موقفًا عجيبًا... كان موسى "ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ... وليس صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ" (خر٤: ١٠).

ومع ذلك اختار الله هذا الثقيل الفم واللسان ليكون كليم الله...

لم ينزع منه هذا النقص، وإنما أرسل له هارون أخاه، لكي "يكون له فمًا" وقال الله لموسى: "وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" (خر٤: ١٦، ١٢). وبهذا الإنسان الثقيل الفم واللسان، أذل الله فرعون...

إن قلة المواهب لا تعوق عمل الله، ولا تدعو الإنسان أن يفقد الرجاء في القدرة على القيام بالمسئوليات... فباستمرار ثق بالله الذي قيل إنه "يُعْطِي الْمُعْيِيَ قُدْرَةً، وَلِعَدِيمِ الْقُوَّةِ يُكَثِّرُ شِدَّةً" (إش٤٠: ٢٩).

*****

إن الله يستخدم الصغار والضعفاء. وهنا نسأل سؤالًا: عندما قاد الله يونان النبي إلى التوبة والصلح معه، بماذا هداه؟

استخدم الله في هداية يونان: الدودة، واليقطينة، والريح والموج، وأشعة الشمس. فكانت كل منها تؤدي رسالة إلهية... (يون١، ٤).

*****

اليقطينة التي بنت ليلة كانت، وبنت ليلة هلكت، استخدمها الله في تحقيق مقاصده،

وكذلك الدودة التي لا قيمة لها عند أحد!

قل لـه: احسبني يـا رب دودة، احسبني يقطينـة، احسبني موجـة، احسبني شـعاعًا. فلأكن أي شيء مهما كان تافهًا في ملكوتك، ولكن يصنع مشيئتك.

وإن كنـت دودة لا تفقـد رجـاءك، سـيكون لـك دور عنـد الله... وإن كنـت يقطينـة لا تصـغر نفسك. سيأتي وقت تعطـي فيـه درسًـا لنبـي كيونـان، ويكتـب اسمك فـي كتـاب الله...!

*****

٤- اهتمام الله بالأشياء الصغيرة

اهتم الله بالأطفال، وتحدث عنهم بكل حب وتقدير...

كان يحتضنهم ويعطف عليهم ويقول: "دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَـيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت١٩: ١٤).

وأخذ ولدًا وأقامه في الوسط، وقال لتلاميذه: "إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَمَنْ قَبِلَ وَلَدًا وَاحِدًا مِثْلَ هذَا بِاسْمِي فَقَدْ قَبِلَنِي" (مت١٨: ٢- ٥).

واهتم بنفسية هؤلاء الصغار، والبعد عن إعثارهم، فقال:

"مَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ" (مت١٨: ٦).

إن الله يهتم بالصغار من كل نوع، سواء في سنهم، أو في روحياتهم، أو نوعيتهم عمومًا، أو في ضآلتهم وضعفهم. رعايته تشمل الكل.

*****

لقد اهتم حتى بالقصبة المرضوضة وبالفتيلة المدخنة...

فقيل عنه في الإنجيل "قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ" (مت١٢: ٢٠). إنه يعطي رجاء لكليهما. فالقصبة المرضوضة قد تربط وقد تعصب. والفتيلة المدخنة قد يرسل لها ريحًا فتشعلها.

والشجرة التي لم تعط ثمرًا، أعطاها رجاءً وفرصة أخرى.

فلما امتدت الفأس لتوضع على رأس هذه الشجرة، قال في حنوه: "اتْرُكْهَا هذِهِ السَّنَةَ أَيْضًا، حَتَّى أَنْقُبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زِبْلاً. فَإِنْ صَنَعَتْ ثَمَرًا، وَإِلاَّ فَفِيمَا بَعْدُ تَقْطَعُهَا" (لو١٣: ٧– ٩). إنه لم يقطع الرجاء حتى بهذه التي استمرت ثلاث سنوات بلا ثمر.

*****

وهو يعطي قيمة حتى للنملة الصغيرة، ويقدمها درسًا للبشر...

فيقول: "اِذْهَبْ إِلَى النَّمْلَةِ أَيُّهَا الْكَسْلاَنُ. تَأَمَّلْ طُرُقَهَا وَكُنْ حَكِيمًا..." (أم٦: ٦) ونحن نقول: ما هي هذه النملة يا رب حتى تخلصها، وتمنحها هذه الطبيعة النشطة، وتضرب بها المثل فيما وهبتها إياه من نشاط ومهارة وقدرة...؟! وكأن الله يجيبنا ويقول:

لا تظنوا أني فقط خالق التنانين، وإنما أيضًا خلقت الحشرات والهوام. وأرعى هذه وتلك... وأهتم حتى بالعصافير التي يباع اثنان منها بفلس واحد. وأعطي طعامًا لفراخ الغربان التي تدعوني (مز١٤٧: ٩). عجيب هو الرب الذي يخلق هذه الأشياء الصغيرة ويهتم بها. بل يهتم حتى بالدودة التي تسعى تحت حجر، وبالزنبقة التي يُلبسها أفضل من سليمان في كل مجده (مت٦: ٢٩).

*****

إنه يضرب لنا مثلًا للإيمان ولملكوت السماوات بحبة الخردل التي هي أصغر جميع

البذور.

فيقول: "يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَل أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ، وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ. وَلكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً، حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَآوَى فِي أَغْصَانِهَا" (مت١٣: ٣١– ٣٢).

ويقول أيضًا: "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ" (مت١٧: ٢٠).

إذًا لا تفقد رجاءك ولو كان إيمانك صغيرًا كحبة الخردل.

إنه يمكن أن ينمو ويصير شجرة تتآوى إليها الطيور. والله يقبل هذا الإيمان ويباركه. وأيضًا...

*****

في الإيمان والملكوت يضرب مثلًا بخميرة صغيرة تخمر العجين كله.

فيقول: "يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَّأَتْهَا فِي ثَلاَثَةِ أَكْيَالِ دَقِيق حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ" (مت١٣: ٣٣). وقد تذكر بولس الرسول هذا المثل فقال لأهل غلاطية: "خَمِيرَةٌ صَغِيرَةٌ تُخَمِّرُ الْعَجِينَ كُلَّهُ" (غلا٥: ٩).

إذًا لا تفقد رجاءك مهما كان إيمانك قليلًا، ومهما كان عملك ضئيلًا، فالله يقبل القليل ويباركه ليصير كثيرًا.

*****

إن الرب قد أعطى في ملكوته رجاء حتى للعرج والجدع...

فقال لعبده بعد أن أعدّ الوليمة: "اخْرُجْ عَاجِلاً إِلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَزِقَّتِهَا، وَأَدْخِلْ إِلَى

هُنَا الْمَسَاكِينَ وَالْجُدْعَ وَالْعُرْجَ وَالْعُمْيَ" (لو١٤: ٢١).

بل قال أيضًا كوصية: "إِذَا صَنَعْتَ ضِيَافَةً فَادْعُ: الْمَسَاكِينَ، الْجُدْعَ، الْعُرْجَ، الْعُمْيَ، فَيَكُونَ لَكَ الطُّوبَى إِذْ لَيْسَ لَهُمْ حَتَّى يُكَافُوكَ" (لو١٤: ١٣). فإن حوربت بفقد الرجاء، تذكر هؤلاء الذين ليس لهم، والذين قبلهم الرب بدون مقابل...

*****

هنا ونذكر ملاحظة هامة في معجزة الخمس خبزات والسمكتين:

إن الله اهتم بالكسر، فأمر بجمعها، وحملها الرسل...

لعلك تقول ليتني كنت خبزة في يد الرب، يباركها ويطعم بها الألوف، وهكذا يمكنني أن أصلح لشيء في الخدمة! أقول لك: حتى لو لم تكن خبزة، وكنت مجرد كسرة ملقاة على الأرض لم تجد من يأكلها... ستسمع قول الرب: "اجمعوا الكسر" وسيأتي وقت تستطيع فيه أن تشبع الآخرين.

إذًا إن كانت أعمالك الروحية ضعيفة، قل له في اتضاع: أدخلني يا رب مع المساكين والجدع والعرج والعمي إلى ملكوتك. وكما اهتممت بجمع الكسر في معجزة الخمس خبزات والسمكتين، اعتبرني أنا أيضًا من هذه الكسر، ليأخذني رسلك معهم في سلالهم وقففهم. أنا يا رب من هذه الكسر. اجمعني في سلتك المباركة.

*****

لا تظن أنه يجب أن تصعد إلى أعلى، لكي تقابل الله.

بل إنك كلما شعرت أنك لا شيء، ولا استحقاق لك على الإطلاق. وهبط قلبك إلى أسفل، فهناك تلتقي بالله.

وهكذا كلما نزلت إلى أسفل صعدت إلى أعلى.

حقًا الإنسان يصعد في هبوطه، ويهبط في صعوده.

وقد قال الرب في ذلك: "كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ" (لو١٤: ١١).

*****

لقد ضرب لنا ثلاثة أمثلة في اهتمامه بالصغار في الأصحاح الخاص بقبوله للتائبين وبحثه عنهم (لو١٥).

رجوع الابن الضال بانسحاق قلب، قابله الرب بفرح كبير، ومكافآت عديدة... ثم ماذا عن الخروف الضال؟ من ذا الذي يستطيع أن ينظر إلى حظيرة فيها مائة خروف فيلمح أنها مجرد ٩٩، ويبحث عن الواحد الناقص إلى أن يحمله على منكبيه فرحًا، بل من ذا الذي يهتم بدرهم واحد مفقود، ويظل يبحث عنه حتى يجده، ويفرح بوجوده. ألا يعطيك هذا رجاء في عمل الله من أجلك! هو يبحث عنك، إن لم تبحث أنت عنه...

ومن اهتمام الله بالصغار، اهتمامه بقرية بيت لحم الصغيرة.

هذه التي قال لها الوحي الإلهي: "وأنت يا بيت لحم... لست الصغرى بين رؤساء يهوذا، لتكوني قدسًا ومكانًا للميلاد المجيد...".

ومن اهتمامه بالصغار، اختياره ليئة المكروهة الضعيفة العينين (تك٢٩: ١٧، ٣٣).

ليئة هذه التي كانت صغيرة القدر والمكانة بالنسبة إلى أختها راحيل، هي التي اختارها الرب لتكون أمًا ليهوذا سبط الملوك، وأمًا للاوي سبط الكهنوت، وجدة للمسيح، فأتى من نسلها ولم يأت من نسل راحيل...

*****

بل اختار الرب راحاب الزانية وكذلك ثامار ضمن سلسة الأنساب، واختار راعوث الموآبية ضمن سلسة الأنساب أيضًا (مت١: ٣، ٥)... بل اختار مريم المجدلية التي كان عليها سبعة شياطين لتكون مُبشرة للرسل (مر١٦: ٩، ١٠). بل أنه اختار التراب ليجعل منه صورته ومثاله. فلا تيأس إذًا من عمل الله معك واختياره لك.

*****

إنه "المقيم المسكين من التراب، والرافع البائس من المزبلة، ليجلسه مع رؤساء شعبه" (مز١١٢).

إذًا الله قادر أن يقيمك مهما كانت حالتك، بل يرفعك أيضًا لتجلس مع رؤساء شعبه. أليس هو الذي لا يحتقر قصبة مرضوضة، ولا فتيلة مدخنة، يأمر بتشجيع صغار النفوس، وأن نسند الضعفاء ونتأنى على الجميع" (١تس٥: ١٤). بل ما أجمل قول الكتاب: "قَوِّمُوا الأَيَادِيَ الْمُسْتَرْخِيَةَ وَالرُّكَبَ الْمُخَلَّعَةَ" (عب١٢: ١٢)، حتى إن كنت من هذا النوع، سوف لا يهملك الله، بل سيرسل لك من يقومك...

*****

بل خذ مثال اهتمامه بالعصفور، كرمز لاهتمامه بك.

إنه يقول: "أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ" (مت١٠: ٢٩). فالذي يهتم بالعصفور لا شك يهتم بك أيضًا. ولذلك يقول بعدها مباشرة " وَأَمَّا أَنْتُمْ فَحَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ. فَلاَ تَخَافُوا! أَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْ عَصَافِيرَ كَثِيرَةٍ!" (مت١٠: ٣٠، ٣١).

ويعجب الرب بالعصافير في إيمانهم بأن الله يقوتها ويقول في ذلك: "اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا" (مت٦: ٢٦). وهكذا يذكرها ويضرب بها مثلًا لنا، هي "وفِراخِ الغِرْبانِ الَّتي تَدْعوهُ"

(مز١٤٧: ٩).

إنه يهتم بالدودة التي تسعى تحت حجر، ويعطيها طعامها.

كم بالأولى أنت، يعطيك طعام الروح، وطعام الجسد أيضًا. أليس الإنسان أفضل من ديدان كثيرة؟! الدودة الصغيرة استخدمها الله ليعطي درسًا ليونان النبي، حينما أعدها الله لتضرب اليقطينة (يون٤: ٧). حسن أن هذه الدودة ذُكرت في الكتاب المقدس، وهي تؤدي رسالة تؤول إلى توبة نبي.

*****

٥- الله يهتم بالعمل الصغيرة

إنه لا ينسى كأس الماء البارد الذي تقدمه لعطشان.

وقد قال في ذلك: "وَمَنْ سَقَى أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ كَأْسَ مَاءٍ بَارِدٍ فَقَطْ بِاسْمِ تِلْمِيذٍ، فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَهُ" (مت١٠: ٤٢؛ مر٩: ٤١).

مجرد كأس ماء بارد، لم تتعب فيه، ولم يكلفك شيئًا، هذا لا يضيع أجره. إذًا لا تيأس إن كانت أعمالك.

*****

هناك أعمال أنت تعملها وتنساها لضآلتها. والله لا ينساها. حتى إن كانت في نظرك بلا قيمة، هي عند الله لها قيمتها، ويكافئك عليها في اليوم الأخير. وحسن إنك نسيتها لتأخذ أجرها كاملًا هناك.

لقد مدح الرب ملكة التَّيْمَن لمجرد أنها زارت سليمان.

وقال: "مَلِكَةُ التَّيْمَنِ سَتَقُومُ فِي (يوم) الدِّينِ مَعَ هذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ ههُنَا!" (مت١٢: ٤٢).

وبنفس الوضع مدح أرملة صرفة صيدا لأنها استضافت إيليا النبي في وقت المجاعة (لو٤: ٢٥، ٢٦).

*****

ولم ينس الرب زيارة نيقوديموس، مع أنها كانت ليلًا وبخوف...

وسمح أن تسجل هذه الزيارة في الإنجيل (يو٣). وهذا الإيمان الخائف المتخفي الذي كان لنيقوديموس، باركه الرب ونماه حتى سمح له أن يكفنه. وصار نيقوديموس من مشاهير المسيحيين فيما بعد، وصار جنديًا صالحًا في ميدان الخدمة.

ولم ينس الرب لزكا مجرد صعوده على الجميزة ليراه.

ربما لم يحس زكا أن هذا عمل كبير يكافأ عليه من الرب. ولكن الله الذي يهتم بكل عمل مهما كان صغيرًا، وقف ونادى زكا، ودخل بيته. وقال له: "الْيَوْمَ حَصَلَ خَلاَصٌ لِهذَا الْبَيْتِ، إِذْ هُوَ أَيْضًا ابْنُ إِبْرَاهِيمَ" (لو١٩: ٩).

هل كان يخطر على بال زكا أن الرب سيقدر صعوده إلى الجميزة كل هذا التقدير؟! أم هو الرب الذي يهتم بالعمل مهما كان صغيرًا.

*****

إنه لم ينس مطلقًا عبارة اتضاع تلفظت بها المرأة الكنعانية.

وطوبها قائلًا لها: "عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ. وشفى ابنتها في تِلْكَ السَّاعَةِ" (مت١٥: ٢٨). كذلك لم ينس لشعبه مجرد خروجهم وراءه في البرية (إر٢: ٢) مع أنهم كانوا في البرية متذمرين وقساة القلوب. قال لشعبه:

"قَدْ ذَكَرْتُ لَكِ... ذِهَابَكِ وَرَائِي فِي الْبَرِّيَّةِ" (إر٢: ٢).

قال هذا على الرغم من أخطاء هذا الشعب في البرية، وعلى الرغم من تذمره

وجحوده... ولكن مجرد خروجه وراء الرب ليعبده في البرية لم ينسه الرب.

وقال لتلاميذه: "أَنْتُمُ الَّذِينَ ثَبَتُّوا مَعِي فِي تَجَارِبِي" (لو٢٢: ٢٨).

مع أن ثباتهم كان ضعيفًا، هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يسهروا معه ساعة واحدة (مت٢٦: ٤٠)، والبعض منهم خاف وهرب... ساعة القبض عليه، وبطرس أنكره ثلاث مرات، ولم يقف معه عند الصليب سوى واحد فقط هو يوحنا، إلا أن مجرد سيرهم وراءه وتمسكهم به كمعلم لهم، كل هذا الذي كان في نظرهم شيئًا بسيطًا لم ينسه الرب مطلقًا. وبنفس الأسلوب.

*****

وامتدح الرب الذين جاءوا في الساعة الحادية عشرة.

مع أنهم جاءوا في آخر النهار، ولم يعملوا سوى ساعة واحدة. ولكنه مع ذلك قبل منهم هذه الساعة، وأعطاهم أجرة كالباقين. ولم يرفض هذه الساعة، بل امتدحها. على الأقل تدل على أنهم مثمرون وقادرون على العمل.

*****

وكما قبل القليل من هؤلاء، قَبل أيضًا فلسي الأرملة.

ومدحها، وقال إنها أعطت أكثر من الجميع، لأنها أعطت من أعوازها (مر١٢: ٤٤). وقد يكون الفلسان شيئًا تافهًا. ولكن الإعطاء من العوز هو شيء كبير جدًا عند الله أيًا كانت الكمية المعطاة.

لذلك إن صليت مجرد دقائق من أعوازك، يقبلها الله...

إن ضاق بك الوقت جدًا، ولم تجد – مرغمًا – سوى لحظات ترفع فيها قلبك إلى الله، فلا تصغر نفسك، ولا تفقد رجاءك إذ لم تستطع أن تصلي كما ينبغي! كلا، إن الله

يفحص القلب ويعرف ظروفك، وهل الأمر عن إهمال أو لا مبالاة أم أنك تعطي من إعوازك في الوقت.

*****

كانت صلاة العشار قصيرة، جملة واحدة، وقبلها الله...

وخرج هذا العشار مبررًا دون الفريسي (لو١٨: ٩- ١٤) لأنه كان يصلي من قلبه، وبانسحاق، ولا يجرؤ أن يرفع نظره إلى فوق. فكانت الجملة الواحدة التي قالها، هي عند الله كثيرة الثمن جدًا وغالية عليه. ولم يطالبه الله ببرنامج روحي طويل فوق مستواه، كما يفعل القديسون. بل اكتفى الرب بانسحاق العشار...

كذلك فإن الله قَبل من اللص اليمين توبة قدمها في آخر ساعات حياته (لو٢٣: ٤٣). ورضي من السامرية بما اعتبره اعترافًا، مع أنها لم تشرح كل شيء... (يو٤). وطوّب وكيل الظلم – على الرغم من أخطائه – لمجرد اهتمامه بمستقبله (لو١٦: ٨).

*****

لا تيأس إن كان عملك الروحي ضعيفًا وثمرك قليلًا.

لا تقل: "لا فائدة. أنا لم أعمل شيئًا" وتيأس بسبب ذلك. واعلم أن الله لا ينسى أي عمل بسيط، ربما تكون أنت قد عملته ونسيته. إنه لم ينس لملكة التَّيْمَن أنها سافرت لتسمع حكمة سليمان. وبسبب هذا العمل الذي يبدو بسيطًا، قال إنها ستقوم في يوم الدين وتدين ذلك الجيل (مت١٢: ٤٢).

*****

انظر في اهتمام الرب بالعمل الصغير، قول القديس ذهبي الفم:

إن الله يجول طالبًا سببًا لخلاصك، ولو دمعة واحدة...

حقًا إن الرب يرضى بالقليل ما دام بروح طيبة، وما دام الإنسان أعجز من أن يفعل أكثر. ويأخذ الرب هذا القليل وينميه ويجعله كثيرًا. فلا تيأس، ولا تجعل الشيطان يحاربك قائلًا: ماذا فعلت؟! هوذا الله يطلب منك الكمال (مت٥: ٤٨)!

نعم إن الله يطلب الكمال، ولكنه لا يطلب منك أكثر مما تقدر عليه.

إنه يضع في حسابه لك: إمكانياتك وظروفك. وهو يقبل منك التدرج. المهم أن تكون سائرًا في الطريق، وليس أن تكون وصلت إلى نهايته. وهو يعطيك فرصة ويطيل أناته عليك، لكي يقودك إلى التوبة.

ولكن طول أناة الله لا تجعلنا نتهاون ونتكاسل!

وثمرنا القليل لا يعني أن نرضى به ونكتفي! كلا وإنما نجاهد وننمو، ولكن في رجاء، غير يائسين، بل طالبين من الله أن يقوي ضعفنا، ويمنحنا النعمة والمعونة لكي نعمل في كل حين ما يرضيه...

*****

الفصل السادس

الله حنون عطوف

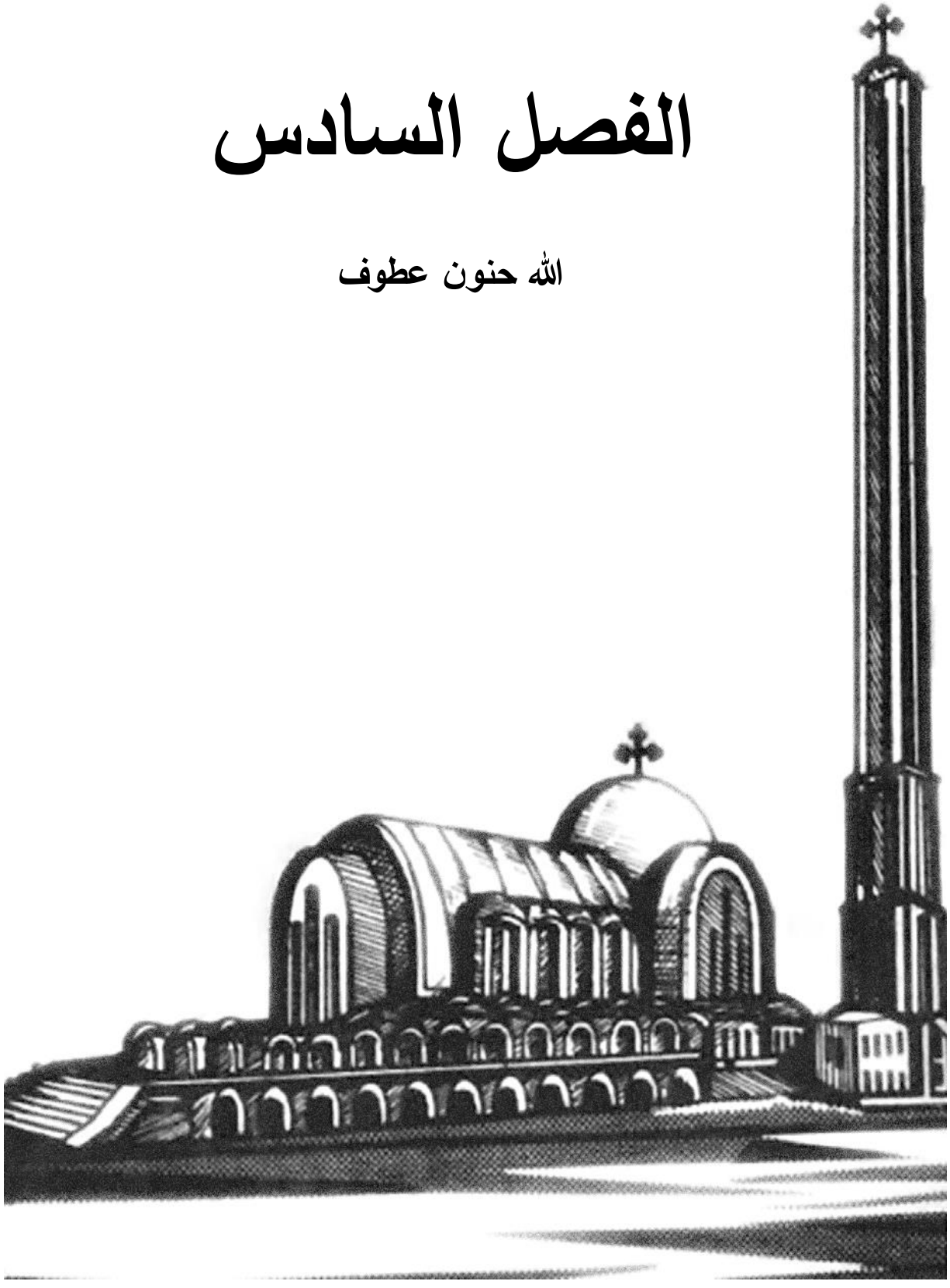

الله حنون عطوف

في الإنسان قسوة، أما الله ففيه حنو ورفق، ولذلك عندما خُير داود النبي بين ثلاث عقوبات، قال عبارته الشهيرة: "(أقع) فِي يَدِ الرَّبِّ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ وَلاَ (أقع) فِي يَدِ إِنْسَانٍ" (٢صم٢٤: ١٤). وهكذا نرى أن أيوب الصديق لما وقع في أيدي أصحابه الثلاثة، أشبعوه مذمة واتهامًا، حتى قال لهم: "حَتَّى مَتَى تُعَذِّبُونَ نَفْسِي وَتَسْحَقُونَنِي بِالْكَلاَمِ؟! هذِهِ عَشَرَ مَرَّاتٍ أَخْزَيْتُمُونِي" (أي١٩: ٢، ٣) أما الله فهو رؤوف ومتحنن، ومن أمثلة تحننه.

*****

أعطانا وصايا في مستوى احتمالنا

تدرج معنا تدرجًا كبيرًا من وصايا العهد القديم إلى كمال العهد الجديد. وقد لام الكتبة والفريسيين لأنهم يحملون الناس أثقالًا عسرة الحمل، وهم لا يريدون أن يحركوها بأصابعهم وقال لهم إنهم في ذلك قد أغلقوا أبواب الملكوت، فما دخلوا ولا جعلوا الداخلين يدخلون (مت٢٣: ٤: ١٣).

وهكذا نرى تلاميذ الرب في أول مجمع لهم في أورشليم الخاص بقبول الأمم، يقولون: "لاَ يُثَقِّلَ عَلَى الرَّاجِعِينَ إِلَى اللهِ مِنَ الأُمَمِ، بَلْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنْ نَجَاسَاتِ الأَصْنَامِ، وَالزِّنَا، وَالْمَخْنُوقِ، وَالدَّمِ" (أع١٥: ١٩، ٢٠). والقديس بولس الرسول يقول لأهل كورنثوس:

"سَقَيْتُكُمْ لَبَنًا لاَ طَعَامًا، لأَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا بَعْدُ تَسْتَطِيعُونَ" (١كو٣: ٢).

ومن رأفة الله وعطفه، أنه حينما يعطي وصية، يعطي معها قوة لتنفيذها، فترافقنا نعمته لكيما نستطيع ويعطينا روحه القدوس ليعمل فينا، لكي نستطيع أن نعمل.

والله في رأفته يترأف على خليقته كلها، ليس الإنسان فحسب، بل حتى الحيوان والطبيعة.

حنو الله ورأفته على الحيوان

إن الله الذي منح الإنسان راحة في السبت، أعطى ذلك للحيوان أيضًا، فقال: "أَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَسَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ، لاَ تَعْمَلْ فِيهِ عَمَلاً مَّا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ" (تث٥: ١٤).

*****

ولم يهتم فقط براحة الحيوان بل براحة الأرض أيضًا.

فقال: "سِتَّ سِنِينَ تَزْرَعُ أَرْضَكَ وَتَجْمَعُ غَلَّتَهَا... وَأَمَّا فِي السَّابِعَةِ فَتُرِيحُهَا وَتَتْرُكُهَا" (خر٢٣: ١٠، ١١؛ لا٢٥: ٣- ٥). وعلى الرغم من التشديد في حفظ السبت، وعدم العمل فيه، قال الرب: "مَنْ مِنْكُمْ يَسْقُطُ حِمَارُهُ أَوْ ثَوْرُهُ فِي بِئْرٍ وَلاَ يَنْشُلُهُ حَالاً فِي يَوْمِ السَّبْتِ؟!" (لو١٤: ٥). وقال أيضًا: "أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ يَكُونُ لَهُ خَرُوفٌ وَاحِدٌ، فَإِنْ سَقَطَ هذَا فِي السَّبْتِ فِي حُفْرَةٍ، أَفَمَا يُمْسِكُهُ وَيُقِيمُهُ؟!" (مت١٢: ١١). وقال كذلك لمن لامه على إبراء المرأة المنحنية في يوم السبت: "يَا مُرَائِي! أَلاَ يَحُلُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ثَوْرَهُ أَوْ حِمَارَهُ مِنَ الْمِذْوَدِ وَيَمْضِي بِهِ وَيَسْقِيهِ؟" (لو١٣: ١٥).

هكذا جعل إنقاذ أو إطعام ثور أو حمار أو خروف استثناءً واجبًا من وصية عدم العمل في السبت.

ومن شفقته على الحيوان أيضًا قال: "لاَ تَطْبُخْ جَدْيًا بِلَبَنِ أُمِّهِ" (خر٢٣: ١٩؛ ثت١٤: ٢١) وقال أيضًا: "لاَ تَكُمَّ ثَوْرًا دَارِسًا" (١كو٩: ٩). وحتى الآن الثور أثناء الدراسة لا يكمم، بل يمد فمه ويأكل كيفما يشاء، ومن اهتمام الله بالعطف على الحيوان، قال أيضًا:

"لاَ تَحْرُثْ عَلَى ثَوْرٍ وَحِمَارٍ مَعًا" (تث٢٢: ١٠).

ذلك لأنهما ليسا بقوة واحدة فإن أسرع الثور سيرهق الحمار والله يشفق على هذا الحمار من الإرهاق. وهكذا عندما دخل السيد المسيح إلى أورشليم ركب على أتان وجحش ابن أتان (مت٢١: ٥) حتى يريحهما في الطريق، إذ يستبدلهما، فيركب على الواحد ويريح الآخر. وظهرت شفقة الرب على الحيوان بإشفاقه على حمار بلعام وتوبيخه بلعام على ضرب حماره ظلمًا (عد٢٢: ٣٢).

*****

وظهرت شفقة الرب حتى على العصافير: يحميها ويقيتها.

وهكذا يقول: "أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ" (مت١٠: ٢٩) أي بدون سماح منه لا يسقط عصفور... ويقول أيضًا: "اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا" (مت٦: ٢٦) وليست هي فقط بل يقول المزمور:

"يُعْطِي البَهائِمَ طَعامَها ولِفِراخِ الغِرْبانِ الَّتي تَدْعوهُ" (مز١٤٧: ٩).

حتى فراخ الغربان يا رب؟! نعم. فالغربان أيضًا ذكرها الكتاب وكانت لها رسالة! إيليا النبي في وقت المجاعة، كانت الغربان تأتيه بطعام. (١مل١٧: ٤- ٦). وهكذا كان يحدث مع الأنبا بولا السائح، وكما اهتم الرب بالطيور، والعصافير والبهائم "اهتم أيضًا بالخروف الضال وبحث عنه حتى وجده" (لو١٥).

واهتم الله بالحيوانات وبالطيور في فلك أبينا نوح!

ادخلها جميعها في الفلك، ولم يهمل أحدًا منها حتى الحشرات والهوام، استبقى لها حياة لتعيش، وكان أبونا نوح يقدم لها الطعام كل يوم... إن في ذلك لعجبًا... أقصد هذا

العطف العجيب.

*****

وكما يشفق الله على الحيوان فيمنحه حماية من الطبيعة ومن الافتراس.

الدب القطبي، أو الثعلب القطبي، يعيش الواحد منهما في جو بارد جدًا، لذلك يمنحه الله فراءً ثمينًا لتدفئته، تشتهيه النساء الثريات، وتدفع في شرائه ثمنًا وفيرًا، أما حيوانات البلاد الحارة فلا تحتاج إلى فراء فيعفيها الرب منه... ولأن الجمل يعيش في الصحراء، لذلك يعطيه الله قوة عجيبة يتحمل بها العطش والجوع، ويعطي نفس القوة على الاحتمال للنخلة في الصحراء.

*****

وكما يعطي الحيوانات المفترسة مخالب وأنياب لتعيش، كذلك يعطي الحيوانات الضعيفة وسيلة للهرب.

الأسد أقوى من الغزال، يستطيع أن يفترسه. ولكن الرب يعطي الغزال قوة عجيبة في الجري، يمكنه أن يهرب من الأسد. كذلك الكلب يستطيع أن يفترس القط. ولكن الرب يعطي القط القدرة التي يمكنه بها القفز على الأشجار والجدران فينجو من الكلب... وبنفس الطريقة يعطي العصافير خاصية الطيران فتنجو، كما يعطي الفأر القدرة على الحفر والاختباء، فينجو... ما أعجب شفقة الله.

*****

انظروا جمال الصوت الذي يعطيه الرب للبلابل وللطيور المغردة... انظروا جمال الشكل الذي يعطيه الرب للطاووس، بل للفراشة، انظروا جمال الرائحة التي يعطيها الرب للورود والفل والياسمين، والأزهار العطرة. تأملوا القدرات العجيبة التي يعطيها الله للنحلة

في صنع بيوتها بهندسة دقيقة، وفي صنع الشهد من الرحيق، بل في صنع غذاء الملكات، كل ذلك الذي يأخذ البشر منها طعامًا ودواءً... بل تأملوا النملة في نشاطها وحركتها الدائبة... إن الله يعطي خليقته من هذه الصفات ما يكون أمثولة أمام الإنسان يشتهي أن يحاكيها.

وإن كان هذا عطف الله على مخلوقاته، فكم بالأولى على الإنسان.

حنو الله الفائق على الإنسان

يكفي أن الله أوجده بطبيعة ممتازة: له عقل وروح وإرادة.

له العقل الذي استطاع أن يصل إلى الاختراع، ويصنع الأقمار الصناعية وسفن الفضاء ويصل إلى القمر، ويمشي في الجو في مناطق انعدام الوزن... وأعطاه الإرادة الحرة التي يمكنه بها أن يفعل ما يشاء... وأعطاه الذكاء لكي يفهم... ولم يشأ الله أن ينزع الذكاء حتى من الأشرار الذين يعصونه... وفوق المواهب الطبيعية، أعطى الله لبعض البشر مواهب فائقة للطبيعة وقدرة على صنع المعجزات، بقوة منه... ما أعجب ما قيل إن الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله (تك١).

*****

ومنح الله للإنسان الخلود والحياة الأبدية.

منحه أن تكون له حياة دائمة في ملكوته بعد قيامة الجسد من الموت، ووعده بالنعيم الأبدي في عشرة الله وملائكته، في أورشليم السمائية "مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ" (رؤ٢١: ٣). وقال للأبرار: "حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا" (يو١٤: ٣). بل وعد الذين يحبونه بأن يتمتعوا بحياة عجيبة في الأبدية، يكفي أنها قيل عنها: "مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ" (١كو٢: ٩).

*****

ومن محبة الله للبشر أنه دعاهم أبناءه:

وفي هذا يقول القديس يوحنا الرسول: "اُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ!" (١يو٣: ١). وأعطانا أن نصلي له قائلين: "أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت٦: ٩). بل إنه يقول: "لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيدًا... لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ" (يو١٥: ١٥).

وهكذا جعل الله الرابطة التي تربطنا به هي رابطة الحب.

وقيل إنه: "أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى" (يو١٣: ١). وشبه هذا الحب بمحبة الآب لبنيه، وهكذا قال داود النبي في المزمور: "كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ" (مز١٠٣: ١٣) بل وصل الحب إلى أن لقبنا الله بعروس له، ووصف حبه لنا بطريقة رمزية في سفر نشيد الأناشيد.

*****

ووصلت محبة الله للإنسان إلى حد البذل والفداء...

"هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو٣: ١٦). وقال السيد المسيح: "أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ"، "لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ" (يو١٥: ١٤، ١٣). وبسبب هذا الحب والبذل والفداء، كان التجسد وإخلاء الذات (في٢: ٧). وقيل عنه في فدائه لنا: "كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا" (إش٥٣: ٦).

*****

ومن محبة الله لنا... أعطانا طريق التوبة لمغفرة الخطايا.

فلم يمسكنا في خطايانا ليعاقبنا عليها، إنما فتح لنا طريقًا للخلاص بالتوبة. وقيل في الكتاب: إن "أَعْطَى اللهُ الأُمَمَ أَيْضًا التَّوْبَةَ لِلْحَيَاةِ" (أع١١: ١٨). بل قال أيضًا: "هكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ (لو١٥: ٧) ... إن "الله يتوبنا فنتوب" (إر٣١: ١٨). بل "يَقُودُنَا فِي مَوْكِبِ نُصْرَتِهِ" (٢كو٢: ١٤).

*****

ومن عطف الله على الإنسان أنه منحه الوحي الإلهي.

وهكذا "اَللهُ... كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُق كَثِيرَةٍ" (عب١: ١) ومنح البشرية وصاياه وتكلم مع موسى النبي فمًا لأذن كما تكلم أيضًا مع إبراهيم... وأعطانا الله الشريعة المكتوبة بها "تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (٢بط١: ٢١). وهكذا علمنا الرب طرقه، وفهمنها سبله وأنار بصائرنا حتى لا نضل الطريق.

*****

بل جعل الله روحه فينا.. وجعلنا مسكنًا لروحه القدوس.

وفي هذا يقول القديس بولس الرسول: "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟" (١كو٣: ١٦). وبحلول روح الله على الناس وفي الناس صار روح الله يعمل فيهم، وصارت لهم ثمار الروح (غلا٥: ٢٢، ٢٣). وصارت لهم أيضًا مواهب الروح المتعددة (١كو١٢)، والدخول في شركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤) بل صاروا "شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ" (٢بط١: ٤) أي يشتركون معها في عمل الخلاص... شركاء في العمل، وليس في الجوهر أو الطبيعة طبعًا.

*****

ومن عطف الله على الإنسان أن منحه البركة والنعمة.

وبركات الله لا تحصى، أما نعمته فهي موضوع طويل، قد أحدثكم عنه باستفاضة فيما بعد. وبدأت بركة الله للإنسان منذ أن خلقه، وتتابعت البركة على الآباء والأبرار، بل قيل لأبينا إبراهيم "أُبَارِكَكَ... وَتَكُونَ بَرَكَةً" (تك١٢: ٢) وهكذا سمعنا عن البركة التي منحها الآباء لأبنائهم...

*****

ومن عطف الله على الإنسان الحفظ والتدبير وخدمة الملائكة.

جميل ومعز ما قيل عن الملائكة: "أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!" (عب١: ١٤). وعمل الملائكة في إنقاذ البشرية وفي تبشيرهم لا يدخل تحت حصر... ومن عطف الله علينا أننا سنصير "كَمَلاَئِكَةِ اللهِ فِي السَّمَاءِ" (مت٢٢: ٣٠). وتسمى بعض البشر ملائكة (رؤ٢، ٣) مثل يوحنا المعمدان (مر١: ٢) وما أجمل ما يقال عن الملاك الحارس.

*****

ومن عطف الله أنه معنا في التجارب.

لا يجربنا فوق ما نطيق، ويعطي مع التجربة الاحتمال، ويعطي معها المنفذ، وأكاليل وبركات. المهم أن نقابل محبة الله وعطفه، بمحبة، ولا يقودنا عطفه إلى اللامبالاة.

❁❁❁

الفصل السابع

أحفظك حيثما تذهب

وأردك إلى هذه الأرض (تك٢٨: ١٥)

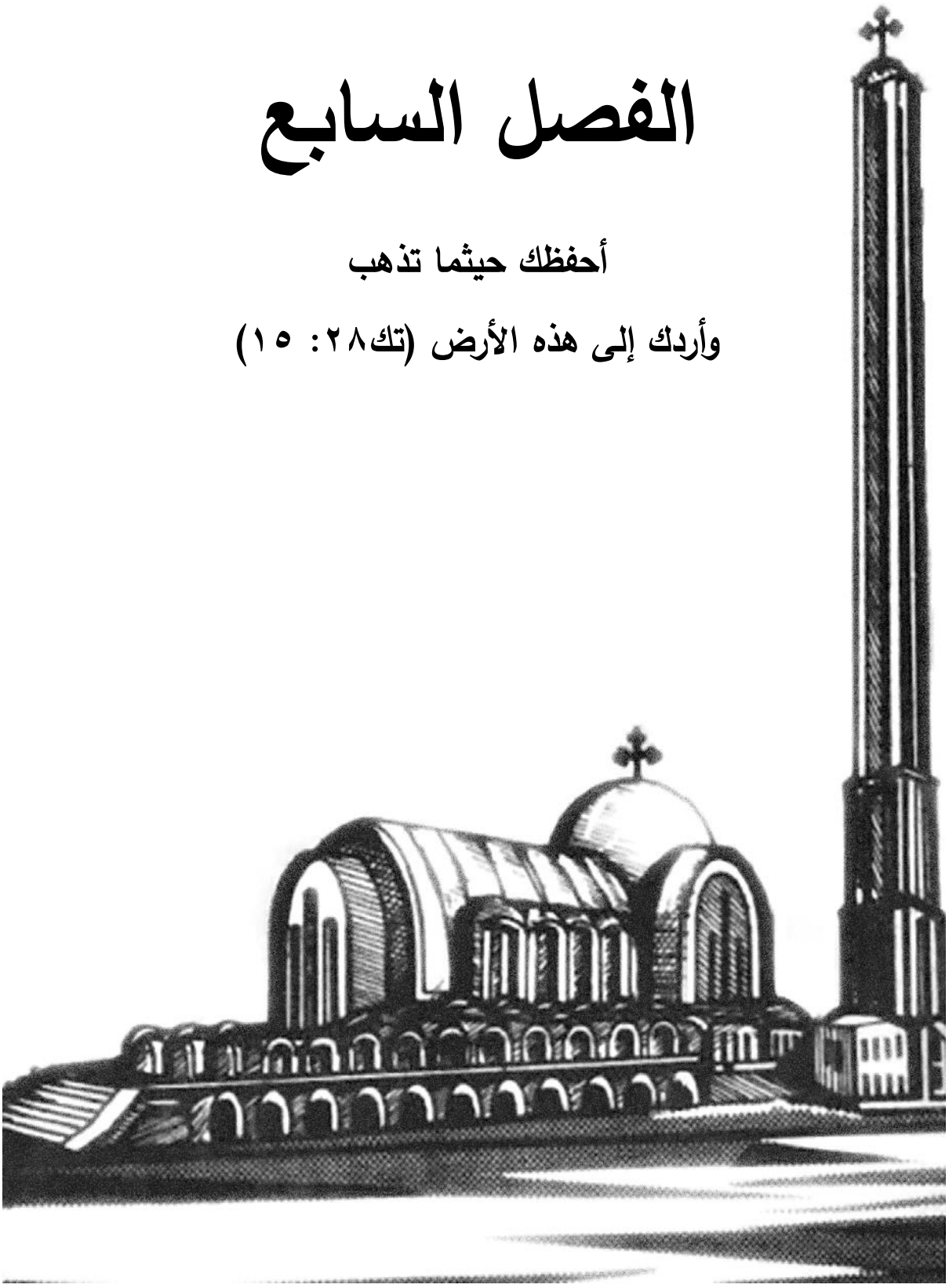

أحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض[4]

(تك٢٨: ١٥)

أريد أن أقرأ لكم عبارة قالها الرب لأبينا يعقوب أبي الآباء ونأخذها مجالًا لتأملنا... قال له الرب:

"وَهَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ".

"وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

"لأَنِّي لاَ أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ" (تك٢٨: ١٥).

******

مَن ردهم الرب إلى أرضهم؟

يعقوب أبو الآباء، كان خارجًا من بيت أبيه، خائفًا من أخيه عيسو. وكان سائرًا في الطريق، ولا يعرف ماذا ينتظره. كل ما كان يعرفه، أنه وضع أمامه نصيحة أمه رفقة التي قالت له: "هُوَذَا عِيسُو أَخُوكَ مُتَسَلّ مِنْ جِهَتِكَ بِأَنَّهُ يَقْتُلُكَ... قُمِ اهْرُبْ إِلَى أَخِي لاَبَانَ إِلَى حَارَانَ، وَأَقِمْ عِنْدَهُ أَيَّامًا قَلِيلَةً حَتَّى يَرْتَدَّ سُخْطَ أَخِيكَ. حَتَّى يَرْتَدَّ غَضَبُ أَخِيكَ عَنْكَ..." (تك٢٧: ٤٢- ٤٥).

وفيما هو هارب من أخيه المزمع أن يقتله، طمأنه الرب بقوله: "وَهَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

إنه حنو من الحفظ الإلهي.

إلهنا الحنون الطيب، يرافق إنسانًا في هربه، ليحفظه، حيثما يذهب، ويكون معه،

---

[4] ألقيت هذه المحاضرة في الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ٣ يونيو ١٩٧٧م

ويرده إلى أرضه.

ويظهر حنو الله وحفظه في هذه القصة، مما يأتي:

كان عمل الله رجاءً مقدمًا لإنسان ضعيف عاجز:

• فأبونا يعقوب ما كان قادرًا أن يحمي نفسه.

• وكان أضعف من عيسو بكثير، وعدوه كان قادرًا على قتله.

• وما كان يعقوب قادرًا أن يحفظ نفسه في الطريق، ولا أن يرجع بقوته إلى تلك الأرض... وهنا تدخل الله، إله الضعفاء، ليحفظ ويحمي ويرد...

هناك عمل إلهي في حياة كل إنسان.

عمل إلهي مصحوب بمواعيد، تعطي رجاء للنفس المتعبة.

وسنحاول أن نتتبع أمثلة لهذا العمل الإلهي، وهذا الحفظ الإلهي، كما يبدو في قصص الكتاب المقدس.

******

* حينما أُخذ شعب الله مسبيًا إلى بابل وإلى آشور، وكانوا هناك مستعبدين، أسرى حرب، عاجزين عن حماية أنفسهم... وقد ملكتهم الكآبة، وعلقوا قيثاراتهم على أشجار الصفصاف، ورددوا قول المزمور: "عَلَى أَنْهارِ بابِلَ هُناكَ جَلَسْنا، بَكَيْنا عِنْدَما تَذَكَّرْنا صِهْيونَ" (مز ١٣٧: ١).

هنا تدخل الله، وهمس في أذن الشعب بكلمة رجاء، قال له فيها: "هَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ"... وقد كان:

عادوا من السبي، وبنوا أسوار أورشليم المهدمة، وأصلحوا أبوابها المحروقة بالنار، وردهم الرب إلى تلك الأرض...

وقد شرح نحيما في فرح عظيم قصة هذا الرجوع، وعمل الله معه فيه. وكما نفذ الله وعده لفرد واحد هو يعقوب، نفذ أيضًا نفس الوعد لشعب بأكمله...

******

*** هناك شخص آخر، كانت حالته أسوأ... هو أبونا آدم:**

أخطأ أبونا آدم وكسر الوصية. وطرده الرب من الجنة. وقال له بالتعب تأكل من الأرض كل أيامك. ووضع الرب الكاروبيم بلهيب سيف متقلب لحماية شجرة الحياة، حتى لا يأكل منها آدم ولا حواء. وأغلقت أبواب الفردوس أمامهما (تك٣) ... وماذا بعد...؟

وسط كل هذا التعب، ومع هذه العقوبة وهذا الطرد، كان نفس الوعد الإلهي مقدمًا لأبينا آدم "هَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

ومتى رده الرب إلى الفردوس؟ كان ذلك بعد أكثر من خمسة آلاف سنة؟ ليكن...

إن وعد الله قائم، مهما طالت الأيام عليه...

لقد مرت آلاف السنوات، انقضت واختفت. ولكن لم تمر أبدًا ولم تختفِ عن نظر أحد من الآباء، تلك العبارة المعزية: "هَا أَنَا مَعَكَ... وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

ورقدوا جميعهم على رجاء...

يرتل كل منهم عبارة المزمور: "وَأَنَا أومِنُ أَنِّي أُعايِنُ خَيْرات الرَّبِّ في أَرْض الأَحْياءِ. انْتَظِرِ الرَّبّ..." (مز٢٧: ١٣، ١٤).

إن عقوبة الله لم تستمر... الله لا يغضب إلى الأبد، "وَلاَ يَحْقِدُ إِلَى الدَّهْرِ" (مز١٠٣: ٩). لقد طرد آدم لأنه أخطأ. ولكنه مع الطرد، أعطاه الوعد بالخلاص.

وعندما سُمر ربنا يسوع المسيح على الصليب، وحمل جميع خطايانا، ودفع الثمن

كاملًا للعدل الإلهي، ماذا حدث؟

فتح الرب أبواب الفردوس، ورد آدم إلى تلك الأرض.

ورد معه جميع بنيه، الذين رقدوا على رجاء، وكذلك اللص اليمين الذي مات على رجاء الوعد الإلهي "الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ" (لو٢٣: ٤٣). ونحن نسبح الرب ونقول له:

صادقة يا رب هي مواعيدك. وحقيقي كل رجاء تقدمه.

حينما تقول لأحد: "أردك إلى هذه الأرض، لا بد أن ترده فعلًا".

يعقوب أبو الآباء، مرت عشرون سنة، ورددته إلى أرضه. والشعب المسبي، مرت سبعون سنة ورددته. وأبونا آدم مرت أكثر من ٥٠٠٠ سنة ورددته إلى الفردوس.

مواعيد الله لا بد أن تنفذ. لا يهم بعد عشرين سنة، أو سبعين، أو خمسة آلاف.

المهم أن يحقق الله وعده، في الموعد الذي يحدده وفي محبة وقوة، يرد تلك النفس التي وعدها وهنا تظهر قوة العمل الإلهي في حياة الفرد، أو الجماعة.

ونلاحظ ملاحظتين في هذه الأمثلة الثلاثة التي ذكرناها.

هذه الأمثلة الثلاثة تدور حول نفوس كانت عاجزة، وأيضًا خاطئة.

لا شك أن أبانا يعقوب كان عاجزًا عن رد نفسه إلى أرضه. وكذلك الشعب في السبي. وأيضًا آدم كان في عجز مطلق عن رد نفسه إلى الفردوس.

وهذه الأمثلة الثلاثة، تدور حول نفوس قد أخطأت إلى الرب، وبالتالي ما كانت مستحقة لوعوده.

آدم معروفة خطيته أو خطاياه العديدة[٥].

ويعقوب خدع أباه الضرير، وأخذ البركة بالغش والاحتيال، كما سبق أن أخذ البكورية من أخيه باستغلال إعياء أخيه في جوعه.

وشعب إسرائيل كان قد وقع في عبادة الأصنام، مع خطايا أخرى كثيرة جدًا أغضب بها الرب، حتى دفعه إلى أيدي أعدائه.

******

ولكن الله لا يعطي مواعيده وحفظه للأبرار فقط...

حتى الخطاة أيضًا، لا يسقطهم الرب من رعايته وحفظه...

ولو كان الخطاة محرومين من عناية الله، ما خلص أحد...

ولكن الرب جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك... وقد أعلن أن المرضى هم الذين يحتاجون إلى طبيب، وليس الأصحاء. وأنه جاء ليدعو الخطاة – وليس الأبرار – إلى التوبة.

*** ما أكثر وعود الرب للخطاة، بردهم إلى تلك الأرض...**

حتى في سقوط الإنسان وفي خطيئته، يقول له الرب: أنا معك، وأردك إلى هذه الأرض، أرض الأحياء.

الخروف الضال الذي خرج من الحظيرة وتاه، ولم يعرف يعيد نفسه إلى حظيرته، قال له الرب أيضًا: "لاَ تَخف، أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ". وفعلًا حمله على منكبيه فرحًا، وأعاده إلى حيث كان.

والدرهم المفقود أيضًا، ما كان بقدرته أن يرجع إلى جيب صاحبه أو صندوقه. ولكن

---

[٥] انظر كتابنا آدم وحواء

الرب كان معه، وحفظه ورده إلى تلك الأرض.

******

*** ولنا مثل آخر، في قصة يونان النبي:**

يونان بخطيئته ألقي في البحر، وبخطيئته ابتلعه الحوت... وظل في بطن الحوت.

من الذي يقدر أن يخرجه؟!

ولكنه في بطن الحوت، صلى إلى الرب، لكي يعود فيرى هيكل قدسه. ونظر الله إليه، وهو في جوف الحوت وقال له: لا تخف. هَا أَنَا مَعَكَ... وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ... وقد كان...

******

عجيب هو الله. كل شيء مستطاع عنده...

حتى ما يبدو مستحيلًا أو غير مستطاع، عند الناس...

* هل كان يجول في ذهن الثلاثة فتية، وهم يلقون في أتون النار، أنهم سيعودون مرة أخرى إلى بيوتهم؟!

ولكن في وسط النار، كان الرب يهمس في أذن كل واحد منهم "أَنَا مَعَكَ... وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

* ودانيال أيضًا، وهو في جب الأسود، ملقى في وسط الأسود الجائعة، يقول له الرب نفس العبارة...

وفعلًا، أخرج الله دانيال سالمًا من الجب.

وأخرج الثلاثة فتية من أتون النار.

كما سبق وأخرج يونان من جوف الحوت وردهم جميعًا.

حقًا عجيب هو الرب! عجيب في محبته، وفي حفظه، وعجيب في عمله الإلهي! عجيب في كل مرة قال فيها لأحد أحبائه: أَنَا مَعَكَ... وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ.

******

٢- من ردهم إلى أرض الأحياء بالتوبة

*** على أن هذه العبارة، يمكن أن تؤخذ بطريقة روحية أخرى. ولنبدأ ببطرس الرسول كمثال.**

إنه بعد أن أنكر السيد المسيح، بكى بكاءً مرًا، إذ شعر أنه قد انفصل عن الرب وعن محبته. وانفصل عن باقي الرسل، وعن الخدمة وكل العمل الرعوي.

ولا شك أنه قد رنت في أذنيه عبارة الرب "مَنْ أَنْكَرَنِي قُدَّامَ النَّاسِ، يُنْكَرُ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (لو١٢: ٩).

ولكن الرب عزاه بنفس العبارة، التي سبق فعزى بها أبانا يعقوب "أنا معك وأردك..". ولكن كيف رده الرب، ومتى؟ حينما ظهر له، وقال له في حنو: "ارْعَ غَنَمِي... ارْعَ خِرَافِي" (يو٢١: ١٦، ١٥) ... حينئذ شعر بطرس أن الرب قد رده إلى جماعة الرسل...

******

*** وداود النبي، حينما زنى وقتل، وسقط من ذلك العلو العظيم الذي كان فيه.** ولعله كانت في فكره عبارة أوريجانوس [أيها البرج العالي، كيف سقطت؟!].

وبكى داود بكاءً شديدًا مستمرًا، وفي كل ليلة كان يبلل فراشه بدموعه، ولكن إلهنا الحنون الطيب، لم يتركه وحيدًا في أحزانه، بل قال له: "أنا معك، وأردك إلى تلك الأرض"..

أردك إلى أرض التوبة والنقاوة، والمصالحة مع الله.

واستطاع الرب أن يرد داود، وأن يغسله فيبيض أكثر من الثلج، وأن يرد له بهجة خلاصه (مز ٥١: ١٢).

******

وبنفس الوضع رد الرب شمشون بعد سقوطه...

ولعله بنفس الوضع أيضًا رد سليمان بن داود، الذي قال له عنه: "إِنْ تَعَوَّجَ أُؤَدِّبْهُ... وَلكِنَّ رَحْمَتِي لاَ تُنْزَعُ مِنْهُ كَمَا نَزَعْتُهَا مِنْ شَاوُلَ" (٢صم٧: ١٤، ١٥).

لقد مر وقت على داود، ظن أنه لا خلاص...

وهكذا صرخ إلى الرب قائلًا: "يَا رَبُّ لمَاذَا كَثُرَ الَّذِينَ يُحْزِنُونَنِي. كَثِيرُونَ قَامُوا عَلَيَّ. كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِي: لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلَهِهِ" (مز ٣: ١، ٢).

ووسط هذه الأفكار التي يزرعها الشياطين، تبدو وعود الرب مملوءة رجاء "أَنَا مَعَكَ... وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

******

هذه العبارة هي أقوى سلاح في التوبة والرجوع...

فمشكلة كثيرين أنهم يظنون بأنهم سيعودون إلى الله، بقوة إرادتهم، وبعزيمتهم، وبصدق عزمهم على الرجوع، دون أن يضعوا العامل الإلهي في قصة عودتهم إلى الله!!

كلا، صدقوني... فلو كان الإنسان الخاطئ هو الذي يعيد نفسه إلى الله، ما عاد أحد.

إنما الإنسان يصرخ إلى الله: "تَوِّبْنِي فَأَتُوبَ" (إر ٣١: ١٨)، "خَلِّصْنِي فَأُخَلَّصَ" (إر ١٧: ١٤). والسيد المسيح يقول في وضوح "بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا"

(يو١٥: ٥).

إن النفس الميالة إلى الخطية، وكذلك الإرادة الضعيفة، وحروب الشياطين والمعطلات الروحية... كل هذه تصدّ الإنسان، وتحاول منعه عن الرجوع إلى الله. ولكن نعمة الله تقف أمام هذه المعطلات. وصوت الرب يقول في حنو للخاطئ: "لا تخف. أنا معك. أحفظك... وأردك إلى تلك الأرض".

أنا أردك إلى تلك الأرض، مهما بعدت أنت وضللت.

ومهما كان يبدو لك أو لغيرك، أن الخلاص بعيد عنك أو مستحيل، أو أن التوبة غير ممكنة.

أنا معك، عندما يحاربك الشيطان باليأس...

حينما يحاربك عدو الخير، ويقول لك: إن الخطية لم تعد مجرد عادة عندك، بل صارت طبيعة فيك. ولن تقدر على تركها. لقد صارت ملتصقة بك. أكثر من التصاق جلدك بلحمك. وصارت تسري فيك أكثر من سريان دمك في عروقك!!

لا تخف منه ومن أفكاره، بل قل له في ثقة:

أنا لن أرجع إلى الله وحدي، أو بقوتي.

هو الله الذي سيردني إليه، الله الذي قال:

"أنا معك. وأحفظك. وأردك إلى تلك الأرض".

ما دام الله هو الذي يردني، إذًا فغير المستطاع عند الناس، هو مستطاع عند الله (مر١٠: ٢٧).

إن الله يقول لنا في وعوده:

"أُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ

وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ. وَأَجْعَلُ رُوحِي فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَجْعَلُكُمْ تَسْلُكُونَ فِي فَرَائِضِي، وَتَحْفَظُونَ أَحْكَامِي" (حز٣٦: ٢٦، ٢٧).

ويقول أيضًا: "هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ" (إش١: ١٨).

إنه الرب الذي يعمل العمل كله، ويردنا إليه.

******

*** بأنواع وطرق شتى، يردنا الرب إلى أرضه:**

بالحب والحنان، يردنا الرب إلى تلك الأرض.

وإلا... فبالشدة والعقوبة يردنا، أو بالتجارب والضيقات.

أو بالتعليم والإرشاد... أو بصبره علينا وطول أناته.

بأية الطرق... بالوسيلة المناسبة لكل نفس على حدة...

المهم، أنه يخلص على كل حال قومًا. لأنه يريد أن الجميع يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون (١تي٢: ٤). وهو لا يُسَرُّ بموت الخاطئ، بل بالحري أن يرجع ويحيا (حز٣٣: ١١).

إنه الرب الراعي الشفوق، الذي يحافظ على غنمه...

هو الذي يحنن عليك قلوب الناس...

وهو الذي من أجلك يربط الشيطان، فلا يستطيع أن يؤذيك.

هو الذي يحوط حولك من كل ناحية، فتغني وتقول:

"سَبِّحي الرَّبَّ يا أورُشَليمَ، سَبِّحي إِلَهَكِ يا صِهْيونَ. لأَنَّهُ قَدْ قَوَّي مَغاليقَ أَبْوابِكِ، وبارَكَ بَنيكِ فيكِ. الَّذي جَعَل تُخومَكِ في سَلامٍ، وَيَمْلَأُكِ مِنْ شَحْم الْحِنْطَةِ" (مز١٤٧: ١- ٣)

الله هو الذي يقوي مغاليق أبوابك، ويجعل تخومك في سلام.

ضع أمامك باستمرار، عمل الله في حياتك، وليس عملك أنت.

ما هو عمل الله في حياتك؟ ماذا عن يد الله معك، يمين الله التي صنعت قوة، التي تمسك بك وتسندك...

ماذا يفعل الروح القدس من أجلك؟ وماذا تعمل قوة الله ونعمة ربنا يسوع المسيح من أجلك؟ ...

ماذا تفعل تشفعات الملائكة وصلوات القديسين من أجلك؟

أما عملك أنت، فله المكان الثاني، أو المكان الأخير...

أما المكان الأول، والمكانة الأولى، فلعمل الله، ولوعد الله القائل: أنا معك. أحفظك، وأردك إلى تلك الأرض.

******

*** يا ليت هذا الوعد الإلهي، يكون ثابتًا في ذاكرتنا:**

نضعه أمامنا باستمرار، فنتعزى ونتقوى...

كلما تيأس وتظن أنه لا خلاص، أو أنه لا فائدة من كل جهادك، تذكر هذه العبارة الإلهية.

كلما يضغط عليك الشيطان، ويقول أنت في قبضتي!

أو يقول لك: لن أتركك، لقد وقعت في يدي!

قل له: ما هي قبضتك؟ وما هي قوتك؟! "أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟!" (١كو١٥: ٥٥).

هناك الوعد الإلهي: "أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب".

حسن يا رب قولك. ولكن ماذا عن عيسو أخي؟

عيسو الشديد القاسي الذي يتهددني، الذي قال في غضبه أقوم "فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي"؟ يرد الرب ويقول:

"لا تخف. أنا معك. أحفظك حيثما تذهب".

مبارك أنت يا رب، ومبارك هو حنوك. ليكن لي كقولك.

******

ولتكن قويًا من الداخل، مهما أطبقت حولك الضيقات...

مهما تآمر عليك الأشرار، وماجت حولك المياه الكثيرة...

مهما "تَفَكَّرَتْ الشُّعُوبُ فِي الْبَاطِلِ"... "وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ"، قائلين: "لِنَقْطَعْ أَغْلاَلَهُمَا وَلْنَطْرَحْ عَنَّا نِيرَهُمَا" (مز٢: ١- ٣).

لا تلتفت إلى كل هذا، بل ضع أمامك الوعد الإلهي: "أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ"...

حقًا، ما دمت أنت يا رب معي، فالدنيا بأسرها كلا شيء قدامي...

هذه الدنيا كلها، كقبض الريح، كالهباء، بكل ما فيها من مؤامرات الناس الأشرار، وكل الهياج، وصوت المياه الكثيرة...

بما فيها من مكر لابان خالي، الذي "غَيَّرَ أُجْرَتِي عَشَرَ مَرَّاتٍ" (تك٣١: ٧). وأعطاني ليئة بدلًا من راحيل (تك٢٩) ...

ما دام وعدك يا رب قائمًا أمامي، فلن أخاف البحر الأحمر إن اعترض سبيلي. أنت قادر أن تشقه، وتمهد لي طريقًا في داخله، وتقول لي: امش فيه، وأنا معك، أحفظك حيثما تذهب...

حتى إن وقف أمامي جليات الجبار، وعيرني طول النهار، وهددني برمحه الذي مثل نول النساجين، وبسيفه وقوته وشماتته.. أقول له: أنت تأتيني بسيف ورمح. ولكن الحرب للرب، فأنا لذلك آتيك ومعي الوعد الإلهي القائل: "أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" ...

******

لهذا كله، كان أولاد الله دائمًا فرحين ومطمئنين.

عاشوا بقلب مطمئن في جهادهم الروحي، وفي كل الحروب الروحية. ولم يتعبوا من حروب الشياطين، ومن صراعهم مع أجناد الشر، وقوات هذا العالم المظلم. بل تركوا العالم يضطرب حولهم كما يشاء، وتمسكوا بالوعد الإلهي المملوء رجاء وعزاء.

وأنت كذلك في كل حروبك الروحية، وفي كل ضيقاتك ومشاكلك، لا تنظر إلى القوى الخارجية التي تحاربك، ولا تفكر مَنْ سيقابلك في الطريق ويعترضك. بل ركز فكرك ومشاعرك في وعود الله، التي تشجعك وتسندك وتعزيك.

كم أنت حنون يا إلهي وطيب...

وكم هي معزية، وعودك التي ترافق أولادك طوال مسيرتهم في غربة هذه الحياة... كم أنت تعمل، وقوتك الحافظة تعمل...

مفرحة هي أقوالك، التي تشجع بها أولادك...

لقد كثر الأعداء حول داود النبي، حتى قال ذات مرة "أَكْثَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ" (مز ٦٩: ٤). ومع ذلك نراه في كل ضيقاته، ومع كثرة أعدائه، ينسى كل هذا ويقول للرب: "شِهاداتكَ هي دَرسي"، "ناموسكَ هو تِلاوَتي" (مز ١١٩: ٩٩، ١٧٤).

أية شهادات يا داود، تعزيك في كل ضيقاتك؟

يجيب: إنها كثيرة جدًا، ولكن تكفيني منها واحدة، وهي قول الرب: "أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ".

لست أريد سوى هذه العبارة. وما دمت معي أيها الرب الإله، وما دامت وعودك في فكري، فلن أخاف شرًا، حتى إن "سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ... لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي" (مز٢٣: ٤).

ستجدني كلي شجاعة وإيمان، ورجاء، بوعدك الإلهي...

حقًا يا رب أنك عجيب. وحسن قولك لمنوح والد شمشون:

" لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي وَهُوَ عَجِيبٌ؟" (قض١٣: ١٨).

إنه منظر عجيب حقًا، أن نرى أولاد الله سائرين في طريق الحياة، ونرى الله ممسكًا بيد كلٍ منهم، يقول له وهو يشجعه: ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب...

******

إن قوة المسيحية، في أنها لا تعتمد على بشرية أو إنسانية أو ذاتية، إنما تعتمد على الوعد الإلهي: أنا معك، وأحفظك...

أحفظك من الشياطين، ومن الناس الأشرار.

وأحفظك من نفسك...

أحفظك من كل سوء. أحفظ نفسك. أحفظ دخولك وخروجك (مز ١٢١: ٧، ٨). "يَسْقطُ عَنْ يَسارِكَ أُلوفٌ وعَنْ يَمينكَ رِبْواتٌ، وأمّا أنْتَ فَلا يقْتَربُ إليْكَ (مز ٩١: ٧) "فَلا تَخْشَى مِنْ خَوْفِ اللَّيْلِ ولا مِنْ سَهْمٍ يَطيرُ في النَّهار. ولا مِنْ أمْرٍ يسْلكُ في الظُّلمَةِ" (مز ٩١: ٥، ٦).

وإن سرت في وادي ظل الموت، لا تخاف شرًا.

لماذا؟

لأني أنا معك – بعد الموت – أحفظك حيثما تذهب – وأردك إلى هذه الأرض..

هنا ونتأمل:

******

٣- أردكم إلى الأرض الجديدة

إننا من عند الله خرجنا. نفخة قدسية خرجنا من فمه الإلهي، ودخلنا في هذا التراب، وعشنا فيه زمنًا.

وجودنا في التراب، هو فترة غربة، يصرخ فيها المرتل قائلًا في المزمور: "وَيْلٌ لِي فإِنَّ غُرْبَتِي قَدْ طالَت عَلَّي" (مز ١٢٠: ٥).

وفيما نحن نعيش في هذا التراب، ونتعب من هذا الجسد الترابي، نصرخ مع القديس بولس الرسول: "مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟" (رو٧: ٢٤)، حينئذ يقول الله لكل منا "هَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ" (تك٢٨: ١٥).

وما هي هذه الأرض؟

يقول القديس يوحنا الرائي: "ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ" (رؤ٢١: ١).

وينظر الإنسان مبهورًا إلى هذه الأرض الجديدة، "الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ" (عب١١: ١٠) ... الأرض المقدسة، التي لا توجد فيها خطية ولا موت. و"لاَ تَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَلاَ إِلَى الْقَمَرِ لِيُضِيئَا فِيهَا، لأَنَّ مَجْدَ اللهِ قَدْ أَنَارَهَا" (رؤ٢١: ٢٣)

ويشير الله إلى هذه الأرض ويقول:

"هَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ" ليكن اسم الرب مباركًا، من الآن وإلى الأبد، آمين.

******

الفصل الثامن

دون أن نطلب

لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا.

(مت٦: ٣٢)

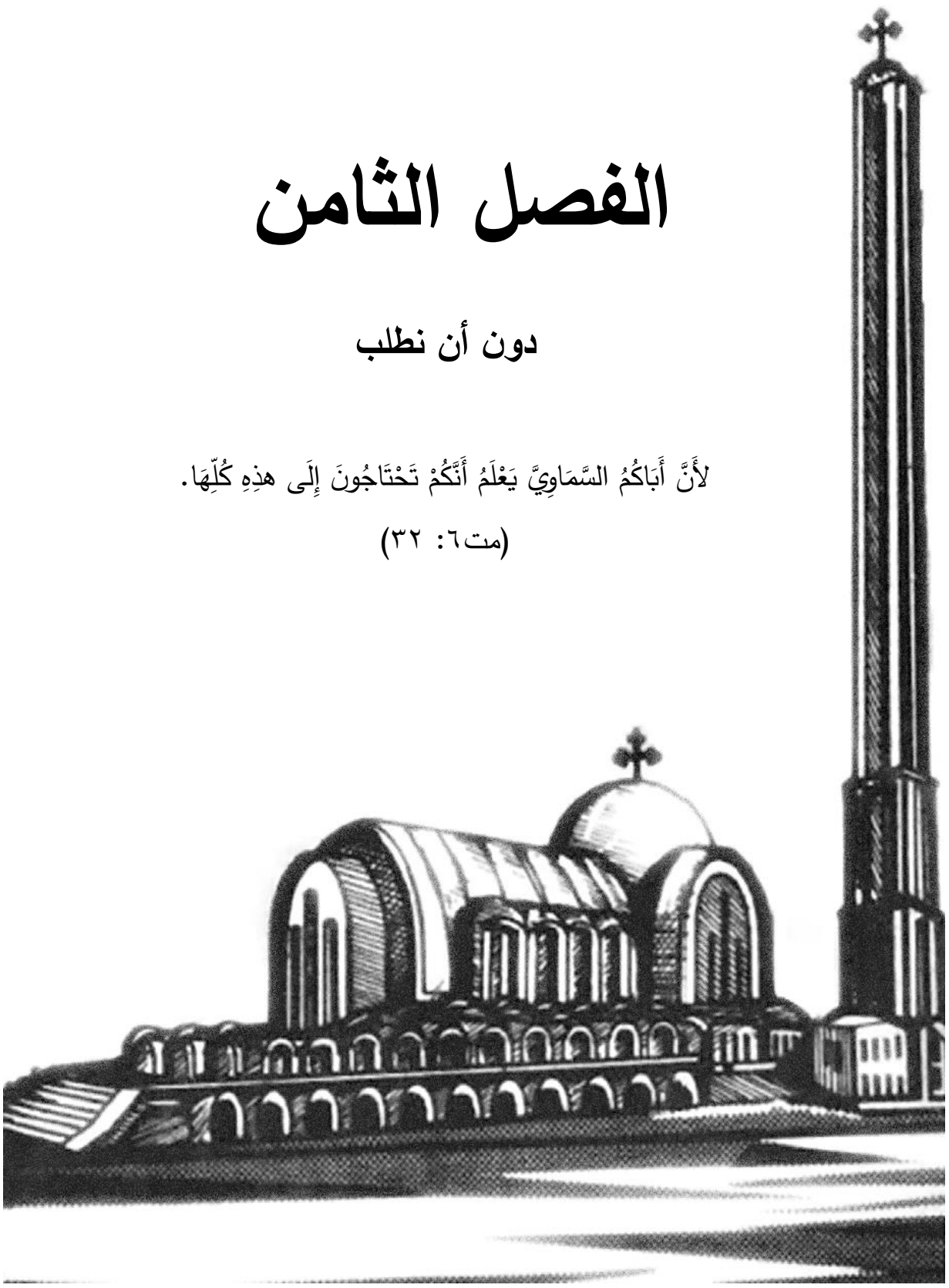

دون أن نطلب[٦]

دون أن نطلب

لعل أحدكم يقول: كيف يكون لي رجاء، وأنا لا أصلي، ولا أطلب من الله نعمة ولا قوة ولا ملكوت الله وبره؟ هل مثلي يكون له خلاص؟!

نعم، إن الخلاص للكل. وإن كنت أنت لا تطلب خلاصك، فإن السيد الرب قد قيل عنه إنه: "جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لو١٩: ١٠). إنه يسعى لخلاصك أكثر مما تسعى أنت إليه. وهو في كل مجال يعطينا دون أن نطلب.

إنه شيء مفرح أن يعطينا الله ما نطلب. ولكن عمق الفرح يظهر في أنه يعطينا دون أن نطلب...

هنا عمق المحبة الإلهية نحو البشر. بل هنا أبوة الله الحانية، التي تدرك تمامًا ما نحتاجه وما يلزمنا، فيعطينا من فيض محبته، وليس لمجرد استجابته لصلواتنا. وسأحاول يا إخوتي أن أثبت لكم هذه الحقيقة بأمثلة عديدة، حتى يكون لكم عمق الرجاء في عمل الله لأجلكم.

******

طبيعة الله الذي يعطي دون أن نطلب، ظهرت واضحة منذ البدء، من أول قصة الخليقة، بل في عملية الخلق ذاتها.

إنه منحنا الوجود دون أن نطلب. ومنح الوجود لكل الكائنات التي خلقها العاقلة والجامدة، التي لها حياة والتي ليس لها، طبعًا دون أن تطلب. لقد خلقها كلها من العدم.

---

[٦] ألقيت هذه المحاضرة في الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ١٤ نوفمبر ١٩٨٠م.

والعدم ليس له كيان لكي يطلب.

******

وخلقنا الله على صورته ومثاله دون أن نطلب...

حتى على فرض المستحيل، لو كانت لنا الإمكانية أن نطلب الصورة التي نُخلق عليها، ما كنا نطلب أن نُخلق على صورة الله ومثاله، كما شاء الله وتحنن (تك١: ٢٦، ٢٧).

******

ودون أن نطلب خلق الله لنا هذه الطبيعة وسلطنا عليها.

أعدَّ لنا كل شيء قبل أن نكون. بسط لنا السماء سقفًا، ومهد لنا الأرض كي نمشي عليها. وكما قال القديس غريغوريوس في قداسه: "لم تدعني معوزًا شيئًا من أعمال كرامتك... من أجلي ألجمت البحر. من أجلي أخضعت طبيعة الحيوان"... ومن أجلنا خلق الله الأشجار والأثمار، والعشب والبقول، والأزهار والأطيار. ومن أجلنا خلق النور، ووضع قوانين الفلك... كل ذلك دون أن نطلب...

ولم يكتف بهذا وإنما قال لنا في حنوه: "أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ" (تك١: ٢٨).

******

وخلق الله حواء لآدم دون أن يطلب...

كان يعلم أن آدم لا يجد له معينًا نظيره، مثلما تجد باقي الكائنات (تك٢: ٢٠). فخلق له حواء. وهكذا أمكن أن تنمو البشرية وتملأ الأرض وتعمرها، وكل ذلك دون أن

نطلب.

******

إن هذه هي طريقة الله كأب محب وكراعٍ صالح...

إنه لا ينتظر من أولاده ومن رعيته ومن خليقته أن يطلبوا فيعطيهم. بل هو من تلقاء ذاته يعرف ما يحتاجون إليه، فيعطيهم دون أن يطلبوا...

******

حقًا ماذا يدركه الطفل الصغير من احتياجاته حتى يطلبها؟!

ولكن أباه يعلم ويفهم ماذا يحتاج إليه ابنه، فيعطيه دون أن يطلب. هكذا نحن مع أبينا السماوي، إنه أدرى بما نحتاج إليه. وهو كأب حنون يدبر احتياج كل إنسان، ويدبر احتياجات الأمم والشعوب والجماعات. ولا ينتظر من كل هؤلاء حتى يطلبوا... وربما لا يطلبون ما يفيدهم وما يفيد غيرهم معهم!!

إن كان الكاهن العادي يفتقد رعيته، ويوفي احتياجاتها دون أن تطلب، فكم بالأولى الله رئيس الكهنة الأعظم وراعي الرعاة؟!

******

نعم كم بالأولى الله: "رَاعِي نُفُوسِنا وَأُسْقُفِهَا" (١بط٢: ٢٥) الذي قال في حنوه: "أَنَا أَرْعَى غَنَمِي وَأُرْبِضُهَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأَطْلُبُ الضَّالَّ، وَأَسْتَرِدُّ الْمَطْرُودَ، وَأَجْبِرُ الْكَسِيرَ، وَأَعْصِبُ الْجَرِيحَ" (حز٣٤: ١٥، ١٦).

إنه يرعى شعبه، لأن هذا هو عمله، وهذا هو حبه.

ولا ينتظر أن ينبهه أحد إلى هذا. إنما نحن نطلب، لأن هذا الطلب يشعرنا ببنوتنا لله، ويعمق الدالة بيننا وبينه، ويعطينا فرحًا داخليًا حينما تستجاب طلبتنا. ولهذا قال

الرب لتلاميذه:

"إِلَى الآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئًا بِاسْمِي. اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا، لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً" (يو١٦: ٢٤).

******

فرح الاستجابة أو فرح الدالة، هو الذي يجعلنا نطلب.

ولكن الله يمنحنا كل شيء، حتى دون أن نطلب.

وفي الكتاب المقدس توجد أمثلة عديدة، تثبت لنا هذه الحقيقة، فلنحاول أن نتأمل بعضها حتى يكون لنا من ذلك عزاء، وحتى يكون لنا رجاء باستمرار في الله الذي يعمل من أجل سعادتنا كأب وراعٍ وخالق...

******

لوط: أنقذه الله مرتين دون أن يطلب...

مرة حينما سُبي مع أهل سادوم في حرب أربعة ملوك مع خمسة ملوك التي وردت في (تك١٤) ودون أن يطلب لوط، حرك الله قلب أبرام عمه فجمع رجاله المدربين، وأنقذه من السبي، كما أنقذ أهله والمدينة كلها.

والمرة الثانية حينما قرر الله حرق سادوم. ودون أن يطلب لوط أرسل الله له ملاكين، فأخذاه هو وأسرته بقوة، وكانا يدفعانه إلى الخارج دفعًا وهو متوانٍ (تك١٩: ١٦). وذلك لشفقة الرب عليه ورغبته الإلهية في إنقاذه.

إن الله لا ينتظر حتى يصرخ الإنسان إليه، وإنما...

"مِنْ أَجْل شَقَاءِ المسَاكِين وتَنهُّدِ البَائِسينَ الآنَ أَقُومُ، يقُولُ الرَّبُّ، أَصْنَعُ الخَلاصَ عَلَانِيةً" (مز١٢: ٥).

لم يقل "من أجل صلواتهم وطلباتهم"، وإنما من أجل حالتهم التي رآها، من أجل

شقائهم وتنهدهم، يقوم الرب ويصنع الخلاص، سواء طلبوا أو لم يطلبوا...

وهكذا في كل مرة يرى فيها الله مذلة شعبه (خر٣: ٧)، يرسل لهم مخلصًا يخلصهم، كما فعل أيام موسى وأيام جدعون (قض٦).

وأنقذ إسحاق من الذبح، في اللحظة الأخيرة، والسكين فوق رقبته، دون أن يطلب (تك٢٢) ...

******

والله يشبع كل حي من رضاه، دون أن يطلب...

يرسل المطر والشمس، ويعطي الطعام لكل ذي جسد، حتى للملحدين الذين لا يطلبون منه شيئًا. ويعطي جمالًا لزنابق الحقل. إنه يمنح الكل من أجل جوده هو وخيريته، وليس بسبب استحقاق الناس ولا بسبب طلبهم...

ونذكر في هذا المجال بعض النعم العظيمة التي منحها الله:

٢- نعم الله العظيمة

خذوا مثالًا لذلك حبل السيدة العذراء بالله الكلمة.

هل تظنون أن العذراء كانت تطلب هذا الأمر؟! محال طبعًا! وما كان حتى يخطر بذهنها، بل قد تعجبت له وقالت للملاك: "كَيْفَ يَكُونُ هذَا؟!..." (لو١: ٣٤). ولكن الرب منحها هذه النعمة العظيمة، والقدير صنع بها عظائم (لو١: ٤٩) دون أن تطلب...

******

وعملية الفداء والخلاص على الصليب هل طلبها الإنسان؟!

إن أول وعد بالخلاص إنما منحه الله للإنسان دون أن يطلب، حينما قال: إن نسل

المرأة يسحق رأس الحية (تك٣: ١٥) ... والخلاص بهذا الشكل، ما كان يفكر أو يحلم به أحد.

هل كان أحد يفكر أن الله يتجسد من أجلنا، ويخلي ذاته، ويتألم ويموت على الصليب؟! إن بطرس الرسول لما سمع هذا الكلام من المسيح "وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ قَائِلاً: حَاشَاكَ يَا رَبُّ" (مت١٦: ٢٢). إذًا هذا الأمر ما كان يطلبه أحد. ولكن الله منحنا هذا الخلاص دون أن نطلب...

******

وتظهر نعمة الله العظيمة في رفع إيليا وأخنوخ إلى السماء.

هل كان أخنوخ يحلم أو يفكر في أن يكون أول إنسان يرفعه الله إلى السماء ويأخذه إليه؟! (تك٥: ٢٤). أو هل طلب إيليا أن يرفعه الله في مركبة نارية إلى السماء؟! (٢مل٢: ١١). إنها نعم لا تخطر على بال، ولذلك من المحال أن يطلبها إنسان. بل يعطيها الله لمن يشاء من أولاده دون أن يطلب...

******

ونفس الكلام نقوله أيضًا عن النعيم الأبدي.

هذا الذي يقول عنه الكتاب: "مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ" (١كو٢: ٩). وطبعًا من المستحيل أن يطلب أحد ما لم يخطر على بال إنسان.

إننا قد نطلب نعيمًا. ولكن هذه الصورة بالذات، هي شيء فوق ما نطلب، كل ما فيه من تفاصيل لم ترها عين ولم تسمع بها أذن، ننالها دون أن نطلب...

أكان بولس الرسول يطلب أن يصعد إلى السماء الثالثة...!

هذه التي رأى نفسه فيها، أفي الجسد ليس يعلم، أم خارج الجسد ليس يعلم... أو كان يطلب أن يسمع هناك "كَلِمَاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا، وَلاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا"...؟! (٢كو١٢: ٤) من يطلب هذا؟! لا أحد طبعًا.

ولكن الله في كل إعلاناته للبشر، يعطي دون أن نطلب...

٣- الرؤى والظهورات

كلها، قد منحها الله للناس دون أن يطلبوا...

أكان أبونا يعقوب يطلب أن يرى سلمًا واصلة بين السماء والأرض؟!

أو كان يطلب أن يرى ملائكة الله صاعدة ونازلة على هذا السلم، وصوت الله يناديه ويمنحه الطمأنينة والهدوء (تك٢٨: ١٢- ١٥) ... كل ذلك بعد أن خدع أباه وأخذ منه البركة بمكر...

أليس أن هذه الرؤيا جاءت ليعقوب دون أن يطلب؟!

******

وبنفس الوضع الرؤيا التي رآها القديس يوحنا في بطمس.

إنه لم يطلب مطلقًا في منفاه أن يرى المسيح، "وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا... وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ" بل أن يوحنا لم يحتمل هذا المنظر وسقط على الأرض كميت (رؤ١: ١٦، ١٤). وهو لم يطلب أن يرى السماء مفتوحة، ويرى عرش الله، والأربعة والعشرين كاهنًا، والأربعة حيوانات غير المتجسدين، والملائكة السبعة أصحاب الأبواق، وأصحاب الجامات، وكل ما هو عتيد أن يكون...

وكيف يطلب شيئًا من هذا، وهو لا يعلمه.

ونفس الكلام ينطبق على رؤى دانيال، ورؤى حزقيال، وباقي الرؤى وكل الأحلام

المقدسة، وكل النبوءات أيضًا.

كل ذلك كشف إلهي، أو إعلان إلهي، لا يعقل أن يطلبه أحد، لأنه طبعًا لا يعرفه ولا يدور بذهنه...

******

أحلام يوسف الصديق عن مستقبل حياته، ما كانت تدور بذهنه.

ما كان يجول بذهنه – وهو صغير إخوته – أن يأتي إليه إخوته ويسجدوا له، وكذلك أبواه. لذلك فالحلم الخاص بسجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا له، ما كان يطلبه. ولا الحلم الخاص بسجود حزم إخوته لحزمته (تك٣٧). إنها رئاسة يمنحه الله إياها، ويعلنه بها، دون أن يطلب.

ونفس الكلام نقوله عن موهبة يوسف في تفسير الأحلام.

ونقول هذا عن كل موهبة أخرى يمنحها الله لإنسان. مثل موهبة الموسيقى والمزامير التي وهبها الله لداود دون أن يطلب، ومثل موهبة القوة التي وهبها لشمشون دون أن يطلب. ومثل موهبة الجمال التي وهبها ليوسف (تك٣٩: ٦) ولموسى (أع٧: ٢٠) ولداود (١صم١٦: ١٢).

******

والأحلام المقدسة هي موهبة أخرى من الله لأسباب روحية.

بعضها للمعرفة والبعض للإنقاذ، أو للتعزية أو للبشارة...

حلم ليوسف النجار لينقذه والعائلة من سيف هيرودس (مت٢: ١٣). وحلم آخر للمجوس (مت٢: ١٢). وأحلام لفرعون مصر لكي يستعد للمجاعة المقبلة (تك٤١: ١٧– ٣٦). وحلم لأبيمالك لإنقاذ سارة زوجة إبراهيم (تك٢٠: ٣). وحلم لسليمان ليمنحه

الرب بركة (١مل٣: ٥). وحلم لنبوخذ نصر فسره له دانيال لكي يتضع ويتوب (دا٤: ٤– ٢٧). وأحلام البشارة كثيرة مثل الحلم الذي ظهر ليوسف النجار يبشره بميلاد المسيح.

كل هذه الأحلام منحها الله لأصحابها دون أن يطلبوا...

وقد قدم الله الرؤى والأحلام كموهبة من روحه القدوس، مثلها مثل النبوءة، وحينما قال في سفر يوئيل النبي: "أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَحْلَمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَمًا، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى" (يوء٢: ٢٨) وتكررت هذه العبارة في سفر أعمال الرسل (أع٢: ١٧).

******

النبوءات أيضًا منحها الله للأنبياء دون أن يطلبوا...

ومنحنا أيضًا هذه النبوءات لفائدتنا دون أن نطلب. وكل الذين أرسلهم الرب كأنبياء، ما كانوا يفكرون أنهم سيصيرون هكذا. وإنما في لحظة لا يعرفها أحد نسمع مثلًا أنه "كَانَتْ... كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى إِرْمِيَا النَّبِيِّ" (دا٩: ٢) أو صارت كلمة الرب لحزقيال (حز٣: ١٦) أو "كَلِمَةُ الرَّبِّ الَّتِي صَارَتْ إِلَى صَفَنْيَا" (صف١: ١)... كل ذلك دون أن يطلب واحد منهم...

واضح أن الرب يكلم البشر متى يشاء، دون أن يطلبوا...

إنه يقدم الحلم أو الرؤيا أو النبوءة، أو الموهبة، دون أن نطلب، وربما في وقت لا نتوقعه على الإطلاق.

وإن كان هذا بصفة عامة، فبالأكثر مواهب العهد الجديد...

٤ – مواهب العهد الجديد

إنها مواهب ما كان يحلم بها أحد، وليس فقط أن يطلبها. ولعل في مقدمة كل هذه المواهب:

التبرير، والتجديد، والتقديس. وكل ما نناله في المعمودية المقدسة. وكما قال بولس الرسول: "الَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا" (رو٨: ٣٠). بل إننا نقف مذهولين أمام قول هذا الرسول:

"لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ" (غل٣: ٢٧).

وقوله أيضًا إننا أعضاء جسد المسيح "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَجْسَادَكُمْ هِيَ أَعْضَاءُ الْمَسِيحِ" (١كو٦: ١٥). مَنْ ذا الذي يطلب، أو كان يفكر أن يطلب، أن يكون جسده هو أعضاء المسيح، أو أن يلبس المسيح؟! ولكن الله يهبنا دون أن نطلب.

******

بل مَنْ كان يطلب أن يكون جسده هو هيكل الروح القدس؟!

ولكن هوذا الرسول يؤكد لنا هذه الحقيقة (١كو٦: ١٩) ويكررها أيضًا قائلًا: "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟" (١كو٣: ١٦).

إنها حقًا هبة مقدسة معطاه لنا من الله، دون أن نطلب...

كذلك أعطانا أن نكون شركاء الروح القدس (٢كو١٣: ١٤) وشركاء الطبيعة الإلهية (٢بط١: ٤) في العمل. كل ذلك دون أن نطلب.

******

وموهبة أخرى أعطينا إياها أن نصير أولاد الله.

"انْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ!" (١يو٣: ١). بل أن ندعى

أيضًا إخوة المسيح. وأصبح هو لا يستحي أن يدعونا إخوة (عب٢: ١١، ١٢).

وهناك موهبة أخرى عظيمة جدًا أعطينا إياها في العهد الجديد وهي:

******

أعطينا أيضًا سر الإفخارستيا، دون أن نطلب...

في ساعة لم يكن يتوقعها التلاميذ، وهبهم المسيح سر الإفخارستيا (مت٢٦: ٢٦-٢٨). أعطانا أن نأكل جسده ونشرب دمه (يو٦: ٥٤- ٥٦) لكي نثبت فيه وتكون لنا فيه حياة.

أكنا نتخيل أن نطلب طلبًا كهذا. ولكنها منحة مجانية فوجئنا بها، كسائر نعم الله التي يهبها حسب عمق جوده، دون أن نطلب.

٥- كرم الله في عطاياه

أقصى ما كانت تطلب القديسة أليصابات، أن يكون لها ابن. ولعلها نسيت هذه الطلبة بعد أن شاخت، بل إن زوجها زكريا الكاهن استصعب هذا الأمر حينما بشره به الملاك ولم يصدقه (لو١: ١٨) كأن أوان طلبه قد فات.

ولكن الرب وهب زكريا وأليصابات، أعظم من ولدته النساء.

وهبهما هذا الأمر العظيم دون أن يطلباه. وهبهما الملاك الذي يهيئ الطريق قدامه (مر١: ٢). وهبهما إنسانًا يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ... وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ... وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ (الله) بِرُوحِ إِيلِيَّا وَقُوَّتِهِ" (لو١: ١٥- ١٧). وهبهما إنسانًا قال عنه المسيح إنه "أَفْضَلَ مِنْ نَبِيٍّ" وأنه "لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ" (مت١١: ٩، ١١).

كل هذا ما كانت تطلبه أليصابات، ولا طلبه زكريا...

******

إنه عظم كرم الله الذي يعطي بسخاء فوق ما نطلب... مهما طلبنا ستكون طلباتنا أقل بكثير من مستوى جود الله وكرمه، الذي يعطي بسخاء.

كل ما تطلبه العاقر أن يكون لها ولد. ولكن الرب يقول لها في سفر إشعياء النبي: "أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ... لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ، وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا، وَيُعْمِرُ مُدُنًا خَرِبَةً" (إش٥٤: ٢، ٣). كل هذا يعطيه لها دون أن تطلب.

ألعل هذا يشير إلى كنيسة الأمم العاقر التي لم تطلبه؟!

أو ألعل هذا يشير إلى أية أقلية ضئيلة، أو إلى أية نفس خالية من الفضائل، عاقرًا من جهة عمل الروح فيها...!

******

ومثال آخر تلك الخاطئة المدوسة بدمها في سفر حزقيال.

لعل كل ما كانت تطلبه أن يغسلها الرب فتطهر، مجرد أن تتوب ويقبل توبتها أما الرب الحنون الكريم في عطاياه فيقول لها: "وَحَلَّيْتُكِ بِالْحُلِيِّ... وَوَضَعْتُ... تَاجَ جَمَال عَلَى رَأْسِكِ... وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلاً بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ" (حز١٦: ١١- ١٤).

إنها درس في الرجاء. التي لم تنتظر شيئًا، نالت كل شيء...

إن الله لا يستحِ من بنوتنا له، إن وجد نفوسنا مطروحة على الحقل، مدوسة بدمها، عارية ومكروهة (حز١٦: ٥، ٦). بل إنه يغسلنا ويطهرنا، وينزع عنا عارنا، فنصير له، ويطرح علينا بهاءه... ويضع تاج جمال على رؤوسنا... حقًا ما أعظم الرجاء بالرب.

******

إن الله لا يعطي بمكيال، بل يسكب سكبًا، بسخاء، إنه يفتح لنا كوى السماء، ويفيض علينا بركه لا تُوسع (ملا٣: ١٠) حتى نقول له: كفانا كفانا... كل هذا دون أن نطلب...

إنه لا يغسل الخاطئ فقط، بل يجعله أبيض من الثلج...

لم يسمح فقط بقبول الابن الضال، بل أغدق عليه من كرمه وحنوه، حتى جعل خاتمًا في إصبعه، وألبسوه الحلة الأولى، وذبحوا له العجل المسمن، وأقاموا فرحًا برجوعه (لو١٥: ٢٢، ٢٣). أكان هذا الابن يطلب شيئًا من هذا كله، وهو الذي فكر أن يقول لأبيه "اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ" (لو١٥: ١٩). ولكن أباه أعطاه كل هذا دون أن يطلب، وفي وقت كان يستحي فيه أن يطلب شيئًا...

******

إن الله لا يعطي من أجل طلباتنا أو استحقاقاتنا...

إنما يعطي من أجل جوده وكرمه، ومن أجل احتياجاتنا.

طبعه هكذا: كريم وحنون وطيب. وطبعه هذا يغرس في قلوبنا الرجاء مهما كان حالنا، ومهما كنا غير مستحقين لشيء.

وقصص الكتاب لا تنتهي في هذا المجال، إنما نحن نذكر منها مجرد مثال أو بعضًا من مثال...

******

يوسف الصديق كل ما كان يطلبه أن يخرج من السجن...

ولكن الله جعله الوزير الأول في مصر والثاني في المملكة...

أكان يوسف يطلب هذا أو يحلم به، كلا بلا شك. ولكن الله الحنون يعطي دائمًا دون أن نطلب.

وقصة يوسف تبعث الرجاء في كل قلب... هذا الذي ساءت حالته إلى أبعد حد، وبيع كعبد، وألقي في السجن، وطالت به المدة في سجنه، ولاحقته تهمة هو بريء منها... ومع ذلك أصلح له الله كل أموره، وأعطاه ما لم يخطر له على بال...

******

ويظهر كرم الله وعطاياه في مواعيده العجيبة.

هذا الذي قال: "هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨: ٢٠) "حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسْطِهِمْ" (مت١٨: ٢٠). إنه يعطينا هذه الوعود المعزية كلها دون أن نطلب.

وتظهر محبة الله لنا أيضًا في دعوته الإلهية.

٦- في الدعوة الإلهية

كل تلاميذ المسيح أعطاهم شرف الرسولية، دون أن يطلبوا...

أكان يطلب هذا بطرس وأندراوس وهما مشغولان بالصيد والشباك؟! أكان يطلب هذا متى وهو في مكان الجباية؟!... وهكذا كل الباقين. والرب قد وضح هذا الأمر حينما قال لتلاميذه: "لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ، وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ" (يو١٥: ١٦).

******

وكذلك أيضًا الأنبياء نالوا جميعهم النبوة، دون أن يطلبوا...

داود، وهو صبي صغير يرعي الغنيمات القليلات في البرية، أكان يفكر أو يطلب أن

يصير مسيح الرب، وأن يختاره الرب دون إخوته الكبار ودون كل الشعب ليصير نبيًا له... أما اختاره الله دون أن يطلب؟!

وكذلك إرميا الصغير الذي قال: "لاَ أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لأَنِّي وَلَدٌ" (إر١: ٦) أكان يحلم أن يصير نبيًا للشعوب، أو كان يطلب هذا. أم أن الله دعاه دون أن يطلب؟!

وهكذا إبراهيم أبو الآباء، الله هو الذي دعاه (تك١٢: ١).

وبالمثل كل الأنبياء، الذين انطبق عليهم قول الكتاب: "الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ... وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ، فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا" (رو٨: ٢٩، ٣٠) هو الله الذي اختار كل هؤلاء دون أن يطلبوا...

*****

ومثال واضح جدًا هو شاول الطرسوسي الذي كان يضطهد الكنيسة.

أكان شاول يفكر أن يصير رسولًا من رسل المسيح؟! مستحيل. بل إنه كان يقاوم المسيحية بإفراط. ومع ذلك نقرأ أن السيد المسيح ظهر له في طريق دمشق، ودعاه دون أن يطلب، واختاره رسولًا للأمم. ونسمع الروح القدس يقول للرسل: "أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ" (أع١٣: ٢).

*****

وبالمثل، هل كانت راعوث تفكر أن تكون جدة للمسيح؟!

قطعًا ما كان يخطر لها هذا ببال، وهي امرأة أممية غريبة الجنس! ولكن الله "يَدْعُو الأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَوْجُودَةِ كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ" (رو٤: ١٧). ألا يعطي هذا الرجاء للناس؟!

*****

وأكثر من هذا راحاب. أكانت تطلب أن تصير جدة للمسيح؟!

لعل أقصى ما كانت تطلبه الأمان لنفسها ولأهلها في وقت اقتحام أريحا. أما أن تصير ضمن شعب الله، فقد كان هذا كثيرًا عليها جدًا. ولكن أن تصير جدة للمسيح فهذا لم تطلبه إطلاقًا، بل لم يخطر على بالها، ولم تحلم به ولكن الله الحنون يعطي دون أن نطلب. يحتاج الأمر أن نؤمن بمحبة الله وكرمه واهتمامه بنا.

٧- العطاء والإيمان

القديسون لإيمانهم بأن الله يعطي دون أن نطلب، كانوا يخجلون أن يطلبوا شيئًا. طلبتهم الوحيدة كانت هي الله نفسه...

ولهذا يقول داود النبي في صلاته: "طَلَبْتُ وجْهَك، ووَجْهَك يَا رَبُّ أَلْتمِسُ. لا تَحْجبْ وجْهَك عنِّي" (مز٢٧: ٨، ٩). ويقول في نفس المزمور: "وَاحِدةً سَألتُ مِنَ الرَّبِّ وإيَّاهَا أَلْتَمِسُ. أنْ أسْكُنَ في بَيتِ الرَّبِّ كلَّ أيَّامِ حَياتِي. لِكي أنْظرَ نَعيمَ الرَّبِّ، أتَفرَّسَ في هَيْكلِه" (مز٢٧: ٤). أما باقي الأمور فهي بسيطة يقضيها لنا الرب دون أن نطلب. أليس هذا هو ما قاله لنا السيد الرب:

"اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ" (مت٦: ٣٣).

لم يقل: "وهذه تطلبوها بعد ذلك" وإنما قال: هذه تزاد لكم. أي يعطيها الله لكم دون أن تطلبوا.

ولهذا أيضًا كانت كل طلبتنا في الصلاة الربية، هي صلوات روحية تتعلق بملكوت الله وبره. والباقي يزاد لنا من الله دون أن نطلب. هو يعلم أننا نحتاج إلى هذه كلها، فيعطيها لنا من عنده كأب شفوق يعرف احتياجات أولاده، دون أن يجشمهم الإلحاح عليه في طلبها...

*****

ومع ذلك، أعطى الله الضعفاء أن يطلبوا ما يشاءون...

"اُطْلُبُوا تَجِدُوا" (مت٧: ٧) فتفرح قلوبكم بالله الذي يعطي، ويزداد إيمانكم به. وكلما تعمق إيمانكم في أن الله يعطي كل شيء، حينئذ سوف لا تطلبون سوى الله وحده، وملكوته وبره... "اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا، لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً" (يو١٦: ٢٤). وكل طلبة يسمعها الله منكم، يتقبلها بحنو، كما من أفواه أطفاله الصغار.

عجيب هو إلهنا الحنون، المعطي، والمستجيب لطلبة أولاده.

*****

إن الذي يؤمن بالله وعطائه، ينام في حضن الله ويستريح...

ويكون واثقًا أن الله يدبر له كل شيء... كما كان بطرس نائمًا في السجن مطمئنًا إلى عمل الله من أجله. وكان نومه ثقيلًا لدرجة أن الملاك الذي أنقذه، لكزه أولًا وأيقظه (أع١٢: ٧) بينما كان هيرودس مزمعًا أن يقتله (أع١٢: ٤). ومع ذلك نام، واثقًا أن الله مستيقظ وساهر على خلاصه. ولهذا أيضًا نسمع داود النبي يقول في المزمور:

"الرَّبُ يَرْعاني فَلا يُعْوِزُني شَيء" (مز٢٣: ١).

وما دام لا يعوزه شيء، إذًا فهو لا يطلب، لأن الله لم يتركه معوزًا شيئًا يطلبه. ولهذا نقول نحن أيضًا في القداس الغريغوري: "لم تدعني معوزًا شيئًا من أعمال كرامتك".

*****

فإن قال لك الله ماذا تطلب، أتراك تجيب قائلًا:

وهل تركت لي شيئًا أطلبه؟! إنني لو قضيت عمري كله شاكرًا، فلن يكفي. لذلك إن رأيتني يا رب احتاج شيئًا، أعطني إياه.

إنك أغرقتني بعطاياك، وأعطيتني فوق ما أطلب. ولم تدعني معوزًا شيئًا... كما إنك

أدرى بما ينقصني، إن كان هناك شيء ينقصني.

عملي الوحيد هو أن أشكر، وأن أسبحك على كرمك، لا أن أطلب...

*****

ولعل البعض يسأل: ماذا إذًا عن الضيقات؟ نقول:

إن أولاد المؤمنين برعايته وعطاياه، لا ينزعجون ولا يقلقون. ويرون أنه ما دام الأمر في يد الله، فهذا يكفي...

هذا يكفي لاطمئنانهم وسلامهم. لأنه لا يوجد أحب من الله لهم، ولا يوجد من هو أكثر عناية منه بهم. وما دام الله قد تسلم كل أمورهم، لم يعد لهم شيء يقولونه أو طلب يطلبونه.

*****

يكفي للإنسان أن يطلب محبة الله، لأنه يريد قلوبنا.

هو لا يرغمنا على محبته. يريدنا أن نحبه برضانا. وإن أحوجتنا المحبة نطلبها منه. وهو يسكبها في قلوبنا بالروح القدس. إنه لا يرهبنا بلاهوته، بل يجذبنا بمحبته. ويريدنا أن نبادله حبًا بحب، لذلك يقول: "يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ" (أم٢٣: ٢٦).

والذي تملك محبة الله على قلبه، لا يشتهي في العالم شيئًا ليطلبه.

بل هو يقول للرب: "مَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئًا فِي الأَرْضِ" (مز٧٣: ٢٥). ويقول مع القديس بولس الرسول: "خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ، وَأُوجَدَ فِيهِ" (في٣: ٨، ٩).

*****

هذا هو طلبك الوحيد: الله ومحبته وملكوته وبره، وكفى.

وكل الأمور الأخرى، يمتلئ قلبك بالرجاء أن الله سيحلها دون أن تطلب. هو يعلم ما تحتاجه، له المجد في محبته ورعايته.

*****



الفصل التاسع

الله يعمل معنا

الله يعمل معنا

هناك أسباب جوهرية... تجعل عمل الله معنا ضرورة:

منها قول الرب: "مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!" (مت٧: ١٤)، فإن كان الأمر هكذا، فإن العدل الإلهي يقتضي أن توجد معونة إلهية، يمكننا بها أن نجتاز الباب الضيق... ولهذا يقول الرب:

"بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا" (يو١٥: ٥).

ما دام الأمر هكذا، إذًا لا بد أن يكون الله معنا في كل عمل نعمله، وإلا فإننا سنقف عاجزين تمامًا في كل ما تكافح فيه إرادتنا سواء في الجهاد ضد الخطية، أو في خدمتنا للملكوت، أو في اكتساب أية فضيلة.

وبخاصة لأننا مطالبون بالقداسة ومطالبون أيضًا بالكمال...

إذ يقول الكتاب: "نَظِيرَ الْقُدُّوسِ الَّذِي دَعَاكُمْ، كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا قِدِّيسِينَ فِي كُلِّ سِيرَةٍ. لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: كُونُوا قِدِّيسِينَ لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ" (١بط١: ١٥، ١٦). نحن لسنا مطالبين بالقداسة فقط، بل أيضًا بالكمال في هذه القداسة... وذلك حسب قول الرب: "فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ" (مت٥: ٤٨). ولكي نصل إلى القداسة والكمال، لا بد بالضرورة أن معونة إلهية تحملنا في الطريق.

****

يضاف إلى هذا أن عدونا قوي... وحيله كثيرة وماكرة.

قال عنه الكتاب: "إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ... فَقَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الإِيمَانِ" (١بط٥: ٨، ٩). ترى بأي إيمان نقاومه؟ بالإيمان أن الله هو الذي يغلبه في حربه معنا... كما قيل في سفر أيوب: "اَللهُ يَغْلِبُهُ لاَ الإِنْسَانُ" (أي٣٢: ١٣). نعم، إننا لا

نستطيع بغير عمل الله معنا أن نغلب تلك الخطية التي قيل عنها إنها "طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى، وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ" (أم٧: ٢٦) الضرورة إذًا تلزم وجود معونة إلهية.

لأنه بالإضافة إلى قوة عدونا، طبيعتنا أيضًا ضعيفة.

وهكذا فإن داود النبي في حديثة عن عظم مغفرة الله، يقول: "لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ" (مز١٠٣: ١٤). ويقول في كثير من مزاميره: "ارْحَمْنِي يَا رَبُّ لأَنِّي ضَعِيفٌ" (مز٦: ٢). هذا الضعف الذي بسببه تحدث الكتاب عن أخطاء الأنبياء... فإن كان هؤلاء العظام قد أخطأوا، فماذا يحدث لنا، إن لم تسندنا معونة الله... وهي لا بد تفعل، حسب قول الرسول:

"حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا" (رو٥: ٢٠).

نعم تزداد النعمة، لكي تنقذنا من هذه الخطية... وهكذا يصرخ داود النبي إلى الرب ويقول: "وأنت (يا رب) عَلمت سُبُلي. في الطَّريقِ الَّذي أسْلُكُ أخْفَوْا لي فَخًّا. تأمَّلْتُ عَنِ اليَمينِ وأبْصَرتُ، فلَمْ يَكُنْ مَنْ يَعْرفني. ضاعَ الْمَهْرَبُ مِنّي ولَيْسَ مَنْ يَسْألُ عَنْ نَفسي. فَصَرخْتُ إليْكَ يا رَبُّ وقلْتُ: أنْتَ هُوَ رَجائي وحَظّي في أرْضِ الأحْياءِ... نَجِّني مِنَ الَّذينَ يَضْطَهِدونَني، لأنَّهُمْ قَدْ اعْتَزّوا أكثَرَ مِنّي" (مز١٤٢: ٣- ٦) واحمني من قوتهم ومن ضعفي.

****

ومن ضعف الطبيعة البشرية: الجهل والشهوة وعدم الإرادة.

أحيانًا يجهل الإنسان الطريق إلى الله، يجهل الوسيلة التي بها يخلص. لهذا يقول المرتل في المزمور: "طُرُقَكَ يَا رَبُّ عَرِّفْنِي. سُبُلَكَ عَلِّمْنِي" (مز٢٥: ٤). "عرِّفْنِي يَا رَبُّ الطَّرِيقَ التي أسْلُكَ فِيهَا... علِّمنِي أنْ أصْنَعَ مَشِيئَتَكَ" (مز١٤٣: ٨، ١٠). ويتغنى بإرشاد الرب فيقول: "الرَّبَّ صَالِحٌ ومُسْتَقيمٌ، لِذلِكَ يُرشِدُ الذِينَ يُخْطئونَ في الطَّريقِ ...

يُعلِّمُ الوُدعَاءَ طُرقَهُ" (مز٢٥: ٨، ٩) إذًا لا بد أن يتدخل الله، ليرشد الإنسان في الطريق.

والإنسان قد يعرف... ومع ذلك إرادته لا تساعده.

إما أنه لا يريد الخير، بسبب محبته للخطية، وإما أنه يريد ولا يستطيع... وهكذا يقول القديس بولس الرسول: "إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ، أَيْ فِي جَسَدِي، شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي، وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ، بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ... لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ" (رو٧: ١٨– ٢٠).

لذلك فإن الله – بنعمته يعمل في الإنسان.

وهكذا فإن القديس بولس الرسول ينسب كل ما يعمله إلى نعمة الله العاملة فيه، فيقول: "وَلكِنْ لاَ أَنَا، بَلْ نِعْمَةُ اللهِ الَّتِي مَعِي"... "وَلكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أَنَا مَا أَنَا..." (١كو١٥: ١٠). ويرسل إلى تلميذه تيموثاوس ليقول له: "فَتَقَوَّ أَنْتَ يَا ابْنِي بِالنِّعْمَةِ" (٢تي٢: ١) ...

ولأهمية النعمة... فإن الآباء الرسل يبدأون بها رسائلهم.

هكذا في رسائل القديس بولس تتكرر في مقدمتها عبارة "نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ" (رو١: ٧؛ ١كو١: ٣؛ ٢كو١: ٢؛ غلا١: ٣؛ أف١: ٢؛ في١: ٢) ... والقديس بطرس الرسول يقول في بدء رسالتيه: "لِتَكْثُرْ لَكُمُ النِّعْمَةُ وَالسَّلاَمُ" (١بط١: ٢؛ ٢بط١: ٢)، والقديس يوحنا يقول للسبع الكنائس في مقدمة سفر الرؤيا: "نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ" (رؤ١: ٤).

ويميز النعمة التي نلناها في العهد الجديد بقوله: "لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ... أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا" (يو١: ١٧).

هذه النعمة هي قوة من الله تعمل معنا وفينا.

وهي أيضًا التي كانت تعمل في آبائنا الرسل، حتى أمكنهم أن يقوموا برسالتهم، ويشهدوا للرب "وَبِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ كَانَ الرُّسُلُ يُؤَدُّونَ الشَّهَادَةَ... وَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ كَانَتْ عَلَى جَمِيعِهِمْ" (أع٤: ٣٣). والقديسة الطاهرة العذراء مريم، حياها الملاك بعبارة، "سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا (الممتلئة نعمة) الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ" (لو١: ٢٨).

****

الله يعمل فينا بنعمته... وبشركة روحه القدوس.

فالروح القدس يشترك معنا في العمل، ويعطينا قوة... ولذلك قال السيد المسيح لتلاميذه القديسين "لكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُونَ لِي شُهُودًا" (أع١: ٨).

وبهذا كانت "شركة الروح القدس" بركة توهب للمؤمنين إذ يقول القديس بولس الرسول في آخر رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس "نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَمَحَبَّةُ اللهِ، وَشَرِكَةُ الرُّوحِ الْقُدُسِ مَعَ جَمِيعِكُمْ" (٢كو١٣: ١٤)، وهذه هي البركة التي تمنحها الكنيسة لأولادها في آخر كل اجتماع.

****

وبالإضافة إلى شركة الروح القدس، يقول لنا السيد المسيح:

"هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨: ٢٠).

إنه وعد عظيم يمنحنا رجاء أن يكون الرب معنا كل الأيام. ويقول أيضًا: "حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسْطِهِمْ" (مت١٨: ٢٠). وقد صور لنا سفر الرؤيا السيد الرب في وسط الكنائس السبع ورعاة هذه الكنائس عن يمينه (رؤ١:

١٣؛ ٢: ١). إنه معنا، يعمل فينا، ويعمل بنا، ويعمل معنا... هذا عن الابن، وماذا عن الآب؟ يقول الرب:

"أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ" (يو٥: ١٧).

إن عمل الله لم ينته بالخلق، حينما استراح الله في اليوم السابع! فالله يعمل باستمرار. يرى كل شيء ويرقب، كضابط للكل... وهو يعمل في رعاية هذه البشرية، ويسند ويساعد ويعين ويحفظ... وقد قيل عن الآباء الرسل: "فَخَرَجُوا وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ وَيُثَبِّتُ الْكَلاَمَ بِالآيَاتِ التَّابِعَةِ" (مر١٦: ٢٠). وقال داود النبي عن عمل الرب: "مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ" (مز١٠٤: ٢٤).

****

الثالوث القدوس إذًا يعمل معنا، وتعمل معنا ملائكته.

قال الرسول عن الملائكة: "أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!" (عب١: ١٤). ملاك من السرافيم طار بسرعة وأخذ جمرة من على المذبح ومسح بها شفتي إشعياء النبي لما سمعه يقول: "وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ، لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ" (إش٦: ٥). وملاك آخر وقف يدافع عن يهوشع الكاهن لما رأى الشيطان وقال له: "لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ" (زك٣: ٢).

ويعوزني الوقت إن تحدثت عن عمل الملائكة من أجل البشر بأمر من الرب: مثل قول دانيال النبي: "إِلهِي أَرْسَلَ مَلاَكَهُ وَسَدَّ أَفْوَاهَ الأُسُودِ" (دا٦: ٢٢). ومثل إنقاذ الملاك لبطرس من السجن (أع١٢). ومثل قول الكتاب: "مَلاَكُ الرَّبِّ حَالٌّ حَوْلَ خَائِفِيهِ، وَيُنَجِّيهِمْ" (مز٣٤: ٧). ومثل قول الكتاب عن عمل الله من أجلنا في ضيقاتنا "فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ، وَمَلاَكُ حَضْرَتِهِ خَلَّصَهُمْ" (إش٦٣: ٩).

****

الله يعمل لأجلنا في كل ضيقاتنا وتجاربنا...

إنه يقول لكل منا: "لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ. تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (يش١: ٥، ٩). وقال لإرميا النبي: "لاَ تَخَفْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ لأُنْقِذَكَ" (إر ١: ٨). وقال للقديس بولس الرسول: "لاَ تَخَفْ، بَلْ تَكَلَّمْ وَلاَ تَسْكُتْ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ، وَلاَ يَقَعُ بِكَ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَكَ" (أع١٨: ٩، ١٠).

****

حتى في الكلام، الله يكون معنا، ليتكلم على ألسنتنا.

إنه يقول لنا: "لاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ" (مت١٠: ١٩، ٢٠). وبولس الرسول يطلب صلاة أهل أفسس لكي يعطى له كلام عند افتتاح فمه (أف٦: ١٩)، وداود النبي يقول: "يَا رَبُّ افْتَحْ شَفَتَيَّ، فَيُخْبِرَ فَمِي بِتَسْبِيحِكَ" (مز ٥١: ١٥). وإرميا النبي قال له الرب: "هَا قَدْ جَعَلْتُ كَلاَمِي فِي فَمِكَ" (إر ١: ٩).

****

ومن جهة التوبة، الله هو الذي يعمل فينا لنتوب، لذلك يقول الكتاب:

"تَوِّبْنِي فَأَتُوبَ، لأَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ إِلهِي" (إر ٣١: ١٨).

روح الله هو الذي يبكتنا على خطية (يو١٦: ٨) وهو الذي يرشدنا إلى طريق البر. والمرنم يقول عن عمل الرب في التوبة: "تَنضَحُ عَلي بِزُوفَاكَ فأَطَّهَّرُ، تَغْسلُنِي فَأَبْيضُّ أَكْثَر مِنَ الثَّلجِ" (مز ٥١: ٧). ونحن نصلي في قداستنا ونقول: "طهر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا" والله هو الذي منحنا في المعمودية غسيل الميلاد الثاني (تي٣: ٥). ووعدنا في سفر إشعياء بهذا التطهير (إش١: ١٨)، وكذلك في سفر حزقيال (حز٣٦: ٢٥).

ومن العبارات التي تستحق شيئًا من التأمل قول المرتل في المزمور:

"قَلْبًا نَقِيًا أَخْلُقْ فِي يَا اللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْهُ فِي أَحْشَائِي" (مز ٥١: ١٠).

إذًا فوجود هذا القلب النقي هو من عمل الله، يخلقه خلقًا من لا شيء، ويجدد الروح... ويقول الرب في سفر حزقيال: "وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ... وَأَجْعَلُ رُوحِي فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَجْعَلُكُمْ تَسْلُكُونَ فِي فَرَائِضِي، وَتَحْفَظُونَ أَحْكَامِي وَتَعْمَلُونَ بِهَا" (حز٣٦: ٢٦، ٢٧) واضح أنه عمل الرب فينا.

****

إنه "اللهِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١تي٢: ٤).

وهو لا يريد فقط، وإنما يريد ويعمل على خلاصنا. وهو الذي دبر طريقة الفداء والكفارة... وهو الذي أخلى ذاته وتجسد... هو الذي أحب "أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو٣: ١٦).

****

هو الذي أعطى الرسل المصالحة... ليصالحونا معه.

وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول: "...اللهِ، الَّذِي صَالَحَنَا لِنَفْسِهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ... إِذًا نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (٢كو٥: ١٨، ٢٠).

****

هو الذي قال: أنا "وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ" (رؤ٣: ٢٠).

إنه يقرع على باب كل نفس ويبحث عن خلاص كل نفس، كما بحث عن الخروف

الضال والدرهم المفقود (لو١٥) وهو من أجل هذا الخلاص أرسل الأنبياء والرسل، والرعاة والمعلمين، وأرسل لنا كلامه بالوحي الإلهي.

الله أيضًا يعمل لأجلنا بالحفظ الإلهي...

وبهذا يتغنى المرتل فيقول في المزمور: "لَوْلا أَنَّ الرَّبَّ كان مَعنا عِنْدَما قامَ النّاسُ عَلَيْنا. لابْتَلَعونا ونَحْنُ أحْياء ... مُبارَكٌ الرَّبُّ الّذي لَمْ يُسَلِّمْنا فَريسةً لأسْنانِهِم. نَجَتْ أنْفُسُنا مِثْلَ العُصْفورِ مِنْ فَخِّ الصَّيّادينَ" (مز١٢٤: ٢، ٣، ٦، ٧)، وداود النبي يقول لجليات: "الْحَرْبَ لِلرَّبِّ وَهُوَ يَدْفَعُكُمْ لِيَدِنَا" (١صم١٧: ٤٧). وموسى النبي قال للشعب: "قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ... الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ" (خر١٤: ١٣، ١٤).

إن الشيطان يريد أن يوقعنا في اليأس ... بأن ينسينا عمل الله من أجلنا.

ومن السهل أن نرد عليه. إن قال لنا أن طريق الرب صعبة نقول له يكفي أن الله معنا في الطريق... وهو يجعل الصعب سهلًا ... وإن قال لواحد منا أن نفسك لا تريد التوبة، نقول له: يكفي أن الله يريدها لنا وهو لا شك سيقودنا إليها... وإن أخافنا من الأعداء الكثيرين نقول له: إن الذين معنا أكثر من الذين علينا.

****

إن الله يعمل لأجلنا. ولكن يجب علينا الاستجابة له... والشركة معه.

وفي هذا يقول الرسول: "إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ" (عب٣: ٧، ٨). الله يعمل... ولكن ينبغي أن نشترك معه في العمل... هو يرسل روحه القدوس لأجل تقويتنا، وإرشادنا. ولكن ينبغي لنا أن ندخل في شركة الروح القدس.

وبهذا يكون الخلاص هو نتيجة عمل الله فينا... ومعه قبولنا لهذا العمل... واشتراكنا مع الروح في وسائط النعمة.

وكل ذلك يبعث الرجاء في النفس. ولكن...

لعل إنسانًا يقول إنني طلبت من الله كثيرًا وهو لم يستجب! وما زلت في ضيقة، والله لم يتدخل! فأين الرجاء إذًا؟ لمثل هذا الإنسان، قال المرتل في المزمور:

"انْتَظِرِ الرَّبّ. تَقوَّ وليتَشَدَّدْ قلْبكَ وانْتَظِرِ الرَّبِّ" (مز٢٧: ١٤).

****

الفصل العاشر

انتظر الرب

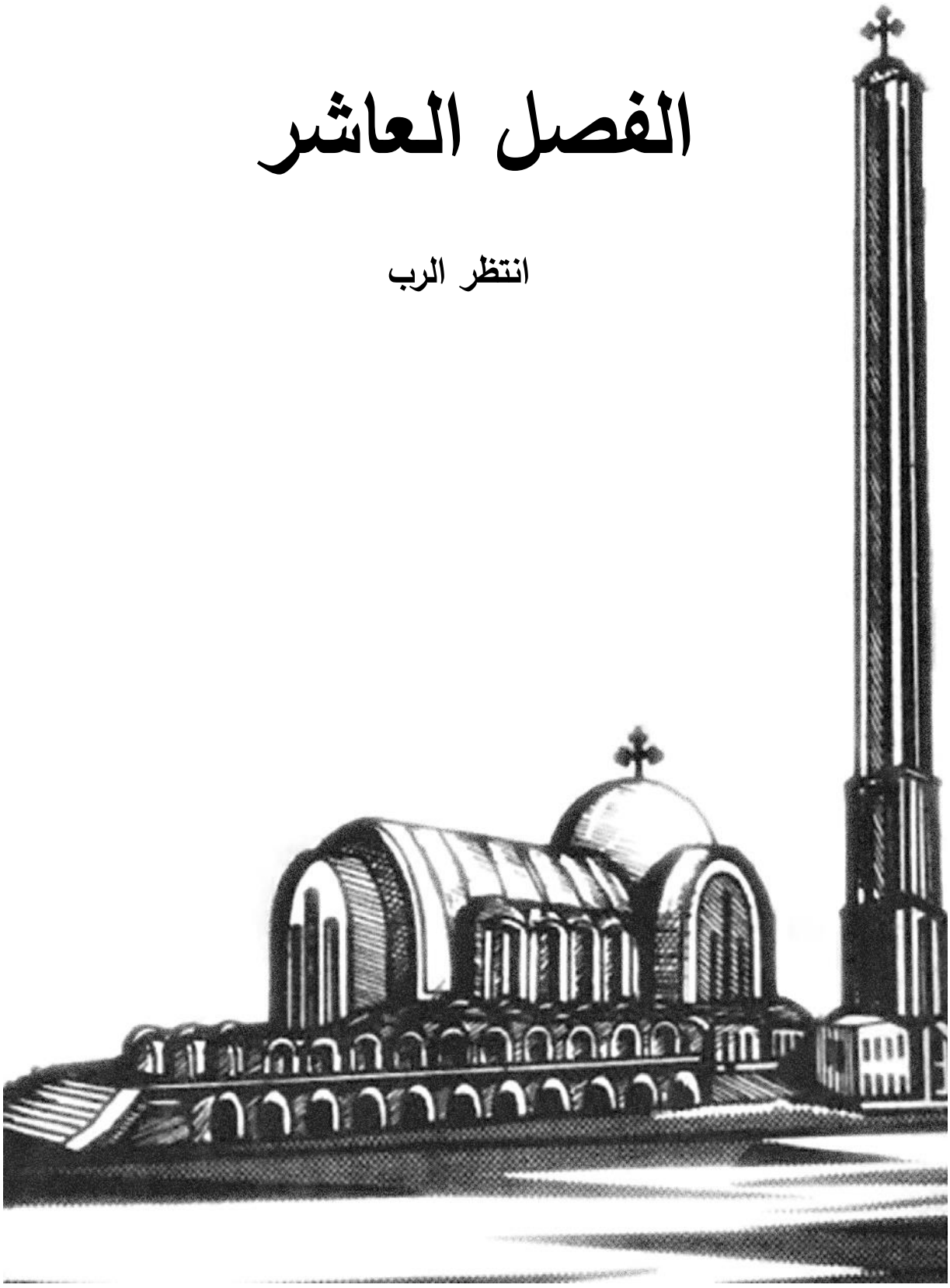

انتظر الرب[٧]

لا شك أن الله يعمل، ويعمل في هدوء، من أجل كل مخلوقاته، كراعٍ صالح للجميع، يريد الخير للكل.

غير أن البعض إذا تعبوا، أو إذا ظنوا أن الله قد تأخر عليهم، يخيل إليهم أنه لا يعمل!!

يظنون هذا خلال مشاكلهم، بينما يكون الله في عمق العمل من أجلهم، وهم لا يعملون. أو أن هؤلاء يعوزهم أن ينتظروا ليروا عمل الرب، أو ليروا نتيجة عمله على وجه أصح... ليروا بالعيان ما كان يجب أن يصدقوه بالإيمان...

"انْتَظِرِ الرَّبّ. تَقَوَّ وليتَشَدَّدْ قلْبكَ وانْتَظِر الرَّبِّ" (مز٢٧: ١٤).

*****

نوعية الانتظار

الذي ينتظر في رجاء، إنما ينتظر الرب بقلب مملوء بالإيمان وبالثقة. في غير شك، وبغير قلق ولا اضطراب ولا تضايق. ينتظر وهو مؤمن أن الرب لا بد سيتدخل، ولا بد سيعمل، وأن الأمور لا بد تنتهي إلى خير، حسب قول الكتاب:

"كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ" (رو٨: ٢٨).

وهكذا يصف لنا الكتاب الرجاء العظيم لمنتظري الرب فيقول: "وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ"

---

[٧] عن محاضرتين ألقيتا في الكاتدرائية الكبرى بدير الأنبا رويس بالقاهرة. أحدهم مساء الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٧٦م. والثانية مساء الجمعة ٢ مايو ١٩٨٠م.

(إش٤٠: ٣١) ... القوة التي هزتها الضيقة، تتجدد بالرجاء، بانتظار الرب. كما قيل في المزمور "يجدد مثل النسر شبابك". إذًا ينبغي أن الإنسان ينتظر الله، بقلب قوي متشدد، بإيمان واثق.

واثق أن الله لا بد سيعمل. وسيظهر عمله واضحًا وقويًا. والله يعمل في الوقت المناسب، وبالطريقة المناسبة النافعة.

ليس من اللائق أن نفرض على الله وقتًا معينًا أو أسلوبًا خاصًا. فقد قال الرب: "لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الأَزْمِنَةَ وَالأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الآبُ فِي سُلْطَانِهِ (وحده)" (أع١: ٧). يكفي أن تترك مشكلتك في يد الله وتنساها هناك، وأنت واثق أن الله سيحلها... أما متى؟ فهذا ليس لك أن تفحصه. يكفي أنها ستحل بيد الله، في الحين الحسن. وما عليك إلا أن تنتظر الرب.

*****

ثلاثة أمور يرتكز عليها انتظارك

١- رجاؤك في انتظار الله يرتكز على إيمانك بمحبة الله لك.

الله الذي يحبك، أكثر مما تحب أنت نفسك. والذي يعمل من أجلك الخير، أكثر مما تستطيع أن تعمل أنت من أجل نفسك. اللهِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١تي٢: ٤). الله الذي نقشك على كفه، وحفظك في يمينه الحصينة، والذي يقول لك: "لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ" (يش١: ٥).

*****

ب- رجاؤك أيضًا في انتظار الرب، يرتكز على إيمانك بحكمته:

حكمته غير المحدودة، التي هي فوق مستوى تفكيرك، وفوق مستوى تفكير غيرك.

الحكمة التي تعرف ما هو الخير لأنها ترى كل شيء، وتبصر ما لا تبصره أنت. هذه الحكمة التي أدركها أيوب الصديق أخيرًا، فقال: "قَدْ نَطَقْتُ بِمَا لَمْ أَفْهَمْ. بِعَجَائِبَ فَوْقِي لَمْ أَعْرِفْهَا" (أي٤٢: ٣).

تأكد إذًا أن الله يدبر أمورك بحكمة، سواء فهمتها أم لم تفهمها... سلم قلبك لحكمته وانتظر...

*****

ج – رجاؤك أيضًا في انتظار الرب، يرتكز على إيمانك بمواعيده:

مواعيده التي قال فيها: "هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨: ٢٠). "إن نسيت الأم رضيعها أنا لا أنساكم" (إش٤٩: ١٥) "عَلَى كَفَّيَّ نَقَشْتُكِ" (إش٤٩: ١٦). "تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (يش١: ٩). "لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ" (يش١: ٥). "أَنَا مَعَكَ، وَلاَ يَقَعُ بِكَ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَكَ" (أع١٨: ١٠).

لا تلجأ إلى الطرق البشرية

الذي ييأس من انتظار الرب، قد يلجأ إلى الطريق البشرية. يعتمد على الذكاء أو المكر والدهاء. كما فعلت رفقة، عندما ظنت أن الوقت قد فلت، وسوف تضيع البركة التي وعد بها ليعقوب (تك٢٥: ٢٣)، فلجأت إلى طريق بشري، خدع فيه يعقوب أباه القديس إسحاق (تك٢٧).

وأيضًا أبونا إبراهيم لما يئس من انتظار الرب، لجأ إلى الطرق البشرية، فأخذ هاجر لتلد له، ثم عاد إبراهيم وأخذ قطورة (تك٢٥: ١). وكانت طرقًا مرفوضة من الرب.

*****

والبعض حينما ييأس من انتظار الرب، قد يلجأ إلى السحرة والعرافين، وإلى طرق بشرية كاللجوء إلى استشارة الموتى!!

الأمر الذي اعتبره الرب من رجس الأمم. وقال في ذلك: "...لاَ تَتَعَلَّمْ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ رِجْسِ أُولئِكَ الأُمَمِ. لاَ يُوجَدْ فِيكَ مَنْ يُجِيزُ ابْنَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فِي النَّارِ، وَلاَ مَنْ يَعْرُفُ عِرَافَةً، وَلاَ عَائِفٌ وَلاَ مُتَفَائِلٌ وَلاَ سَاحِرٌ، وَلاَ مَنْ يَرْقِي رُقْيَةً، وَلاَ مَنْ يَسْأَلُ جَانًّا أَوْ تَابِعَةً، وَلاَ مَنْ يَسْتَشِيرُ الْمَوْتَى. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الرَّبِّ" (تث١٨: ٩- ١٢) كلها طرق بشرية مرفوضة من الله. وبعضها طرق شيطانية.

ومثل ذلك مَنْ يلجأ إلى التنويم المغناطيسي، وما يعرف بالسلة. ومَنْ يؤمن بالعمل وإبطاله، ومَنْ يلجأ إلى مَنْ يقرأ الفنجان، ومَنْ يقرأ الكف، ومَنْ "يضرب الرمل" ومَنْ "يعرف البخت"، وأمثال هذه الطرق...

إن الله يريدك أن تكون تحت قيادته: تأخذ معرفتك منه. وكثيرًا ما تغنى داود النبي بأن خلاصه من عند الرب أو أن الرب نفسه قد صار له خلاصًا. والعجيب أن بعض الذين يلجأون إلى هذه الأمور يريحون ضمائرهم الثائرة عليهم أو ضمائر الناس الساخطة عليهم، بأن هذه الأمور تدخل تحت نطاق العلم، وأن الكنيسة لا يجوز لها أن تقاوم العلم!!

*****

في الكتاب المقدس يقول الرب إن استشارة الموتى هي من رجس الأمم، وأنها مكروهة عند الرب، فيقول البعض إنها علم، ولا يجوز للكنيسة أن تقف ضد العلم!!

حتى إن كان علمًا، فهو رجس ومكروه عند الرب.

والعجيب أن السحر نفسه، الذي هاجمه الكتاب. وقال الرب: "لاَ تَدَعْ سَاحِرَةً تَعِيشُ" (خر٢٢: ١٨). وقال إن خارج الملكوت: "... السَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ... نَصِيبُهُمْ فِي

الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ" (رؤ٢١: ٨) ... السحر يرى البعض أن هناك نوعًا مقبولًا منه يسمونه "السحر الأبيض" ولم أقرأ في الكتاب إطلاقًا عبارة "السحر الأبيض"!!

*****

أما أنت فلا تلجأ إلى أمثال هذه الطرق، إنما الجأ إلى الله وانتظره. ومهما تأخر لا تلجأ إلى السحر وأشباهه.

إنها تعبير إما عن فشل ويأس، أو هي دليل عملي على اللجوء إلى غير الله. أو هي ضيق في القلب لا يستطيع أن ينتظر الرب. أو هي استهانة بأمر الله الصريح الوارد في (تث١٨). لقد ضرب الرب شاول الملك وأماته لأنه لجأ إلى مثل هذا الطريق... (١صم٢٨). أما أنت فاستمع لأمر الرب الصريح. ولا تلجأ إلى طرق خاطئة كهذه مهما ظننت أنه قد تأخر عليك.

ولكن لعل إنسانًا يسأل: إلى متى أنتظر الرب؟ ...

إلى متى ننتظر؟

يقول المرتل في المزمور: "صَبرتُ لكَ يا رَبُّ، صَبرَت نَفسي لناموسِكَ. اِنْتظَرَتْ نَفسي الرّبَّ مِن مَحرسَ الصُبّحِ إلىَ الْلَيلِ" (مز١٣٠: ٥، ٦) ويضيف بعدها "لأنّ الرّحمةَ مِن عِندِ الرّبّ، وعظيمٌ هو خلاصُهُ"... وربما عبارة "من محرس الصبح حتى الليل" – في معناها الرمزي – تعني العمر كله، أو تعني الوقت كله... أو عبارة "حتى الليل" قد تعني: حتى الظلمة، حتى عمق اشتداد المشكلة...

ننتظر الرب، ونحن متأكدون تمامًا أنه لا بد سيجيئ ويصنع خلاصًا. أما متى يجيء؟ أصباحًا، أم ظهرًا، أم في نصف الليل، أم في الهزيع الرابع؟ لسنا ندري...

*****

لا نعرف متى يجيء. ولكن ما يسعدنا حقًا، أنه لا بد سيجيئ...

الوقت أو الميعاد، نتركه لحكمته الإلهية. ولكن نفرح بانتظار مجيئه، حسب وعده الصادق: "لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ" (يو١٤: ١٨). "سَأَرَاكُمْ أَيْضًا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ" (يو١٦: ٢٢). إن الصليب قد يحمل ألمًا. والقيامة معها فرح الرجاء...

وكل صليب لا بد بعده قيامة. والوعد بالقيامة يحمل الرجاء...

لذلك كن واثقًا، ولا تيأس. وانتظر الرب في عمق السلام الداخلي. وكلما أحاطت بك ضيقة، قل: إنني أسمع صوت حبيبي "هُوَذَا آتٍ طَافِرًا عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزًا عَلَى التِّلاَلِ" (نش٢: ٨).

*****

وإن صادفتك مشكلة، لا تجعلها تتعبك كما يحدث لفاقدي الرجاء. بل قل في ثقة: إن الله لا بد سيحلها. وإن لم تحل في هذه الأيام، ستحل في الأسابيع المقبلة. وإن لم تحل في هذه الأسابيع، ستحل في الشهور المقبلة، أو في السنوات المقبلة. إنها لا بد ستحل، مهما مرَّ الوقت عليها. أنا واثق يا رب في تدخلك. واثق في حكمتك وفي عملك، وأنك لن تتخلى.. لذلك مهما مرّ الوقت، نحن لا نحزن، كما قال الرسول:

"لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ" (١تس٤: ١٣).

إن ثقتنا بعمل الله، لا تسمح أبدًا للحزن أن يدخل إلى قلوبنا. فلنثق به إذًا. عجيب أننا نثق أحيانًا بالطرق البشرية، وبالوسائط العالمية، ونثق بالآخرين، ونثق بأنفسنا، بذكائنا وفهمنا وقدراتنا... أما الله، فكثيرًا ما تهتز ثقتنا ونحن ننتظره!! فلماذا؟ ألعله (التأخير) في الاستجابة هو الذي يجعلنا نشك أو نحزن.

إذًا فلنبحث موضوع التأخير هذا لنفهمه جيدًا... وكمقدمة له نقول: إن الله يعمل، مهما بدأ لنا أنه قد تأخر علينا...

مهما بدا أنه تأخر

الله لا يتأخر مطلقًا. عبارة "تأخر" هنا لها معنى نسبي، بالنسبة إليك! وكذلك عبارة "لاَ تَبْطُئ" (مز ٧٠: ٥). أي لا تجعلني أشعر أنك قد أبطأت عليَّ وتأخرت!

إن الله يعمل بطريقة هادئة متزنة، قد نحسبها نحن بطئًا.

كل أعمال الله تكون في وقتها المناسب. لا سرعة فيها ولا تأخير. وتوقيتها محسوب بحكمة إلهية عجيبة، بكل دقة.

*****

لقد وعد الله آدم وحواء بالخلاص... ومرت آلاف السنوات...

قال لهما أن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية. ومرت آلاف السنوات، والحية لا تزال رافعة رأسها في شموخ! وبدا أن نسل المرأة في انهيار مستمر... حتى أن الله أغرق العالم بالطوفان، وأحرق سادوم بالنار، وأمر الأرض أن تفتح فاها لتبتلع قورح ودثان وأبيرام... وبقى وعد الله قائمًا...

هلك هذا النسل. ولو!! لنا رجاء في نسل آت للخلاص...

كان الرجاء معلقًا في أولاد نوح. أفسد أغلبهم؟! يبقى الرجاء في أولاد إبراهيم. أفسد أغلبهم؟ يبقى الرجاء في أولاد يعقوب... لا بد سيحقق الله وعده بالخلاص... ومهما انتظر سمعان الشيخ طويلًا، لا بد سيأتي عليه الوقت الذي يقول فيه – وهو يحمل المسيح – "الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ" (لو٢: ٢٩، ٣٠). حتى المرأة السامرية – على الرغم من كثرة خطاياها – لم يفارقها

مطلقًا هذا الرجاء في مجيء المسيح، لذلك قالت: "أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا، الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ، يَأْتِي..." (يو٤: ٢٥).

وكثيرون رقدوا قبل أن يبصروا الخلاص. ولكن رقدوا على رجاء...

وفي ذلك يقول معلمنا القديس بولس الرسول: "فِي الإِيمَانِ مَاتَ هؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ، وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا وَحَيُّوهَا، وَأَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ غُرَبَاءُ وَنُزَلاَءُ عَلَى الأَرْضِ" (عب١١: ١٣). هؤلاء رتلوا مع المزمور: "لأَنَّكَ لا تَتْرُكُ نَفْسِي فِي الجحِيمِ. ولا تَدَعُ قُدُّوسَكَ يَرَى فَسادًا" (مز١٦: ١٠). وفي كل ذلك سنسأل سؤالًا هامًا وهو:

*****

هل حقًا تأخر الله في تنفيذ وعده بخلاص العالم؟

كلا، إنه لم يتأخر الوقت على الرغم من مرور آلاف السنين. بل إنه كان يعد البشرية لاستقبال هذا الخلاص... يعدهم بالنبوات وبالرموز وبالتوبة وبالإيمان. كم من الذبائح والمحرقات قدموها، حتى صارت عقيدة الكفارة والفداء راسخة في أذهانهم، وصارت المغفرة بالدم أمرًا سهلًا مقبولًا... وانتظر الرب حتى أصبح الإيمان ممكنًا، حتى وسط الأمم. وانتظر الرب حتى يوجد المعمدان الذي يعد الطريق قدامه، وحتى توجد العذراء الطاهرة التي تكون إناء للتجسد، والتي تقدر على احتمال ذلك المجد العظيم.

إذًا لم تكن مرحلة تأخير، إنما مرحلة إعداد تقوي الرجاء...

ونفذ الله وعده الذي لم ينسه مطلقًا خلال آلاف السنين، بل كان يمهد له... وأخيرًا استطاع نسل المرأة أن يسحق رأس الحية (تك٣: ١٥). وتم فعلًا ما قاله لأبينا إبراهيم: "وَبِنَسْلِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ" (تك٢٢: ١٨؛ أع٣: ٢٥).

لقد خلصهم "في مِلْءُ الزَّمَانِ" (غلا٤: ٤)

مفهومنا الخاطئ للتأخير

نحن نقول انتظر الرب. فهل ننتظر الرب حتى يبدأ العمل، واثقًا أنه سوف يعمل؟ كلا. فهذه تعبيرات مقدمة للمستوى البشري في الفهم. فما الحقيقة إذًا؟

انتظر الرب واثقًا، ليس أنه سيعمل، بل واثقًا أنه يعمل فعلًا. وربما قبل أن نطلب منه نحن.

ربما كنيسة محتاجة إلى كاهن يرعاها، وتطلب من الرب هذا، ويبدو أن الرب قد تأخر عليها عامين أو ثلاثة، حتى أرسل لها الكاهن المطلوب...! بينما تكون الحقيقة أن الله كان يعد لها هذا الكاهن منذ ثلاثين أو أربعين عامًا مضت، قبل أن تطلب... يعده بروحيات معينة، وبعلم ومعرفة وحكمة وتداريب، ويعده ربما بتجارب وضيقات، وبخبرات روحية، تجعله الشخص النافع والمناسب لهذه الكنيسة... ونحن الذين لا نرى ولا نعرف إعدادات الله، ونظنه قد تأخر!!

*****

أسباب وحكمة ما نظنه تأخيرًا

١- ربما يكون مجالًا لتعميق صلواتك وروحياتك.

هذا (التأخير) يجعلنا نصلي، ونتضرع ونداوم اللجاجة بقوة ومن عمق القلب، ومن عمق الاحتياج، وربما نضيف إلى الصلاة صومًا، وتذللًا أمام الله ونذرًا. مثال ذلك حنة أم صموئيل: لما كانت عاقرًا، وقد تأخر عليها الإنجاب وكانت ضرتها تغيظها، يقول الكتاب إنها: "صَلَّتْ إِلَى الرَّبِّ، وَبَكَتْ بُكَاءً، وَنَذَرَتْ نَذْرًا" (١صم١: ١٠، ١١). وتعهدت بأن الابن الذي يعطيها الرب إياه يكون نذيرًا للرب يخدمه كل أيام حياته. وهكذا استفادت من هذا (التأخير). أو قل إن الرب وجد أن الوقت المناسب لمنحها نسلًا، هو

الوقت الذي تصل فيه إلى هذه الحالة الروحية، بدون تأخير.

*****

٢- ربما يكون السبب أن الرب يعد طريقًا أفضل:

لو استجاب الرب ليوسف الصديق منذ أول إلقائه في السجن، ربما كان مصيره أن يخرج ليخدم فوطيفار أو سيدًا آخر، أو في أية وظيفة مماثلة. ولكن (التأخير) لم يكن تأخيرًا، وإنما انتظارًا للحلم الذي يحلمه فرعون، ويفشل في معرفة تفسيره، ويكون رئيس سقاته معه، فيخبره بيوسف، ويفسر يوسف الحلم بحكمة، ويصير الوزير الأول لمصر وأبًا لفرعون. إذن ما بدا تأخيرًا، كان إعدادًا لوضع أفضل.

*****

٣- وربما يكون السبب هو اختبار إيماننا:

هل نتضايق حينما لا تستجاب صلواتنا في ذات الوقت؟ هل نتذمر؟ هل نلجأ إلى غيره؟ هل نشكو للكل؟ هل نجدف عليه؟ أم أننا نصبر في إيمان وفي رجاء وثقة؟ ... إنه اختبار من الله لإيماننا، اختبار منا لأنفسنا. حتى إن وجدنا في أنفسنا ضعفًا، نعالجه.

*****

٤- وربما يكون السبب هو أن نحصل على انسحاق القلب:

إن استجابة كل صلاة في وقتها، ربما تؤدي بنا إلى الافتخار والمجد الباطل. بينما هذا (التأخير) قد يوصلنا إلى التواضع والانسحاق، فندرك أننا لسنا شيئًا...

*****

٥- وقد يكون السبب هو أن نصطلح مع الله:

فإن (تأخر) علينا في الاستجابة، قد نراجع أنفسنا، هل نحن أخطأنا إلى الرب، فلم يستجب بسبب خطايانا؟ وهنا نتذكر قول الرب: "ارْجِعُوا إِلَيَّ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ" (ملا٣: ٧) يقودنا هذا الأمر إلى التوبة. ويكون وصولنا إلى التوبة هو الموعد المناسب الذي حدده الله، بلا تأخير.

*****

٦- ربما يكون السبب هو أن ما ننالـه بسرعة، لا نشعر بقيمته:

وقد لا نشكر عليه، فإن (تأخرت) الاستجابة، يزداد تعلقنا بالمطالبة وشعورنا بقيمة تحقيقها، فإذا ما استجيبت بعد حين، يزداد شكرنا لله ولا ننسى إحسانه إلينا. وهذا يعمق ارتباطنا به، كذلك نحرص على ما نلناه منه فلا نفقده بسرعة...

*****

٧- وربما يصبر الله علينا في الضيقة، لننال بركاتها:

إن استجاب لنا الله في التو واللحظة، ورفع عنا الضيقة، فلا يمكن أن ننال البركات التي ننالها كلما طالت مدة الضيقة، واحتملنا وصبرنا ونأخذ بسبب ذلك أكاليل، بل نأخذ خبرات روحية أيضًا.

ونأخذ فضيلة الصبر والتسليم وانتظار الرب.

*****

٨- وقد يكون السبب فيما نظنه تأخيرًا، هو أن الله يعد لنا بديلًا أفضل مما نطلبه: ذلك لأن الله يعطينا دائمًا ما ينفعنا وما يناسبنا، وليس مجرد الذي نطلبه.

إن الله لا يستجيب حرفية صلواتنا، بل روحها. هو يعرف احتياجاتنا أكثر مما نعرف نحن. وهو يعرف الصالح لنا أكثر مما نعرف نحن. ويكفي أن نقول له إننا نريد، وهو

يختار بحكمته ما يراه نافعًا لنا، وما يراه مطابقًا لمشيئته المقدسة المملوءة حكمة.

*****

٩- ربما شعورنا أن الله قد تأخر علينا، هو تعبير عن عدم إجادتنا لعبارة "لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ" (مت٦: ١٠).

إننا نقولها في الصلاة. ولكننا غالبًا لا ندخل إلى عمقها ولا ندركها ولا نعنيها. فإن تأخرت استجابة ما نطلب، علينا أن نقول له: نحن يا رب لا نفرض عليك مشيئتنا، إنما نصارحك بما في داخلنا من رغبات ومن طلبات. فإن وجدتها نافعة، حققها في الوقت الذي تختاره. وإلا فلتكن مشيئتك، بكل رضى قلوبنا...

إنه تدريب على حياة التسليم، المبنية على الثقة بتدابير الله.

المهم أن ننتظر الرب، بقلب مملوء بالسلام والاطمئنان، شاعرين أن قضيتنا قد استقرت في يد الله الأمينة وفي قلب الله الحنون. وهذا يكفي...

*****

الفصل الحادي عشر

شجعوا صغار النفوس، اسندوا الضعفاء

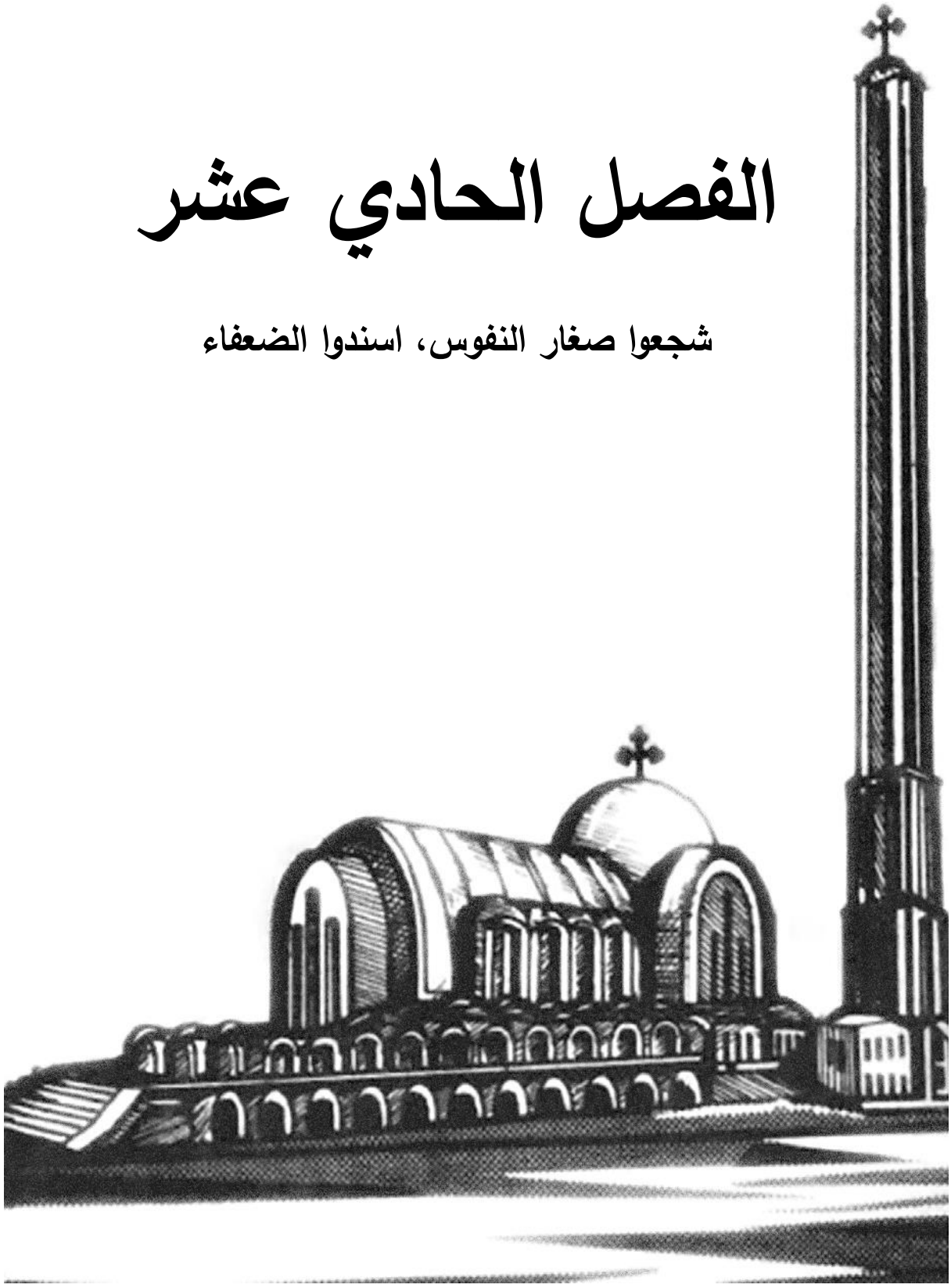

شجعوا صغار النفوس، اسندوا الضعفاء[٨]

الله العطوف

حقًا إن الله يحب أن يكون الإنسان قويًا في شخصيته، قويًا في حياته الروحية، قويًا في احتماله، في خدمته، في فهمه، في كل شيء.

ولكنه مع ذلك هو إله الضعفاء أيضًا.

يسندهم في ضعفهم، يشجعهم ويقويهم، ولا يتركهم... بل عن مثل هؤلاء، قال السيد المسيح: "رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ... لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ... لأُعْطِيَهُمْ جَمَالاً عِوَضًا عَنِ الرَّمَادِ، وَدُهْنَ فَرَحٍ عِوَضًا عَنِ النَّوْحِ، وَرِدَاءَ تَسْبِيحٍ عِوَضًا عَنِ الرُّوحِ الْيَائِسَةِ" (إش٦١: ١ -٣).

******

نعم إنه يسند هؤلاء اليائسين والمنكسرين والنائحين. ويقول عنه:

معين من ليس له معين، ورجاء من ليس له رجاء.

عزاء صغيري النفوس، ميناء الذين في العاصف. أي أنه ميناء السلامة للذين في سفن تتقاذفها الأمواج والعواصف... كما حدث للتلاميذ، في يوم ريح شديدة، وكانت سفينتهم في وسط البحر معذبة من الأمواج. فأبصروه قادمًا إليهم ماشيًا على الماء وقال لهم "أنا هو، لا تخافوا"... وسَكَنَتِ الرِّيحُ (مت١٤: ٢٧، ٣٢).

******

[٨] عن محاضرتين ألقيتا بالكاتدرائية يومي الجمعة ٢٢ أكتوبر١٩٧٦م، ٣٠ أكتوبر ١٩٨٠م.

حقًا إنه معين من ليس له معين، وكمثال ذلك:

شفاؤه مريض بيت حسدا الذي له إنسان يلقيه في البركة...

حينما تقف وحيدًا، وليس لك إنسان يهتم بك، ستجد الله حتمًا إلى جوارك... حينما تهرب من عيسو الجبار الذي يريد أن يقتلك، حينئذ سترى سلمًا بين السماء والأرض، صوت الله يطمئنك قائلًا: "هَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ..." (تك٢٨: ١٥). حينما يطاردك فرعون حتى إلى البحر، وتصغر نفسك، سيشق لك الله في البحر طريقًا...

لا تصغر نفسك أمام الشدائد. وإن صغرت، اسمع قول الرسول:

"شَجِّعُوا صِغَارَ النُّفُوسِ. أَسْنِدُوا الضُّعَفَاءَ" (١تس٥: ١٤).

******

كذلك أنت، إن رأيت إنسانًا حائرًا يائسًا منهارًا، لا تستصغره. وإن رأيته ساقطًا، لا تحتقره، بل اسنده، وقل له كلمة ترفع معنوياته، أعطه كلمة رجاء. افتح له طاقة من نور تضيء له الطريق.

يا أخي إن كنت على قمة الجبل، فلا تحتقر الذين على السفح أو في الوادي، أو حتى الذين في المستنقع... وإن أعطاك الرب نعمة ووصلت، فلا تنظر إلى الناس من فوق، ولا تحتقر الذين لم يصلوا. أو حتى اليائسين وصغار النفوس. بل تذكر قول الرب:

"انْظُرُوا، لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ" (مت١٨: ١٠).

مهما وصلت إليه حالتهم، فالله قادر أن يقيمهم، كما أقام من قبل أغسطينوس وبيلاجية وموسى الأسود... حتى إن كان شجرة غير مثمرة، وعلى وشك أن تقطع، فإن الكرّام الحنون يشاء أن يتركها هذه السنة أيضًا، وينقب حولها ويضع زبلًا، فربما تأتي

بثمر فيما بعد (لو١٣: ٦- ٩) ... إنه إلهنا الطيب الذي قيل عنه:

"قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ" (مت١٢: ٢٠).

ربما يعصب القصبة المرضوضة فتستقيم، وينفخ في الفتيلة المدخنة فتشتعل...

إن الله يعطي فرصة لكل أحد. لأنه لا يشاء موت الخاطئ، بل أن يرجع ويحيا (حز١٨: ٢٣، ٣٢) ... وطالما الإنسان على قيد الحياة، لا تزال أمامه فرصة للتوبة، ولا يفقد الرجاء. فاللص اليمين آمن وعاد إلى الله، وهو في الساعات الأخيرة من حياته على الأرض... لقد كان هو أيضًا قصبة مرضوضة.

******

عبارة جميلة معزية قالها ربنا يسوع المسيح وهي:

"لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ" (يو١٢: ٤٧).

ليست في فمي كلمة دينونة، بل كلمة حب، كلمة خلاص ومغفرة... بل الدينونة التي عليكم أنتم، سأحملها أنا بدلًا منكم، وأمحوها عنكم بدمي... حقًا يا رب فمك حلاوة وكله مشتهيات (نش٥: ١٦). تقول ما جئت لأدين، بينما الدينونة كلها للابن! (يو٥: ٢٢).

******

أمثلة

إن البشرية الضعيفة المسكينة الساقطة، سندها الله بالأنبياء.

حتى عندما رفضوه، أتى ليجتذبهم إليه... عندما تركوه، وحفروا لهم "أَبْآرًا مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَاءً" (إر٢: ١٣)، لم يتركهم بل حدثهم عن ينبوع المياه الحيّة... ولما عبدوا العجل الذهبي، وقالوا: "هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ" (خر٣٢: ٤) ... لم يفنهم الرب، بل رجع عن حمو غضبه، وقبِل شفاعة موسى النبي فيهم... ولا

يزال الرب يصبر ويحتمل، ويقيم الساقطين ويحل المربوطين (مز١٤٥: ١٤).

******

في صغر نفسك قد تيأس من خلاصك!

ولكن الله لا ييأس من اجتذابك إليه.

لقد "جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لو١٩: ١٠). سعى وراء العشارين والخطاة وجلس على موائدهم. وقال: "لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ" "لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ، بَلِ الْمَرْضَى" (لو٥: ٣٢، ٣١) ... مدح العشار الذي لم يجرؤ أن يرفع عينيه إلى فوق، وقد وقف من بعيد... وفضله على الفريسي، وخرج من عنده مبررًا (لو١٨: ١٣، ١٤).

******

حتى المرأة الخاطئة المضبوطة في ذات الفعل.

المرأة الغارقة في الخزي وصغر النفس، التي اجتمع حولها الكتبة والفريسيون ليرجموها... أنقذها الرب من هؤلاء، وقال لها: "وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا" (يو٨: ١١).

وكذلك الخاطئة التي بللت قدميه بدموعها، ومسحتهما بشعر رأسها، رفع معنوياتها، وفضلها على الفريسي، وقال إن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها (لو٧: ٣٧– ٤٧).

******

من أجل معرفة داود النبي، بحنان الله الذي يشجع صغار النفوس، قال له في توبته: **"اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ" (مز٥١: ٧).**

وعبارة "أكثر من الثلج" توضح مدى غنى حنان الله على الخطاة، حتى قال عنه

المرتل في مزموره الجميل المعزي: "بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَلاَ تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ..." قال: "كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ" "لَمْ يَصْنَعْ مَعَنَا حَسَبَ خَطَايَانَا، وَلَمْ يُجَازِنَا حَسَبَ آثامِنَا. لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ. كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا... لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ" (مز١٠٣: ٢- ١٤).

******

إن الله ليس فقط يغفر لنا خطايانا، بل يقول:

"وَلاَ أَذْكُرُ خَطِيَّتَهُمْ بَعْدُ" (إر٣١: ٣٤).

يقول عن الخاطئ التائب: "كُلُّ مَعَاصِيهِ الَّتِي فَعَلَهَا لاَ تُذْكَرُ عَلَيْهِ" (حز١٨: ٢٢)، "كُلُّ خَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ بِهَا لاَ تُذْكَرُ عَلَيْهِ" (حز٣٣: ١٦). ويقول بولس الرسول عن عمل الفداء: "إِنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ" (٢كو٥: ١٩). ويقول المرتل في المزمور: "طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ وَسُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ. طُوبَى لِرَجُل لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً" (مز٣٢: ١، ٢). ويكرر القديس بولس الرسول هذه الآية في رسالته إلى رومية (رو٤: ٨).

فالذي يصيبه صغر نفس بسبب خطاياه، فليتذكر أنها لا تحسب عليه في توبته.

الله يمحوها في التوبة، ولا يعود يذكرها "إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ" (إش١: ١٨). بل "أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ" (مز٥١: ٧).

******

ولنأخذ مثالًا لبطرس الرسول الذي أنكر المسيح:

بل إنه أخذ "يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ!" (مر١٤:

٧١) (مت٢٦: ٧٤). ونسى قوله للسيد: "وَإِنْ شَكَّ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ!" "وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ!" (مر١٤: ٢٩، ٣١) (مت٢٦: ٣٣، ٣٥) ... وهوذا الآن وقد أنكره ثلاث مرات... لذلك وقع في صغر النفس، "وَبَكَى بُكَاءً مُرًّا" (مت٢٦: ٧٥).

ولكن الرب لم يترك تلميذه بطرس لصغر النفس، بل شجعه بأساليب كثيرة.

فبعد القيامة قال للمريمات: "اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ" (مر١٦: ٧). ولم يدمج بطرس وسط التلاميذ، لأنه كان محتاجًا إلى اهتمام خاص ليرفع نفسيته بعد إنكاره... ولما ظهر السيد المسيح لسبعة من تلاميذه عند بحر طبرية، قال لبطرس: "أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هؤُلاَءِ؟ ارْعَ غَنَمِي... ارْعَ خِرَافِي..." (يو٢١: ١٥- ١٧). ليظهر له أنه لم يسقط من درجته الرسولية بإنكاره له... بل إن بولس الرسول يقول عن ظهورات الرب بعد قيامته، "أَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لِلاثْنَيْ عَشَرَ" (١كو١٥: ٥).

******

وبالمثل فعل الرب مع توما في شكه.

كانت نفسه أصغر من أن تؤمن دون أن ترى... كل التلاميذ آمنوا، ما عداه. فلم يتركه الرب إلى شكه وصغر نفسه، بل ظهر له وأراه جروحه. وقال له: "وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا" فآمن توما وقال: "رَبِّي وَإِلهِي!" (يو٢٠: ٢٧، ٢٨).

******

لننظر معاملة الرب لموسى الثقيل الفم واللسان (خر٤: ١٠).

كان موسى يعرف عن نفسه هذا الضعف، وأنه لا يصلح بسببه. وقد قال للرب:

"لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ" (خر ٤: ١٠). وقال له أيضًا: "هَا أَنَا أَغْلَفُ الشَّفَتَيْنِ. فَكَيْفَ يَسْمَعُ لِي فِرْعَوْنُ؟" (خر ٦: ٣٠). ولكن الله شجعه، ولم يتركه لصغر النفس.

بل إن هذا الأغلف الشفتين صار كليم الرب.

وقال له: "الآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ". وها هو هارون أخوك "تُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعْلِمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ... هُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا" (خر ٤: ١٢– ١٦).

******

كذلك شجع الله صغار السن، والخائفين من المسئولية:

لما قال إرميا: "إِنِّي لاَ أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لأَنِّي وَلَدٌ"، قال له الرب: "لاَ تَقُلْ إِنِّي وَلَدٌ... لاَ تَخَفْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ لأُنْقِذَكَ، يَقُولُ الرَّبُّ"، ومدّ الرب يده ولمس فم إرميا وقال له: "هَا قَدْ جَعَلْتُ كَلاَمِي فِي فَمِكَ. اُنْظُرْ! قَدْ وَكَّلْتُكَ هذَا الْيَوْمَ عَلَى الشُّعُوبِ وَعَلَى الْمَمَالِكِ، لِتَقْلَعَ وَتَهْدِمَ وَتُهْلِكَ وَتَنْقُضَ وَتَبْنِيَ وَتَغْرِسَ" (إر ١: ٦– ١٠).

ثم شجعه بالأكثر وقال له: "هأَنَذَا قَدْ جَعَلْتُكَ الْيَوْمَ مَدِينَةً حَصِينَةً وَعَمُودَ حَدِيدٍ وَأَسْوَارَ نُحَاسٍ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ... فَيُحَارِبُونَكَ وَلاَ يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ، يَقُولُ الرَّبُّ، لأُنْقِذَكَ" (إر ١: ١٨، ١٩).

وبنفس الوضع شجع الرب يشوع بعد موت موسى.

لم يكن سهلًا على يشوع أن يملأ المكان الكبير الذي كان يشغله موسى النبي العظيم، لذلك كان صغيرًا في عيني نفسه. ولكن الرب شجعه قائلًا:

"لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لاَ أُهْمِلُكَ

وَلاَ أَتْرُكُكَ. تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ... أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (يش١: ٥ – ٩)..

******

قصة عن القديس الأنبا إيسيذورس قس القلالي:

قيل عنه في البستان: إن أي أخ كان يفشل الآباء في إصلاحه ويطردونه، كان الأنبا إيسيذيروس يأخذه ويطيل أناته عليه حتى يخلص. ولذلك فإن الأنبا موسى، حينما جاء إلى الدير، وكان منظره مخيفًا، حولوه إلى القديس إيسيذيروس. كان الأنبا موسى في أول توبته، حمله ثقيل. وفي إحدى الليالي جاء إلى أبيه الأنبا إيسيذيروس إحدى عشرة مرة. فلما نصحه بالذهاب إلى قلايته، أجاب: "لا أستطيع يا معلم" لأن الأفكار كانت تضغط عليه بشدة.

وأطال القديس أناته عليه، حتى تحول موسى الأسود إلى قديس.

نصائح

حاولوا دائمًا أن ترفعوا من نفسية الناس ومعنوياتهم "أسندوا الضعفاء" إن رأيتم إنسانًا يبكته الكثيرون، وينتقدونه، ويتهكمون عليه، وهو ذليل أمامهم: حاولوا أن تحتضنوه، وتقولوا فيه إن أمكنكم كلمة طيبة... تأكدوا أنه لن ينسى هذا الموقف النبيل منكم كل أيام حياته...

إن هذه رسالة القلوب الكبيرة المحبة الحنونة، نحو صغار النفوس.

******

إن وجدت إنسانًا مربوطًا بالخطية، فلا تعيره، بل فكه من رباطاته.

لا تكن مثل رجل رأى شابًا يصارع الغرق في البحر. فظل يوبخه ويقول له: يا ابني،

ما دمت لا تتقن العوم، فلماذا تنزل إلى البحر؟! فقال له الشاب: أنقذني يا سيدي من الغرق، ثم وبخني بعد ذلك كما تشاء...!

هكذا أنت لا تعيَّر أحد بفشله. بل أعطه رجاء في النجاح.

******

لا تقل: نصحت كثيرًا ولا فائدة. بل أطل أناتك.

هوذا الرسول يقول: "... أَسْنِدُوا الضُّعَفَاءَ. تَأَنَّوْا عَلَى الْجَمِيعِ" (١تس٥: ١٤). إن الانتصار على خطية متأصلة، يحتاج إلى وقت وإلى صبر. فأصبر على الضعفاء، ريثما تفتقدهم النعمة وتنجيهم. واذكر أنك أيضًا تحت الآلام مثلهم. ضع أمامك قول الرسول: "اُذْكُرُوا الْمُقَيَّدِينَ كَأَنَّكُمْ مُقَيَّدُونَ مَعَهُمْ، وَالْمُذَلِّينَ كَأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا فِي الْجَسَدِ" (عب١٣: ٣) ...

******

تذكر أن الذين ثبطوا همة الشعب، لم يسمح لهم الله بدخول أرض الموعد.

أولئك الذين قالوا: "لاَ نَقْدِرْ أَنْ نَصْعَدَ إِلَى الشَّعْبِ، لأَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَّا... قَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ، بَنِي عَنَاقٍ... فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالْجَرَادِ" (عد١٣: ٣١، ٣٣) ... ولم يدخل الأرض سوى يشوع بن نون وكالب بن يفُنه، الذي قال في رجاء: "إِنَّنَا نَصْعَدُ وَنَمْتَلِكُهَا لأَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَيْهَا" (عد١٣: ٣٠) ...

******

ابحث عن النقط البيضاء في حياة الإنسان الخاطئ أو الضعيف. أظهرها وامتدحها.

فهكذا فعل السيد المسيح مع المرأة السامرية، على الرغم من خطاياها. قال لها:

"حَسَنًا قُلْتِ: لَيْسَ لِي زَوْجٌ..." "هذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ" (يو٤: ١٧، ١٨). ووسط هذا المديح شجعها على الاعتراف. وربح نفسها للتوبة...

******

هناك إنسان تشجعه بكلمة طيبة، وآخر بقدوة صالحة، أو بذكر قصص وآيات، أو بتهوين الأمر عليه، أو بالتحدث عن نعمة الله وعملها... كذلك بالتغاضي عن كثير من أخطائه. لأن التوبيخ على كل خطأ قد يوقع في اليأس.

******

الفصل الثاني عشر

الله الذي يبدأ

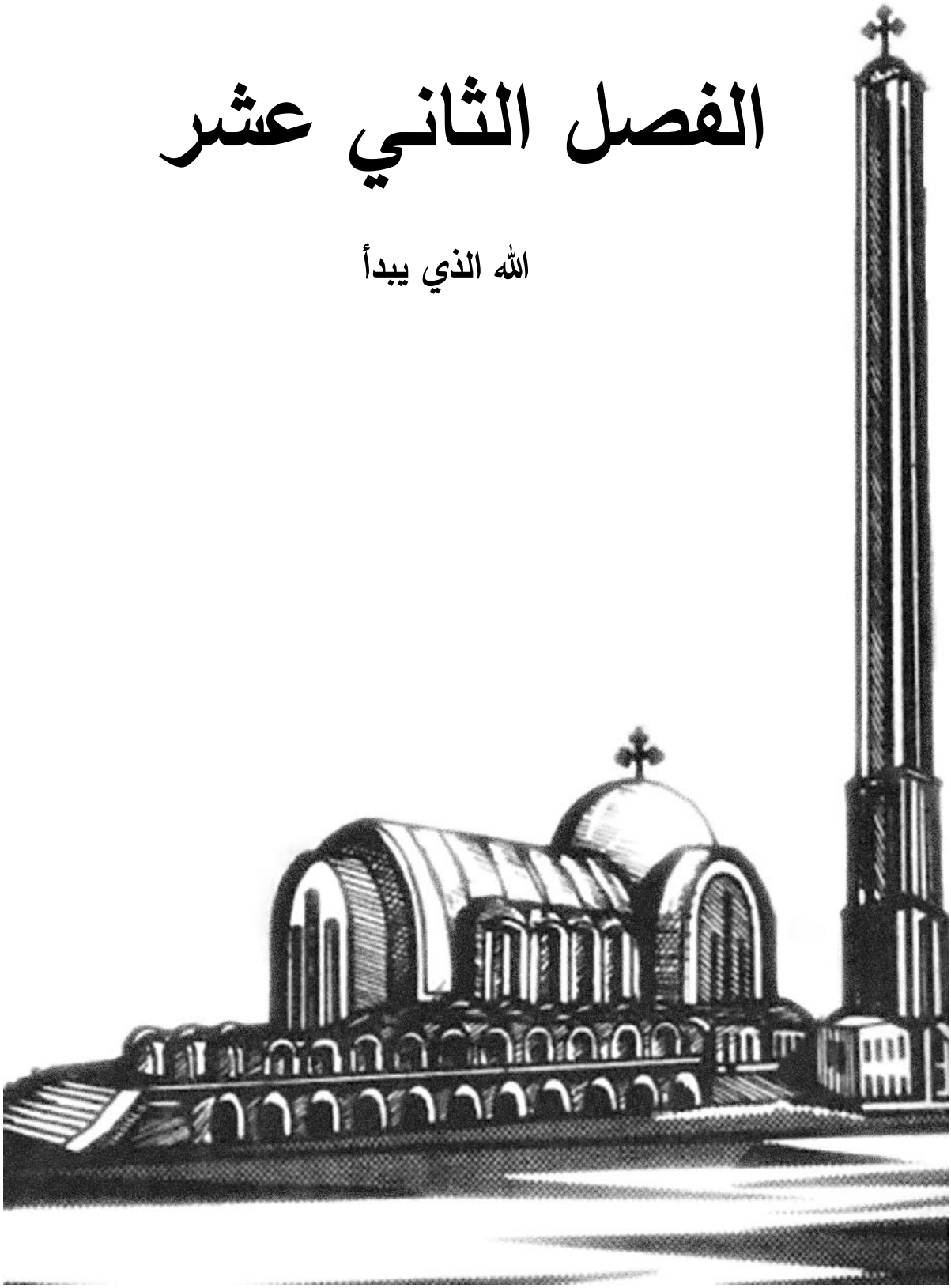

الله الذي يبدأ[٩]

هناك أسلوبان في حياة التوبة، وفي العلاقة بين الله والإنسان:

١- أن يأتي الإنسان إلى الله، فيقبله الله...

وذلك حسب وعد الله الصادق "مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا" (يو٦: ٣٧). وهذا هو الذي حدث للابن الضال: شعر بسوء حالته، وقال أقوم وأذهب إلى أبي. وفعلًا ذهب إليه، فقبله أبوه فرحًا (لو١٥: ١٧- ٢٤). ويطلب الله منا هذه التوبة وهذا الرجوع إليه، فيقول: "ارْجِعُوا إِلَيَّ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ" (ملا٣: ٧).

٢- الأسلوب الثاني: أن يبدأ الله العلاقة مع الإنسان.

هو الذي يذهب إليه. يسعى إلى خلاصه، كما سعى وراء الخروف الضال حتى وجده وحمله على منكبيه فرحًا (لو١٥: ٤، ٥). وعن هذه المبادرة الإلهية، يقول: "هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي" (رؤ٣: ٢٠).

ونود في هذا الفصل، أن نركز على بدء الله بالعمل معنا.

******

الإنسان قد لا يبدأ مع الله، لأسباب عديدة:

ربما لأنه مغلوب من شهواته.

تضغط عليه الشهوة من داخل قلبه، أو تحاربه بشدة من الخارج، وتؤثر عليه وتأسره. بحيث أصبح يحب الخطية، ولا يريد أن يبرأ منها (يو٥: ٦). فماذا يفعل مثل هذا

[٩] من محاضرتين: الأولى في ١٠ يونيو ١٩٧٧م، والثانية في٣ فبراير ١٩٨٨م.

الإنسان؟ هل ييأس ويفقد الرجاء؟ أم أن الله يبدأ العمل معه: يفتقده، ويقرع على بابه، ويجتذبه إليه؟ يقينًا إن هذا يحدث.

******

وربما الإنسان لا يبدأ، لأنه مشغول عن الله بأمور كثيرة:

وهذه المشغوليات لا تترك له وقتًا يتفرغ فيه لله... كما قال الرب لمرثا: "أَنْتِ تَهْتَمِّينَ وَتَضْطَرِبِينَ لأَجْلِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَلكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى وَاحِدٍ" (لو١٠: ٤١، ٤٢)... إنسان ليس لديه وقت لله... ليس لديه وقت للصلاة، ولا للقراءة والتأمل، ولا للخدمة... يحتاج إلى يد قوية، تنزعه من كل هذا...

******

وربما الإنسان لا يبدأ، بسبب الجهل. لا يعرف كيف يبدأ.

مثل أهل نينوى الذين قيل عنهم إنهم: "لاَ يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ" (يون٤: ١١). فبدأ الله معهم، وأرسل إليهم يونان النبي ليهديهم إليه. ومثل شاول الطرسوسي، الذي كان بجهل يضطهد الكنيسة (١تي١: ١٣). فكان لا بد أن يظهر له المسيح ويجتذبه إليه. وأيضًا حينما تأثر بهذا الظهور وآمن، قال: "يَا رَبُّ، مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟" (أع٩: ٦).

عبارة "ماذا أفعل؟" قالها أيضًا الشاب الغني (مت١٩: ١٦). وقالها أيضًا اليهود في يوم الخمسين (أع٢: ٣٧). ويقولها كثيرون...

******

وربما الإنسان لا يبدأ، بسبب الضعف.

فهو يقول: "الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ"، "الإرادة حاضرة عندي، وأما أن أفعل

الحسنى فلست أجد"، "أَرَى نَامُوسًا آخَرَ فِي أَعْضَائِي يُحَارِبُ نَامُوسَ ذِهْنِي، وَيَسْبِينِي إِلَى نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ"، "وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟" (رو٧: ١٨– ٢٤).

إذًا لا بد أن يبادر الله، وينقذ مثل هذا الإنسان ...

وهنا لعل إنسانًا يسأل:

إذا لم أستطع أنا أن أبدأ، هل الله مستعد أن يبدأ معي؟

نعم يا أخي، هو مستعد أن يبدأ. بل هذا هو أسلوبه باستمرار. والكتاب المقدس مزدحم بأمثلة كثيرة، فيها كان الله هو الذي يبدأ، منذ خلق الإنسان، وقبل خلقه أيضًا. ولنحاول أن نتأمل كل هذا معًا...

******

هناك حقيقة ثابتة، يسجلها الكتاب المقدس، وهي:

علاقة الله بالإنسان، الله هو الذي بدأها...

+ بدأت العلاقة بأن الله خلق الإنسان. وطبعًا لو لم يخلقه ما كانت هناك علاقة. وأضاف الله إلى هذا، أنه خلقه على صورته ومثاله كشبهه، ومنحه الروح الذي به ينشئ علاقة معه...

+ وإلى جوار الخلق: لما سقط الإنسان، الله هو الذي بدأ العلاقة.

لم يبدأ الإنسان بالسعي إلى الله ليعترف بخطيته ويطلب المغفرة والمصالحة، بل العكس لقد هرب من الله، وأختبأ وراء الشجر. فذهب الله إليه، وكلمه وشجعه على الاعتراف. ووعده بالخلاص، حينما قال إن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تك٣).

وكأن الله كان يقول لآدم: هل أنت خائف مني يا آدم؟ لا تخف، أنا سأصالحك. هل

أنت مرتعب من الخطية ونتائجها؟ لا تخف. أنا سأغفر لك. سأعد لك طريق الخلاص...

ولا شك أن الله هو الذي بدأ بإعداد هذا الخلاص العجيب.

هو الذي علَّم البشرية عقيدة الفداء والكفارة، وموت نفس بريئة طاهرة عن نفس خاطئة مستحقة للموت. وهو الذي وضع للإنسان شرائع الذبائح والمحرقات، وقواعد النجاسة والتطهير. وهو الذي أعطانا التوبة للحياة (أع١١: ١٨).

والله هو الذي بدأ بالوحي، وأرسل إلينا الأنبياء.

كل ذلك لتعليمنا وإرشادنا، وتوصيل كلمته إلينا. وهو الذي أعطى هؤلاء الرسل "خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ" (٢كو٥: ١٨). حتى أن القديس بولس الرسول قال: "نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (٢كو٥: ٢٠). إذًا الله هو الذي يبدأ عملية المصالحة، ويرسل رسله لتمهيدها.

هو الذي تجسد، ونزل إلينا، ليفدينا ويخلصنا.

وما كنا نحن نعرف شيئًا عن التجسد والفداء، وما كنا نطلبه. ولكن الله أظهر محبته لنا، بهذا الخلاص العجيب "هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو٣: ١٦).

******

وفي علاقته بالإنسان، الله هو الذي بدأ بالدعوة.

سواء بالنسبة إلى النبوة، أو الرسولية، أو الكهنوت...

الله هو الذي دعا أبانا نوح، وكلفه بصنع الفلك، والدخول فيه، ليخلص هو وأسرته، ولكي يستبقي الله حياة على الأرض (تك٦- ٨). وكان الفلك في الماء رمزًا إلى

المعمودية "الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ. الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ" (١بط٣: ٢٠، ٢١).

وكما دعا الله نوحًا، دعا أبانا إبراهيم، ليكون له شعبًا يسير في طريق الخلاص.

أبرام لم يبدأ هذه العلاقة، إنما بدأها الله معه. دعاه ليتبعه في الأرض التي يريه إياها، وباركه. وقال له: "تَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ" (تك١٢: ١– ٣). وأيضًا "يَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ" (تك٢٢: ١٨).

ونفس الموعد أعطاه الرب لأبينا يعقوب، فقال له: "وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ" (تك٢٨: ١٤).

الله هو الذي بدأ، فمنح البركة.

منح البركة منذ البدء لأبوينا الأولين آدم وحواء (تك١: ٢٨). وكرر نفس البركة لأبينا نوح وبنيه (تك٩: ١). ومنح البركة لأبينا إبراهيم (تك١٢: ٢) (تك٢٢: ١٧، ١٨). ولأبينا إسحاق (تك٢٦: ٢٤)، ولأبينا يعقوب (تك٢٨: ١٤).

وكانت أعظم بركة، أن يأتي من نسلهم المسيح، وبه تتبارك جميع قبائل الأرض بالخلاص الذي يقدمه للعالم.

فالخلاص هو الهبة العظمى، الذي بدأ الله بها، وأكملها من أجل محبته للإنسان، لأنه:

"يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١تي٢: ٤).

******

ومن أجل هذا الخلاص دعا الأنبياء والرسل:

دعا موسى النبي، حينما كلمه من العليقة (خر٣: ٤). وذلك لكي يرسله لخلاص

الشعب، وما كان موسى مفكرًا وقتذاك في هذه الدعوة، ولا في السعي لتخليص الشعب، بل اعتذر عن ذلك أكثر من مرة (خر٤: ١٠، ١٣).

ودعا الله أناسًا من بطون أمهاتهم.

كما قال لإرميا الطفل: "قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ" (إر١: ٥). وكذلك يوحنا المعمدان، الذي قال عنه الملاك "وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (لو١: ١٥). ومثل أبينا يعقوب (رو٩: ١-١٣) (تك٢٥: ٢٣).

ومعلمنا القديس بولس الرسول قال عن دعوته: "لَمَّا سَرَّ اللهَ الَّذِي أَفْرَزَنِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَدَعَانِي بِنِعْمَتِهِ..." (غلا١: ١٥). ثم لما حل الوقت المناسب، كان الله أيضًا هو الذي بدأ، فقابله في طريق دمشق، وظهر له بنور مبهر ودعاه (أع ٩).

******

وجميع رسل السيد المسيح، هو الذي دعاهم، بل قال لهم:

"لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ..." (يو١٥: ١٦).

وأكمل قائلًا: "وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ، وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ". وكما اختار الرسل الاثني عشر (مت١٠: ١)، كذلك اختار السبعين أيضًا (لو١٠: ١).

ما فكر بطرس وأندراوس أن يتبعا المسيح، وهما مشغولان بشباكهما. وما فكر متى أن يكون أحد تلاميذ المسيح، وهو موظف في مكان الجباية، وهكذا بالنسبة إلى الباقين... ولكن الرب هو الذي بدأ بتكوين علاقة ودعا كل هؤلاء...

"الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ... وَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا" (رو٨: ٢٩، ٣٠).

هو الذي يناديك من حيث لا تعلم، وحيث لا تتوقع، ويقول لك: "هَلُمَّ وَرَائِي". وهو

الذي يقودك في الطريق، ويمنحك القوة... المهم أن يكون قلبك مستعدًا.

******

إن ظهورات الرب لتلاميذه بعد القيامة، تعطينا فكرة جميلة عن الله الذي يبدأ...

+ في تلك الفترة، كان السيد هو الذي يذهب إلى تلاميذه، وما كانوا هم الذين يأتون إليه. ولعل من الأشياء الجميلة التي تستدعي التأمل: أنه ظهر لهم وهم جلوس في العلية، والأبواب مغلقة (يو٢٠: ١٩).

هل جربت وقتًا، كانت فيه أبوابك مغلقة، ثم اخترقها المسيح ليتحدث إليك؟!

معقول ومقبول، أن يتحدث المسيح إلينا، حينما تكون أبوابنا مفتوحة له (رؤ٣: ٢٠). أما أن يدخل ويظهر ويتحدث إلينا، والأبواب مغلقة، فهذا هو الأمر العجيب الذي يناسب محبته.

على أنه بالنسبة إلى الرسل، كانت أبوابهم مغلقة بسبب الخوف، لا بسبب الرفض...

وظهر السيد لتلاميذه أيضًا، وهم منهمكون في أمور مادية:

الأصحاح الأخير من إنجيل يوحنا، يشرح لنا كيف ظهر السيد المسيح لسبعة من تلاميذه كانوا يصيدون السمك، ومنهم بطرس ويوحنا... فقد حدث أنهم رجعوا إلى صيد السمك (يو٢١: ٣). ومع ذلك ظهر لهم الرب أثناء الصيد. وفي ذلك يقول القديس أغسطينوس "إن المسيح ظهر لبطرس، ليس وهو منهمك في صيد النفوس. إنما ظهر له المسيح، وهو منهمك في صيد السمك...".

لعل في ذلك تعزية لنا أن الرب مستعد أن يظهر لنا، ليس فقط ونحن في عمل روحي، بل حتى ونحن في العمل المادي أيضًا... هو الذي يبدأ: يظهر، ويبدأ الحديث، لصالحنا.

وظهر أيضًا لتلميذين، وهما لا يعرفانه...

إنهما تلميذا عمواس. ظهر لهما وهما لا يعرفانه. بل لما سألهما عن موضوع حديثهما، أجاباه "هَلْ أَنْتَ مُتَغَرِّبٌ وَحْدَكَ فِي أُورُشَلِيمَ وَلَمْ تَعْلَمِ الأُمُورَ الَّتِي حَدَثَتْ فِيهَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ؟"...

وبدأ المسيح من موسى ومن جميع الأنبياء، يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب (لو٢٤: ١٨) ... وأخيرًا انفتحت أعينهما وعرفاه (لو٢٤: ٣١).

إن كنت بعد لم تعرفه، هو مستعد أن يظهر لك، ويكشف لك ذاته، ويفسر لك الأمور المختصة به... ويجعل قلبك ملتهبًا فيك، وهو يوضح لك الكتب (لو٢٤: ٣٣). هو الذي يبدأ...

******

حتى في التوبة، غالبًا ما يبدأ الله عمله فينا. وكل ما يطلبه أن نتجاوب معه.

هو الذي بدأ فأعطانا الضمير، وأعطانا التمييز. وأيضًا روحه القدوس يبكتنا على خطية (يو١٦: ٨) ... كل ذلك لك يدفعنا إلى التوبة.

وإن كنا متراخين، يرسل لنا كلمه تحثنا، عظة مؤثرة، كتابًا نافعًا.

وتتابعنا زيارات النعمة، تدفعنا إلى التوبة.

وربما يسمح الله لنا بمرض أو ألم، ليجعلنا نفيق من غفلتنا، أو يسمح بحادث معين يكون له تأثيره. أو يتكلم في قلوبنا خلال تأثرنا بوفاة أحد أحبائنا. وهكذا إلى سائر الوسائل التي نشعر فيها أن الله ينخس قلوبنا لنتوب. إنما المهم أن نتجاوب، ولا نرفس مناخس (أع٩: ٥).

أترانا نستطيع أن نصل إلى التوبة بمجرد مجهودنا الخاص؟ كلا، فالرب يقول:

"بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا" (يو١٥: ٥).

لنا رجاء إذًا أنه يعمل فينا لأجل خلاصنا. حتى إن كنا لا نريد، نرجو أن يمنحنا هذه الإرادة. ألم يقل القديس بولس الرسول: "... لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ" (في٢: ١٣) لذلك "تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ" (في٢: ١٢)...

******

داود النبي أخطأ، وما كان يشعر بخطورة خطيئته:

وظلت خطية تقوده إلى أخرى، وهو يتمادى ولا يشعر بما هو فيه، إلى أن أرسل الله إليه ناثان النبي، فضرب له مثلًا شعر به بعمق جرمه... ومن هنا بدأت معه قصة التوبة والدموع والندم، والتي سجلها في كثير من مزاميره. وكان الله هو البادئ ليقوده إلى انسحاق النفس...

مثال آخر هو لوط في أرض سادوم.

لقد اختار لوط الأرض المعشبة، مع بيئتها الخاطئة المعثرة، وسكن في سادوم وتمادى فزوج بناته من أهلها. ويقول القديس بطرس في رسالته الثانية عن عمل الرب معه: "وَأَنْقَذَ لُوطًا الْبَارَّ، مَغْلُوبًا مِنْ سِيرَةِ الأَرْدِيَاءِ فِي الدَّعَارَةِ. إِذْ كَانَ الْبَارُّ، بِالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، يُعَذِّبُ يَوْمًا فَيَوْمًا نَفْسَهُ الْبَارَّةَ بِالأَفْعَالِ الأَثِيمَةِ" (٢بط٢: ٧، ٨).

أوقع الله أهل سادوم في السبي. ولم يأخذ لوط درسًا. وبعد أن أنقذه أبرام، عاد مرة أخرى إلى سادوم. ولما أراد الله حرق المدينة أرسل ملاكين يعجلان لوطا للخروج منها "وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.." (تك١٩: ١٦).

ثق أن الله مستعد أن يعمل معك كما عمل مع لوط ويخرجك من أرض الخطية فعليك أن تستسلم لقيادته، ولا تنظر إلى الوراء كما فعلت امرأة لوط...

******

صلّ إذًا وقل: اعمل يا رب معي. ولا تنتظر حتى أبدأ أنا، فربما لا أبدأ!

ابدأ معي كما فعلت مع هؤلاء وغيرهم. خذني من سادوم أخرجني منها، بواسطة ملائكتك القديسين. وليظل يدوي في أذني صوتك الحنون "اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ... وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ... لِئَلاَّ تَهْلَكَ" (تك١٩: ١٧).

أما نحن فليتنا نغني مع المرتل: "نَجَتْ أَنْفُسُنا مِثْلَ العُصْفورِ مِنْ فَخِّ الصَّيّادينَ، الفَخُّ انْكَسَرَ ونَحْنُ نَجَوْنا. عَوْنُنا باِسْمِ الرَّبِّ" (مز ١٢٤: ٧، ٨).

أنت يا رب الذي كسرت الفخ. إذ لا يستطيع عصفور أن يكسر فخ الصيادين...

هل كانت مريم القبطية تفكر في التوبة؟! كلا، بل كانت ماضية لارتكاب مزيد من الخطايا. ثم تدخل الله في حياتها، وحدثت معجزة منه أيقظتها ودفعتها إلى التوبة. واستمر عمل الله معها حتى تحولت إلى ناسكة سائحة...

وبالمثل تدخل الله في حياة أغسطينوس وبيلاجية وسارة، وحوَّل دفة الحياة إلى طريقه هو. وكان هو البادئ...

******

حتى في الخدمة، هو الذي يدعو ويرسل، ويمنح قوة من روحه القدوس لنعمل بها، بل قد يعد لنا كل شيء ويقول لنا:

"أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ" (يو ٤: ٣٨).

"آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ..." كل شيء يعدّه لنا حتى الكلمة: هو

يمنحنا كلمة عند افتتاح فمنا (أف٦: ١٩). وهو الذي يعطي التأثير للسامعين لكي يعملوا بما سمعوه... فإن كان أحد يخاف الخدمة فليذكر دائمًا عمل الله فيها...

******

حتى الأبدية الله هو الذي يبدأ فيقول عن نصيبنا فيها:

"أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا..." (يو١٤: ٢).

مباركة هي محبتك يا رب. ليتك تعد لنا هذا المكان. حتى تأتي وتأخذنا إليك. وحيثما تكون أنت، نكون نحن أيضًا (يو١٤: ٣).

الفصل الثالث عشر

نهاية أمر خير من بدايته

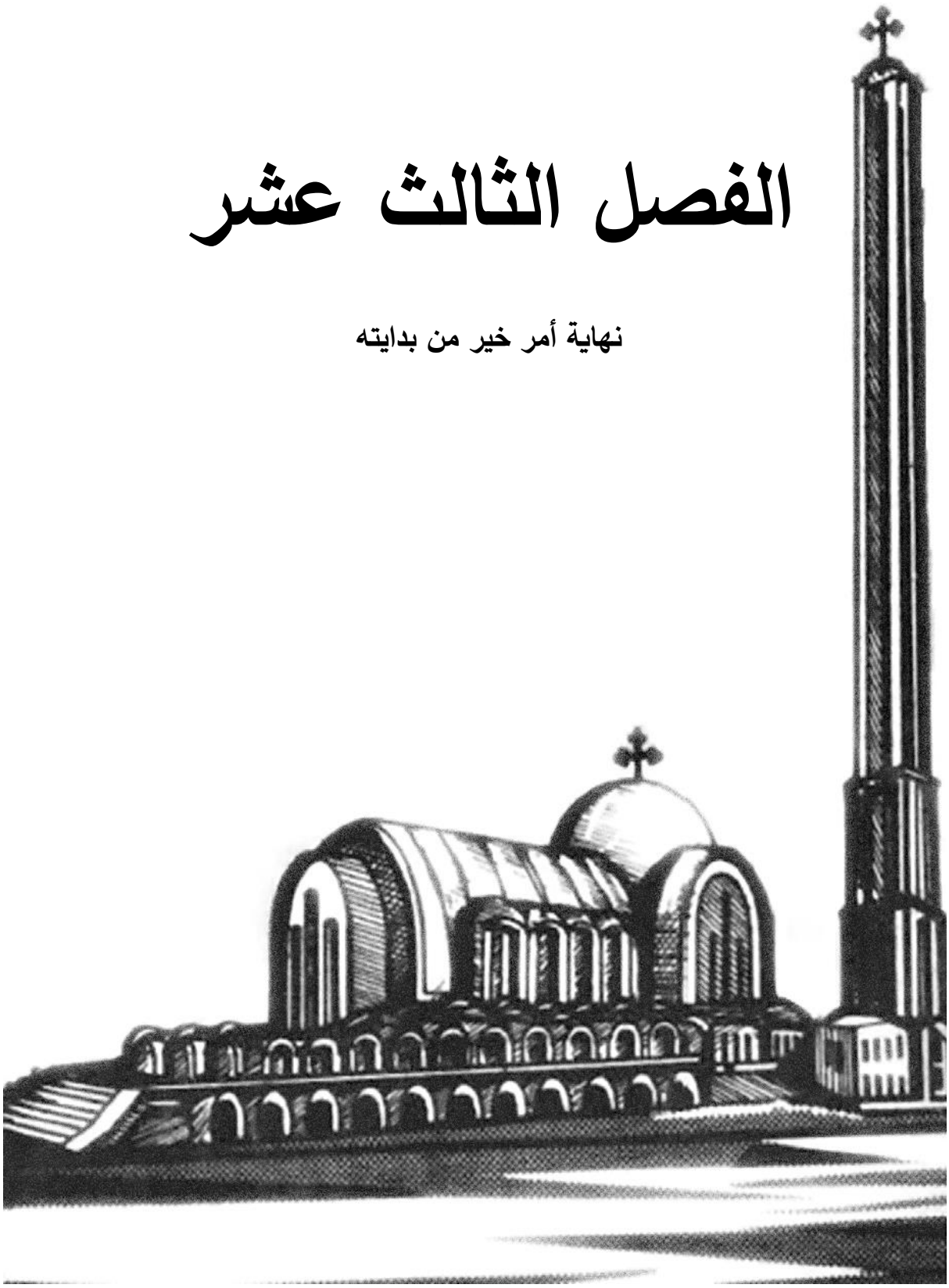

نهاية أمر خير من بدايته

في قصة القيامة نرى كيف أن تعب التلاميذ وخوفهم في يوم الجلجثة والصلب، قد انتهى بفرحهم واطمئنانهم في يوم القيامة.

ولعل هذا يذكرنا بآية هامة وردت في سفر الجامعة:

"نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ" (جا٧: ٨).

طبعًا على شرط أن تكون نهاية طيبة...

والنهاية الطيبة تجعل الإنسان ينسى كل تعبه، ولا يذكر سوى هذه النهاية المفرحة التي تعزيه. تمامًا كما أن قيامة السيد المسيح محت من مشاعر التلاميذ كل ما قاسوه في يوم الصلب.

******

وهكذا نرى الناس دائمًا يبحثون عن النهاية، ويهتمون بها.

وذلك في كل نواحي الحياة: تروي قصة أو تشاهد رواية، وكل ما يهمك هو كيف انتهت القصة أو الرواية... قضية، أو خلاف بين زوجين، أو حادث في الطريق... المهم كيف انتهى؟ ... وقد يشرح لك الراوي تفاصيل ما حدث، ولكنك تسأل في لهفة: والنهاية؟ ... نفس الوضع في أية مباراة، أو أية منافسة، أو أية حرب بين دولتين، أو أي حوار أو تفاوض... السؤال المهم هو: وماذا كانت النهاية أو النتيجة...

******

حتى في الحياة الروحية: الأهمية كلها هي في النهاية... ولذلك فإن القديس بولس الرسول يقول عن رجال الله:

"انْظُرُوا إِلَى نِهَايَةِ سِيرَتِهِمْ فَتَمَثَّلُوا بِإِيمَانِهِمْ" (عب١٣: ٧).

إنه نفس الوضع الذي تذكره الكنيسة في أعياد القديسين... قليل هم الذين تعيد الكنيسة لميلادهم: كالعذراء (أول بشنس) والمعمدان (٣٠ بؤونة) والأنبا شنوده رئيس المتوحدين (٧ بشنس). ولكن كل أعياد القديسين تقريبًا هي في أيام نياحتهم أو أيام استشهادهم، في نهاية سيرتهم، حيث أكملوا جهادهم بسلام.

لأن هناك أشخاصًا بدأوا بداية طيبة، وانتهوا بنهاية سيئة.

من أمثلة أولئك ديماس تلميذ بولس الرسول، الذي كان يذكره ضمن أعمدة الكنيسة مع القديسين مرقس ولوقا وأسترخس. ولكنه قال عنه أخيرًا: "دِيمَاسَ قَدْ تَرَكَنِي إِذْ أَحَبَّ الْعَالَمَ الْحَاضِرَ" (٢تي٤: ١٠). وقال أيضًا عن أمثال ديماس هذا: "... كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتُ أَذْكُرُهُمْ لَكُمْ مِرَارًا، وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بَاكِيًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ، الَّذِينَ نِهَايَتُهُمُ الْهَلاَكُ... وَمَجْدُهُمْ فِي خِزْيِهِمِ" (في٣: ١٨، ١٩).

عجيب عن هؤلاء، أن نهايتهم الهلاك! إذًا المهم هو النهاية.

لأن كثيرين بدأوا بالروح وكملوا بالجسد، مثل أهل غلاطية...

وسليمان الحكيم، بدأ بحكمة فائقة، وانتهى بالأصنام (١مل١١) ... نرجو أن تكون له نهاية أخرى فاضلة، وهي زهده الذي ورد في سفر الجامعة دليلًا على توبته. وهنا نقول: "نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ" أو هكذا قال الوحي الإلهي على فم سليمان...

******

قصص نهايات طيبة

ويحكي لنا الكتاب قصص نهايات طيبة، نذكر من بينها:

١- قصة **يوسف الصديق**، التي بدأت بخيانة إخوته وقسوتهم، وبيعهم له كعبد، واشتغاله خادمًا في بيت فوطيفار، ثم تلفيق تهمة له، وإلقائه في السجن. ولكن المهم هو

النهاية، التي صار فيها أبًا لفرعون (تك٤٥: ٨) والمتسلط على كل أرض مصر، وفرحته بلقاء أبيه وإخوته الذين بكوا بين يديه طالبين المغفرة. حقًا إن نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ:

نفس الوضع نقوله عن دانيال والثلاثة فتية:

دانيال ألقي في جب الأسود. ولكن انتهى الأمر بأن الله أرسل ملاكه فسدَّ أفواه الأسود (دا٦: ٢٢). والثلاثة فتية ألقوهم في أتون النار، ولكن انتهى الأمر بأن رأوهم وسط النار بلا أذى، وقد سار معهم رابع شبيه بابن الآلهة (دا٣: ٢٥).

وانتهى الأمر في القصتين بعبادة الإله الحق، وتمجيده في كل المملكة أكثر من كل آلهة الأمم. حقًا إن نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ.

******

ونفس الكلام نقول عن **أيوب الصديق** الذي تعرض لتجربة قد تفوق احتمال البشر، وفقد أولاده وماله وصحته وكرامته... وبلغت التجربة ذروتها. ولكن ماذا كانت النهاية؟ يقول الكتاب: "وَرَدَّ الرَّبُّ سَبْيَ أَيُّوبَ... وَزَادَ الرَّبُّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لأَيُّوبَ ضِعْفًا... وَبَارَكَ الرَّبُّ آخِرَةَ أَيُّوبَ أَكْثَرَ مِنْ أُولاَهُ... وَعَاشَ أَيُّوبُ بَعْدَ هذَا مِئَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَرَأَى بَنِيهِ وَبَنِي بَنِيهِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَجْيَال..." (أي٤٢: ١٠– ١٦) ... حقًا إن نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ.

******

ويعوزني الوقت إن تحدثت عن النهايات الطيبة التي ذكرها الكتاب في **تقديم إسحاق محرقة**، وفي بناء **نحميا** لأسوار أورشليم بعد أن تهدمت وأحرقت أسوار المدينة بالنار (نح١)، وكيف نصره الله أخيرًا. كذلك **قصة المسبيين في بابل**، وكيف عادوا أخيرًا، بعد أن بكوا على أنهار بابل، وعلقوا قيثاراتهم على الصفاف، وقالوا: "كَيفَ نُسَبِّحُ تَسْبِحَةَ

الرَّبِّ في أَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟" (مز ١٣٧: ٤). كلها نهايات طيبة، نقول فيها: "نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ".

******

نفس الوضع نقوله أيضًا في كل قصص التائبين.

كلما نذكر حياة القديس أوغسطينوس، وكيف بدأ حياة مستهترة ماجنة، وكذلك القديس موسى الأسود، وكيف بدأ قاتلًا قاسيًا. والقديسة مريم القبطية، والقديسة بيلاجية، والقديسة سارة، وكيف بدأن بحياة الزنا، وانتهت حياتهن كقديسات عظيمات. ألسنا نقول عن حياة كل من هؤلاء التائبين والتائبات "نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ"...

إذًا على كل واحد أن يبحث في كل أمر: كيف تكون النهاية؟

كل طريق تسلك فيه اسأل نفسك: ما نهاية هذا الطريق؟ وكذلك فكر بنفس التفكير في كل مشروع تبدؤه، وكل علاقة تكونها مع آخرين...

شاب مثلًا يحب فتاة ليست من دينه، عليه أن يفكر ماذا تكون نهاية هذه العلاقة؟ ما مصيرها وما مصيره؟! إنسان يختلف مع زوجته، ويحتدم الخلاف بينهما بلا صلح، فليفكر أيضًا: ماذا ستكون نهاية هذا الخلاف، وإلى أين يقوده؟! شاب يبدأ التدخين، ولو بسيجارة واحدة مجاراة لزملائه، أو تجربة لطعم التدخين، عليه أن يفكر كثيرًا: ما نهاية هذا الأمر.

وبنفس الطريقة في كل ممارسة يمكن أن تتحول إلى عادة:

يسأل الإنسان نفسه: وما نهاية هذه الممارسة؟

بل كل لفظة يقولها، وكل غضب يشتغل في داخله، فليسأل نفسه: وما النهاية؟ وماذا ستكون ردود الفعل وتصرفات الطرف الآخر؟ وإلى أين ينتهي به الغضب؟ وإلى أين

تنتهي به الكلمة غير المنضبطة.

******

ذلك أيضًا في مشكلة تحل بك، لا تيأس ولا تضطرب، بل قل لنفسك: "نِهَايَةُ أَمْرٍ خَيْرٌ مِنْ بَدَايَتِهِ".

قل لنفسك: "مصيرها تنتهي"... هذا الموضوع لا بد ستكون له نهاية. والنهاية في يد الله. والله رؤوف وحنون. وبلا شك "نهاية الأمر ستكون خيرًا من بدايته"...

وهذا اللون من التفكير، لا يكون فقط بالنسبة إلى مشاكلك أنت وحدك، وإنما أيضًا بالنسبة إلى كل مشكلة أو ضيقة تحل بمعارفك وأصدقائك، بل وبالكنيسة نفسها...

******

لعل فكر الشهداء والمعترفين أيضًا كانت تدور به هذه الآية:

ما نهاية العذاب والموت؟ أليس هو الوصول إلى العالم الآخر؟ إلى الفردوس، إلى الأكاليل، إلى النعيم الأبدي في نهاية الأمر كله. وهذا بلا شك أفضل جدًا. إذًا أين شوكتك يا موت؟ لقد زالت. ونهاية الأمر خير من بدايته...

الأبدية بلا شك هي نهاية أفضل...

العالم الآخر هو عالم أفضل، حيث "مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: ما أعده الرب لمحبي اسمه القدوس" (١كو٢: ٩) ... والجسد الروحاني السماوي الذي نعيش به بعد القيامة (١كو١٥: ٤٤- ٤٩) لا شك إنه أفضل من جسدنا المادي هذا... وفي الأبدية عشرتنا مع الله وملائكته وقديسيه، هي أفضل بما لا يقاس من عشرة هذا العالم الحاضر. ووجودنا في عالم كله خير، هو أفضل من وجودنا هنا، حيث يوجد الخير والشر، وحيث يعيش الزوان إلى جوار الحنطة...

إذًا الأبدية أفضل. فلماذا نخافها؟ ولماذا لا نستعد لها.

******

ولعلنا في الضيقات نذكر العتاب الذي قدمه إرميا النبي لرب المجد قائلًا له: "أَبَرٌّ أَنْتَ يَا رَبُّ مِنْ أَنْ أُخَاصِمَكَ. لكِنْ أُكَلِّمُكَ مِنْ جِهَةِ أَحْكَامِكَ: لِمَاذَا تَنْجَحُ طَرِيقُ الأَشْرَارِ؟ اِطْمَأَنَّ كُلُّ الْغَادِرِينَ غَدْرًا!" (إر١٢: ١).

ويجيب القديس أغسطينوس عن هذا السؤال بالنظر إلى النهاية: فيقول إن الأشرار كالدخان، يرتفع دائمًا إلى فوق. وفيما يرتفع وتتسع رقعته يتبدد. بينما النار تبقى أسفل، ولكنها ثابتة وقوية.

لذلك فعلى الإنسان أن يهتم بالنهاية قبل كل شيء، مهما كان بدء الأمر فيه تعب أو ضيق...

نهاية طيبة مع بداية متعبة

الحياة الروحية، تبدأ بالباب الضيق والطريق الكرب (مت٧: ١٣، ١٤)، ولكن هذا الضيق يؤدي إلى النعيم الأبدي بينما "وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ"... ولذلك ما أجمل قول المرتل:

"الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالدُّمُوعِ يَحْصُدُونَ بِالابْتِهَاجِ" (مز١٢٦: ٥).

******

الفصل الرابع عشر

تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ أَمْرٌ

(أي ٤٢: ٢)

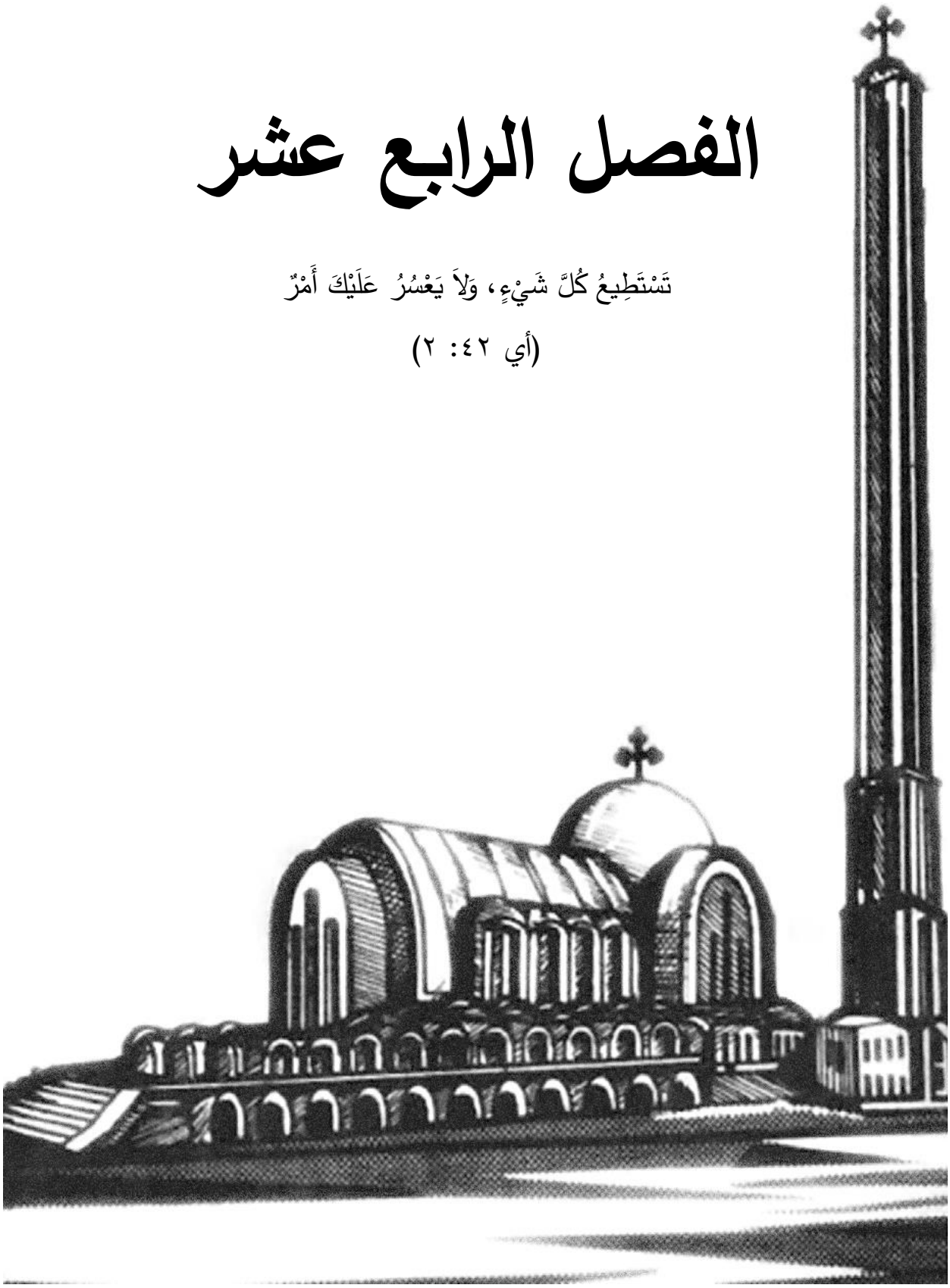

تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر[١٠]

إن أعمال الله عجيبة، تدل على قوته الفائقة للعقل... يقف أمامها الإنسان منذهلًا، لا يملك إلا أن يردد عبارة قالها من قبل القديس أيوب الصديق:

"عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ أَمْرٌ" (أي٤٢: ٢).

إننا نقرأ في الكتاب المقدس عجبًا... من قصص المعونة، وقصص التوبة وتغيير الحياة، ومن قصص الإيمان أيضًا... حتى ليقف الإنسان منذهلًا، يقول من أعماقه: من كان يظن، أن مثل هذا سيحدث؟ ...

من كان يظن؟

خذوا كمثال الطفل موسى...

الطفل موسى

طفل صغير، وُلد في عصر مظلم، وكان محكومًا عليه بالموت قبل أن يولد، وقد أخفاه أبواه خوفًا لمدة ثلاثة أشهر، وإذ لم يستطيعا إخفاءه أكثر، وضعاه في سفط (سبت)، وألقياه عند حافة النهر، في المياه...

من كان يظن أن هذا الطفل المحكوم عليه بالموت، والملقى في الماء، يصير نبي الله العظيم، وكليم الله...؟!

يصير موسى النبي، الذي نُسبت الشريعة إلى اسمه، فيقال شريعة موسى، وناموس موسى... بل يصير رجل المعجزات والآيات، الذي شقّ البحر الأحمر بعصاه، وضرب الصخرة فتفجرت ماء، وأنزل من السماء المنّ والسلوى...!

---

[١٠] ألقيت في الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ٢٤ سبتمبر ١٩٧٦م

من كان يظن أن هذا المحكوم عليه بالموت من فرعون، يعيش أربعين سنة في قصر فرعون، كأحد الأمراء، ويدعي ابن ابنة فرعون... ويصبح فيما بعد القوة الجبارة التي يعمل لها ألف حساب...

يصير الإنسان الذي يصرخ أمامه فرعون ويقول أخطأت (خر٩: ٢٧)، ويتضرع إليه أكثر من مرة أن يصلي من أجله، ليرفع الرب عنه الضربات.

من كان يظن أن الطفل الصغير الملقى في الماء، يصبح مصيره هكذا؟ ولكنها يد الله حينما تتدخل في الأحداث وتدبر مصائر الناس... إنه الله الذي قال له أيوب الصديق: "عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ أَمْرٌ".

قصة الطفل موسى تعطينا درسًا في الرجاء، أن الله يستطيع أن يحول الضعف إلى قوة، ويغير المصائر حسبما يشاء...

حقًا إن الله يستطيع أن يعمل أعمالًا عجيبة لا تخطر على بال.

إننا ننظر إلى الحاضر فقط. وقد نرى فيه أمورًا صعبة معقدة، تجلب الحزن أو اليأس. أو قد نرى مخاطر ليس من السهل الخروج منها... بينما يكون المستقبل، الذي يمسكه الرب في يده، هو غير الذي نراه في الحاضر، غيره تمامًا، وربما عكسه تمامًا.

ليتنا بدلًا من أن ننظر إلى الحاضر المتعب الذي أمامنا، ننظر بالرجاء إلى المستقبل المبهج الذي في يد الله...

الأرض الخربة

* هذا الرجاء وضعه الله أمامنا، منذ الآيات الأولى التي تتحدث عن قصة الخليقة، حيث يقول الوحي الإلهي:

"وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ" (تك١: ٢).

إنها صورة كئيبة للطبيعة من أول القصة. ولكن ليس من الصالح أن نقف عند حدود هذه الصورة، فالقصة لم تتم فصولها...

فمع وجود هذه الصورة الكئيبة، كان هناك ما يبعث الرجاء... كانت هناك عبارة "وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ" وماذا أيضًا؟ "وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ" (تك١: ٣، ٤).

وهكذا فتحت أمام الصورة الكئيبة المظلمة نافذة من نور.

وإذا كل شيء قد تغير... وبدأت يد الله تعمل: تنظم هذه الطبيعة، وتنسقها، وتخلق فيها الحياة، وتضع لها النظم، وتلبسها ثوبًا من الجمال والبهاء، وينظر الله إلى كُلِّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا (تك١: ٣١) ...

من كان يظن أن الطبيعة الخربة، الخاوية، المغمورة بالمياه، المغطاة بالظلمة، تتحول إلى هذا الجمال الذي نعيش فيه، الأشجار والأزهار والأثمار، والبحار والأنهار، والطيور والفراشات ذات الألوان، وجمال السماء والقمر والنجوم، والجبال والتلال والبحيرات، جمال يتغنى به الشعراء. ويبدع في رسمه الفنانون.

إن قصة الطبيعة في نشأتها، فيها رمز، وفيها رجاء.

إنها رمز لكل حياة خربة وخالية ومظلمة، وتنتظر في رجاء قول الرب: "لِيَكُنْ نُورٌ"... تنتظر يد الله في الأيام الستة... حتى تتكامل صورتها، وتنتهي إلى عبارة "حَسَنٌ جِدًّا"...

فلا تقف يا أخي عند عبارة "خربة وخالية" وتكتئب... إنما تطلع إلى المستقبل في رجاء، وانتظر الرب... وفي كل يوم يمر عليك. كلما يقول الوحي الإلهي "وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ" اهتف من كل قلبك "يا جَمِيعَ الأُمَمِ صَفِّقوا بَأْيْدِيكُم، هَلِّلوا لِلهِ بِصَوْتِ الابْتِهاجِ" (مز٤٧: ١)، قد علمت يا رب أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر...

الله قادر أن يغير كل شيء... إلى أفضل، وإلى العكس.

وليس المهم عنده البدايات، وإنما ما تنتهي إليه الأمور.

العاقر

من الآيات الجميلة في الرجاء، نشيد العاقر في سفر إشعياء:

"تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ... لأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ (التي ليس لها زوج) أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ... أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ... لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ، وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا، وَيُعْمِرُ مُدُنًا خَرِبَةً. لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزَيْنَ" (إش٥٤: ١- ٤).

هناك إذًا رجاء للعاقر، ليس فقط أن تلد، إنما بالأكثر أن يرث نسلها مدنًا.

هذه العاقر ترمز إلى الأمم الذين كانوا غرباء عن الله، مستوحشين.

وترمز إلى كل نفس خاطئة بعيدة عن شركة الروح وثمار الروح. هذه لم يعطها الرب مجرد رجاء أن يكون لها نسل وثمر... إنما قال لها بالأكثر "وسعي خيامك... ستمتدين يمينًا ويسارًا".

ليس فقط يكون لك صبر ورجاء، إنما ترنمي.

افرحي بالرجاء. ليس بعقمك، إنما بالوعد الذي سيتحقق.

حقًا يا رب أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر.

قصص معونة

من كان يظن أن داود الطفل سينتصر على جليات الجبار؟

ولكن داود كان عنده الرجاء، الذي به قال لجليات: "الْيَوْمَ يَحْبِسُكَ الرَّبُّ فِي

يَدِي..." (١صم١٧: ٤٦).

ولولا هذا الرجاء ما تقدم داود في ثقة لمحاربته. ولم يخف مطلقًا، بينما كان الجيش كله خائفًا.

******

وبالرجاء دخل مار مرقس الرسول كارزًا في مصر.

لم يكن له فيها شعب ولا كنيسة. وكانت هناك العبادات الفرعونية، واليونانية، والرومانية، والديانة اليهودية، والفلسفة الوثنية، ومدرسة الإسكندرية. وسيف الدولة الرومانية الحاكمة، ودسائس اليهود...

من كان يظن أن مرقس الشاب، ينتصر على كل المعوقات، وينشر الإيمان في كل مصر؟ حقًا إن الله يستطيع كل شيء، ولا يعسر عليه أمر. ويعجبني هنا قول الكتاب: **"مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْجَبَلُ الْعَظِيمُ؟ أَمَامَ زَرُبَّابِلَ تَصِيرُ سَهْلاً!" (زك٤: ٧).**

******

حقًا إننا بالرجاء نرى كل شيء سهلًا.

بالرجاء، نرى طريقًا مفتوحًا لنا داخل البحر. ونسمع قول موسى النبي: "الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ" (خر١٤: ١٤).

بالرجاء نثق أن عصا أليشع، إن وضعت على الغلام سيقوم.

بالرجاء نثق أننا سندخل الأرض، حتى إن تهنا في البرية أربعين عامًا.

بالرجاء صلى يونان وهو في بطن الحوت. كان له رجاء أنه سيخرج ويعود يرى هيكل الله مرة أخرى (يون٢: ٤).

******

بالرجاء بطرس لم ييأس بعد إنكاره.

كان له رجاء أن الرب سيغفر ويقبله كما كان رسولًا...

حقًا من كان يظن أن هذا الذي خاف، وأنكر الرب أمام جارية، سيمكنه أن يقف أمام رؤساء الكهنة، ويقول لهم في شجاعة: "يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعَ اللهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ" (أع٥: ٢٩). ويحتمل من أجل الرب، ويكرز ويموت شهيدًا.

******

إن قصص كرازة الرسل – يعطينا دروسًا في الرجاء.

"اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ" (١كو١: ٢٧).

وهذه الفئة القليلة الضئيلة، استطاعت أن تقف أمام جبروت الدولة الرومانية ودسائس اليهود. والذين لا قول لهم ولا كلام، إلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم (مز١٩: ٣، ٤). وفي حوالي ٣٤ عامًا، استطاعوا أن ينشروا المسيحية في كل الشرق الأوسط، ومصر، وتركيا، واليونان، وروما، وبقاع كثيرة في أوربا وأسيا وإفريقيا...

ألا يعطينا هذا الرجاء في عمل الله فينا لأجل ملكوته.

******

من كان يظن أن نحميا الأسير، يأخذ معونة يعيد بها بناء سور أورشليم؟

ولكن الله لا يعسر عليه أي أمر.

حتى إن أُلقي دانيال في جب الأسود، يمكن أن يرسل الله ملاكه فيسد أفواه الأسود (دا٦: ٢٢) ... حتى إن أُلقي الفتية في أتون النار، لا يصيبهم ضرر ويتمشى الرب معهم وسط النار (دا٣: ٢٥) ... حتى إن أُلقي يوسف في السجن، يخرج منه للحكم.

******

من كان يظن أن شاول الطرسوسي مضطهد الكنيسة، يتحول إلى أكبر كارز بالمسيحية، ويتعب أكثر من جميع الرسل (١كو١٥: ١٠).

ومن كان يظن أن أريانوس والي أنصنا، أقسى ولاة دقلديانوس وأعنفهم في تعذيب الشهداء، يؤمن أخيرًا ويصير شهيدًا... وكذلك لونجينوس الجندي الذي طعن المسيح بالحربة...

علمت يا رب أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر...

حقًا إنه من أعظم معجزات الرب، قدرته على تغيير النفوس.

******

إن قصص التوبة تعطينا رجاءً عجيبًا. وهي كثيرة جدًا.

من كان يظن أن مريم المجدلية التي أخرج الرب منها سبعة شياطين (لو٨: ٢)، تصير مبشرة للرسل بالقيامة؟

من كان يظن أن مريم القبطية الزانية تصير من السوّاح؟ ونفس الأسلوب نتحدث به عن أغسطينوس وموسى الأسود وغيرهما.

******

كل شيء مستطاع

كون أن الله يستطيع كل شيء (مت١٩: ٢٦) هذا أمر طبيعي...

ولكن هوذا بولس الرسول يقول: "أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي" (في٤: ١٣). ولكن أكبر آية تدعو إلى الرجاء هي:

"كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ" (مر٩: ٢٣).

بهذا الرجاء ننال قوة ننتصر بها في حياتنا.

أما الشيطان فطريقته أن يدفع الناس إلى اليأس، وإلى الخوف، والتردد، والشعور بالضعف والعجز، لكي يشل حركتهم... ويشدهم بثقل الصليب، ويخيفهم من الباب الضيق والطريق الكرب، حتى ما يستطيعون التقدم خطوة واحدة. أما أنت فقل مع بولس الرسول:

"أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي".

الذي حوَّل الطرسوسي يستطيع أن يحولني. والذي منح التوبة لأوغسطينوس يمكنه أن يتوبني. والذي أعان داود على جليات يمكنه أن يعينني. والذي قبل المزدرى وغير الموجود يقبلني.

الرجاء يعطي قوة على العمل، وعدم التفكير في الفشل.

إننا لا نعترف بالفشل إطلاقًا، ما دامت يد الله معنا.

كل شيء يدعو لليأس، نضع أمامه قوة الله غير المحدودة، وتدخل الله بكل محبته لتغيير الأمور إلى أفضل...

ما أكثر قول الله: لا تخف. لا تخافوا...

إنه لم يسمح لموسى أن يخاف من ملاقاة فرعون (خر ٤). ولم يسمح لإرميا أن يخاف لصغر سنه. وقال ليشوع بن نون بعد موت موسى النبي "لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ... لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ... تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ" (يش١: ٥، ٩) ... إن إيمانك بعمل الله معك يعطيك رجاء، ثم انظر إلى هذا الوعد العجيب جدًا، في قول الرب:

"مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا"

(يو١٤: ١٢).

من نحن يا رب أمام هذا الوعد؟ إنه أكبر منا. ولكن عجيبة هي محبتك ووعودك. ولكننا نؤمن بمحبتك وبكرمك في العطاء، وتدخلك للمعونة، ونؤمن أيضًا بأن "الْحَرْبَ لِلرَّبِّ" (١صم١٧: ٤٧)، والله ليس لديه مانع "أَنْ يُخَلِّصَ بِالْكَثِيرِ أَوْ بِالْقَلِيلِ" (١صم١٤: ٦).

الله قادر أن يغلب بجيش يشوع.

وقادر أن يغلب بحصاة داود.

مهما كنت ضعيفًا أو صغيرًا، الله قادر أن يعمل بك وفيك، كما عمل في إرميا الطفل، وداود الصبي. واستخدم صموئيل الطفل ليبكت به عالي الكاهن العظيم (١صم٣: ١٠– ١٨).

ما دامت الحرب للرب، اعتمد عليه إذن، وليكن رجاؤك فيه، مهما وقفت ضدك خطية أو شهوة، تجربة أو مشكلة. ومهما وقف ضدك الناس الأشرار.

وتذكر قصص رجال الله، الذين تقووا من ضعف (عب١١: ٣٣، ٣٤) وصاروا أشداء في الحرب، وقهروا ممالك...

هؤلاء هم جبابرة، الذين لا يخافون.

لا تضعف. لا تهزك التجارب ولا الضيقات، ولا الخطايا ولا الشهوات، ولا الأعداء. كن كالبيت المبني على الصخر، الذي لم تقوّ عليه الأمطار ولا الرياح (مت٧: ٢٥). كن كالجنادل التي في مجرى النيل، ثابتة لا تقوى عليها المياه.

ضع أمامك بعض الآيات التي تعزيك وتقويك.

"إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي" (مز٢٣: ٤) "إِنْ

يُحارِبَنِي جَيشٌ فلَنْ يَخافَ قَلْبي. وَإِنْ قامَ عَليَّ قِتالٌ فَفي هَذا أنَا أطَمْئِنُّ" (مز٢٧: ٣) " مِرارًا كَثيرةً حارَبوني مُنْذُ صِباي... وإِنَّهُم لَمْ يَقْدِروا عَلَيَّ... الرَّبّ صِدّيقٌ هُوَ، يَقْطعُ أعْناقَ الخُطاةِ" (مز١٢٩: ٢، ٤). "الفَخُّ انْكَسَرَ ونَحْنُ نَجَوْنا. عَوْنُنا بِاسْمِ الرَّبِّ..." (مز١٢٤: ٧، ٨) "دُفِعْت لأَسْقُطَ والرَّبّ عَضدَني. قُوَّتي وتَسْبِحَتِي هُوَ الرَّبُّ" (مز١١٨: ١٣، ١٤).

تذكر سير القديسين الذين لم يخافوا مطلقاً، ولم يفشلوا...

****

الفصل الخامس عشر

أبصرت بابًا مفتوحًا في السماء

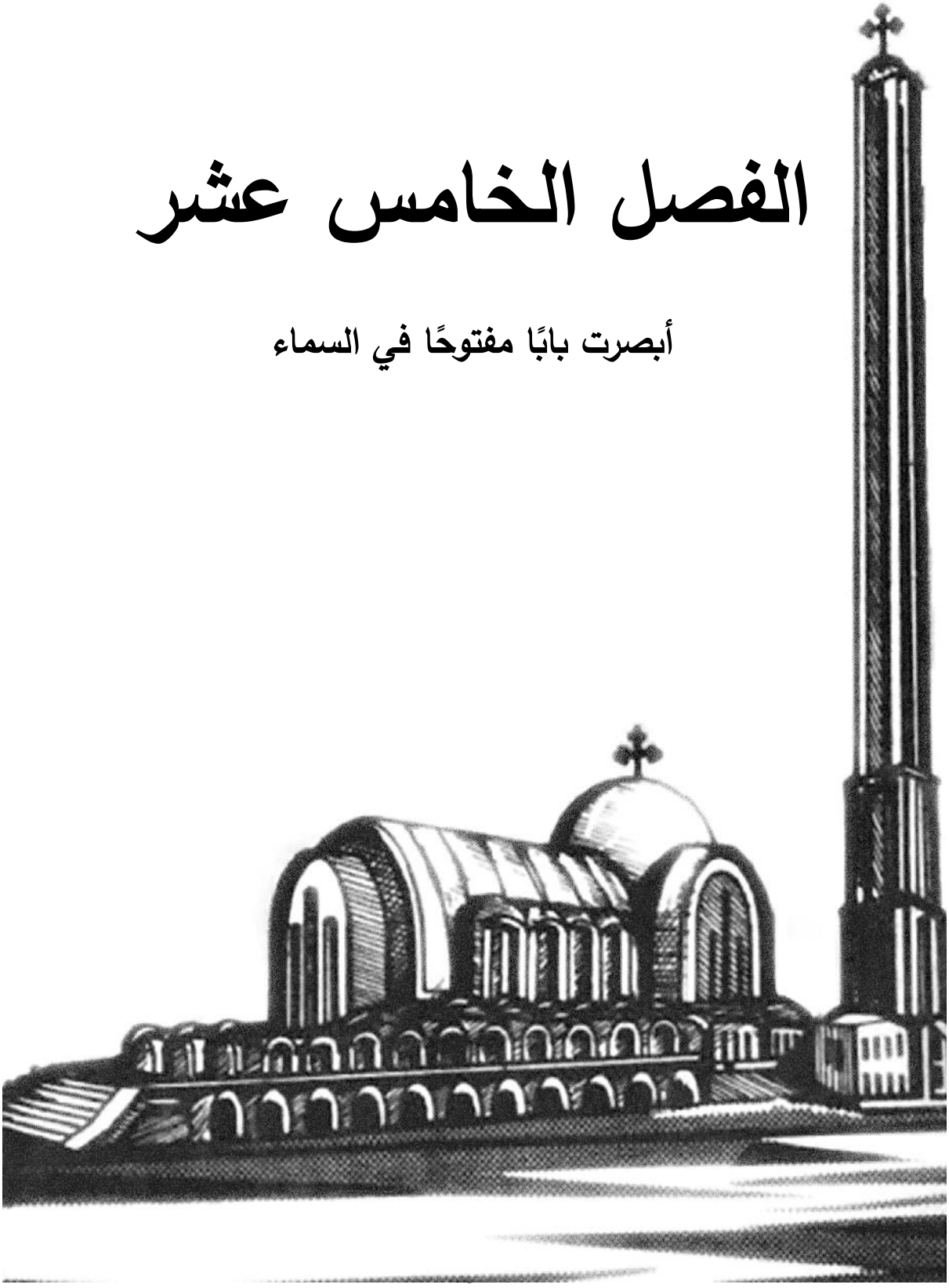

أبصرت بابًا مفتوحًا في السماء

قال هذه العبارة وهو منفاه في جزيرة بطمس، وفي الرؤيا الذي يقول في أوله: "أَنَا يُوحَنَّا أَخُوكُمْ وَشَرِيكُكُمْ فِي الضِّيقَةِ وَفِي مَلَكُوتِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَصَبْرِهِ..." (رؤ١: ٩).

وعلى الرغم من أنه كان بعيدًا عن كل التعزيات والمعونات البشرية، إلا أن التعزيات الإلهية لم تبتعد عنه. فرأى السيد في تلك الجزيرة، وتسلم منه رسائل. ثم يقول بعد تلك الرؤيا:

"بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ... وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ..." (رؤ٤: ١، ٢). إنها تعزية عجيبة لهذا الرسول العظيم، وهو في ضيقته وفي منفاه، تذكرنا بقول الرب لملاك كنيسة فيلادلفيا:

"هَئَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ" (رؤ٣: ٨).

إنها كلمة من الله "الَّذِي يَفْتَحُ وَلاَ أَحَدٌ يُغْلِقُ، وَيُغْلِقُ وَلاَ أَحَدٌ يَفْتَحُ" (رؤ٣: ٧).

كلمة عزاء، كلما نتذكرها نمتلئ بالرجاء، ونجد فرحًا بهذا الباب المفتوح في السماء.

*****

حقًا حينما تنغلق جميع الأبواب، يبقي باب الله مفتوحًا، ولا يستطيع أحد أن يغلقه...

وهكذا يطمئن الإنسان مهما كانت جميع الأبواب مغلقة في وجهه. فالله الحنون المحب بمكنه أن يفتح ولا أحد يغلق... من أجل هذا يعيش أولاد الله في فرح كامل، لا تهتز ثقتهم بأية ظروف خارجية ضاغطة...

ويقدم لنا الكتاب مثال داود النبي، وهو مطارد من شاول الملك:

شاول بكل سلطانه، وكل قسوته، وكل حيله، وكل كراهيته لداود، كان يطارده من

برية إلى أخرى، ومن مغارة إلى أخرى، يريد قتله، ويحيك حوله المؤامرات ومع ذلك حفظ الرب داود، وبقى حيًا. ومات شاول الملك دون أن يؤذيه.

وكذلك لم يقدر على إيذائه أبشالوم بكل خيانته...

ذلك لأن الله كان قد جعل أمام داود بابًا مفتوحًا، دخل منه إلى المجد، متذكرًا خبراته الكثيرة في قيام الأعداء ضده، حتى أنه قال ذات مرة: "يَا رَبُّ لمَاذَا كَثُرَ الَّذِينَ يُحْزِنُونَنِي. كَثِيرُونَ قَامُوا عَلَيَّ. كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِي: لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلَهِهِ" (مز٣: ١، ٢). بل أنه قال: **"أَكْثَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ" (مز٦٩: ٤).**

ونحن نسأل "وماذا فعلت أمام كل أولئك يا داود؟ وهل حطموا حياتك؟!" يجيب "أَنْتَ يَا رَبُّ هُوَ نَاصِرِي، مَجْدِي وَرَافِعُ رَأْسِي. بِصَوْتِي إِلَى الرَّبِّ صَرَخْتُ. فَاسْتَجَابَ لِي مِنْ جَبَلِ قُدْسِهِ" (مز٣: ٣، ٤) "نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ".

هؤلاء الكثيرون الذين قاموا على داود، لم يستطيعوا أن يغلقوا هذا الباب المفتوح أمامه من الرب. ألست تستطيع أن تخرج من هذه القصة بقاعدة روحية وهي:

*****

إن حياتك هي في يد الله. وليست في أيدي الناس...

لقد قال عيسو: "أقوم فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي" (تك٢٧: ٤١). ولكنه لم يستطع لأن يعقوب أبصر وإذا باب مفتوح في السماء. وقد رأى سلمًا بين الأرض والسماء، وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها (تك٢٨: ١٢). من أجل هذا حدث أنه في رجوعه "رَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا" (تك٣٣: ٤).

حقًا إن الله يستطيع أن يغير المواقف، ويغير القلوب.

وكما قال الكتاب: "إِذَا أَرْضَتِ الرَّبَّ طُرُقُ إِنْسَانٍ، جَعَلَ أَعْدَاءَهُ أَيْضًا يُسَالِمُونَهُ"

(أم١٦: ٧). وحتى إن لم يسالموه، فلن يقدروا عليه، كما قال الرب لإرميا النبي: "يُحَارِبُونَكَ وَلاَ يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ، يَقُولُ الرَّبُّ، لأُنْقِذَكَ" (إر ١: ١٩).

ما أكثر الذين قاموا على رسل المسيح وتلاميذه!

قام ضدهم الكتبة والفريسيون والصدوقيون، وكهنة اليهود ورؤساء كهنتهم وشيوخ الشعب وولاة الرومان وحكامهم... وألقوهم في السجون، وجلدوهم. ولكن الله كان قد جعل أمامهم بابًا مفتوحًا، فانتشرت الكرازة في كل مكان. و"الذين ليس لهم صوت ولا كلام، "إِلَى أَقْصَى المسْكُونةِ بَلغتْ أَقْوالُهُم" (مز ١٩: ٣، ٤)، حتى "الَّذِينَ تَشَتَّتُوا جَالُوا مُبَشِّرِينَ بِالْكَلِمَةِ" (أع٨: ٤).

كانت كل الأبواب مغلقة أمامهم. ولكن باب الله كان مفتوحًا. وهذا يكفي. لذلك نصيحتي أقولها لكل إنسان تواجهه متاعب وضيقات وتعقيدات.

*****

لا تنظر إلى الأبواب المغلقة، إنما انظر إلى المفتاح الذي في يد الله.

إنه يستطيع أن "يَفْتَحُ وَلاَ أَحَدٌ يُغْلِقُ" (رؤ٣: ٧). هو القادر على كل شيء، وهو الذي يحبك ويحب لك الخير. كل الذين يقومون ضدك، قوتهم محدودة كبشر. حتى الشيطان أيضًا، قوته محدودة كمخلوق. أما الله فغير محدود، وقوته غير محدودة.

لذلك فإن الله غير المحدود، قال لبولس الرسول: "تَكْفِيكَ نِعْمَتِي" (٢كو١٢: ٩).

إنها نعمة الله القادرة أن تفتح لك في البحر طريقًا (خر١٤) وتفجر لك من الصخرة ماء (خر١٧: ٦). وتهدم أمامك جبالًا، كما قال الرب عن معونته لعبده زربابل: "مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْجَبَلُ الْعَظِيمُ؟ أَمَامَ زَرُبَّابِلَ تَصِيرُ سَهْلاً!" (زك ٤: ٧).

*****

يعوزنا الوقت إن تحدثنا عن قصص القديسين مع باب الله المفتوح:

هل أتحدث عن القديس أثناسيوس الرسولي، الذي قيل له: "العالم كله ضدك يا أثناسيوس" ومع ذلك وقف ضد العالم الهرطوقي وانتصر، لأن الرب جعل أمامه بابًا مفتوحًا.

أم أتحدث عن نحميا، الذي فتح له الله بابًا عجيبًا، فإذا بملك أممي يزوده بكل الإمكانيات ليعيد بناء أورشليم، ويتحول من إنسان في السبي، إلى حاكم في مدينة الله...

أم أتحدث عن لعازر الدمشقي، وكيف أرشده الرب إلى رفقه ليختارها زوجة لإسحاق ابن سيده، بإرشاد إلهي عجيب!! حتى قال: "لاَ تُعَوِّقُونِي وَالرَّبُّ قَدْ أَنْجَحَ طَرِيقِي" (تك٢٤: ٥٦).

*****

كذلك ما أكثر الأبواب المفتوحة للتوبة...

من كان يظن أنه سينفتح باب للتوبة أمام مريم القبطية التي أعثرت المئات وأسقطتهم. ولكن الله فتح أمامها بابًا بمعجزة، لمست فيها يد الرب وتابت...

ومن كان يظن أنه سينفتح باب أمام أغسطينوس وبيلاجية وموسى الأسود، بعد أن وصلت حال كل منهم إلى وضع سيئ للغاية في البعد عن الله...

وهكذا أيضًا شاول الطرسوسي مضطهد الكنيسة.

من كان يظن أنه سيتحول إلى رسول وإناء مختار للرب، هذا الذي كان ينفث تهديدًا، ويجر رجالًا ونساء إلى السجن (أع٩: ١، ٢). وإذا باب في السماء ينفتح أمامه وهو في الطريق إلى دمشق، برؤيا عجيبة، كلمه فيها الرب، فآمن وتحول إلى العكس، وتعب أكثر من جميع الرسل، ونال إكليل الشهادة...

كذلك الأمم فتح لهم الله بابًا للتوبة والقبول...

وكانوا معتبرين غرباء، أجانب عن رعوية الله، فصاروا هم الزيتونة الجديدة التي طعمت في الزيتونة العتيقة. وأصبحت الغالبية العظمى من المؤمنين نابعة من هؤلاء الأمم وانفتح الباب بمعجزة أمام كرنيليوس (أع١٠) ثم أمام الكل (أع١٥).

*****

ماذا أقول عن أمثلة عجيبة امتدحها الكتاب:

أرملة صرفة صيدا التي أطعمت إيليا، والمرأة الكنعانية التي شفى السيد المسيح ابنتها، وراحاب الزانية، وراعوث، وملكة سبأ التي جاءت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان... كل أولئك اللائي تسجلت أسماؤهن في التاريخ، وطوبهن الكتاب، لمجرد أن الله جعل أمام كل واحدة بابًا مفتوحًا.

بل ماذا أقول عن يونان النبي الذي ابتلعه حوت؟!

من كان يظن أن مثل هذا يمكنه أن يخرج من جوف الحوت، ويحيا، ويبشر نينوى، وتؤمن على يديه؟! ولكن الحل الوحيد أن الله قد جعل أمامه بابًا مفتوحًا، ففتح الحوت فاه، وألقاه إلى البر، ليؤدي رسالته!! حقًا كما يقول الكتاب:

"غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللهِ" (لو١٨: ٢٧).

إن الله قادر على كل شيء. وإن اعتمدت عليه تحيا في رجاء ثابت لا يتزعزع. هو قادر أن يفتح الأبواب المغلقة، ويحل كل المشاكل المعقدة. بيده كل المفاتيح، "يفتح ولا أحد يغلق" وهناك مثل عجيب لباب مغلق فتحه الله:

لقد فتح الرب باب الفردوس بعد آلاف السنين...

وهكذا أدخل فيه آدم وحواء، بعد أن طردا قديمًا من الجنة، وأدخل فيه كل الراقدين

على الرجاء، وجعل هذا الباب مفتوحًا أيضًا أمام اللص اليمين، وأمام جميع التائبين، لكي يصيروا جميعًا فرحين في الرجاء (رو١٢: ١٢).

*****

لكل هذا، اطلب من الرب أن يفتح أمامك الأبواب:

قبل أن تخرج من بيتك كل يوم، اطلب من الرب أن يفتح أمامك كل القلوب، وكل الآذان، وأن يفتح أمامك أبواب الرزق وأبواب الخير. وما أجمل تلك الصلاة التي يصليها الأب الكاهن أمام الهيكل ويقول:

"اجعل باب بيتك مفتوحًا أمامنا في كل زمان..."

ويقول أيضًا: "لا تغلق باب بيتك في وجوهنا".

بل في كل يوم يصلي كل منا ويقول: "يَا رَبُّ افْتَحْ شَفَتَيَّ، فَيُخْبِرَ فَمِي بِتَسْبِيحِكَ" (مز٥١: ١٥). ذلك لأننا لا نضمن إن فتحنا أفواهنا من ذواتنا، أي كلام سنقوله؟ وهل سيكون مرضيًا أمام الله أم لا يكون؟ وماذا ستكون نتائجه؟ ...

ولعل من الصلوات العجيبة التي صلاها أليشع النبي لأجل تلميذه جيحزي هي قوله: "يَا رَبُّ، افْتَحْ عَيْنَيّ (الغلام) فَيُبْصِرَ"... (٢مل٦: ١٧).

فيرى أن الذين معنا أكثر من الذين علينا، فيطمئن، ويؤمن. نعم نحن لنا عيون ولكنها لا تبصر، وآذان ولكنها لا تسمع... وتحتاج أن يفتح الرب عيوننا وآذاننا وقلوبنا أيضًا... ألسنا نقول في صلواتنا "اكشف عن عيني فأرى عجائب من ناموسك" (مز١١٩).

وبعد، أترانا قلنا كل ما يفتحه الله أمامنا؟ كلا، بلا شك... فالموضوع أطول من أن يسعه مقال، عن الله الذي قال:

"أَفْتَحُ لَكُمْ كُوَى السَّمَاوَاتِ، وَأَفِيضُ عَلَيْكُمْ بَرَكَةً حَتَّى لاَ تُوسَعَ" (ملا٣: ١٠).

*****

باب الله مفتوح أمامنا على الدوام، مهما أغلقت باقي الأبواب.

يقول لنا كما قال لملاك كنيسة فيلادلفيا: "هَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ" (رؤ٨: ٣). هذا هو قلب الله الحنون، الذي أزال الحجاب الحاجز، وفتح الطريق إلى قدس الأقداس، وفتح باب الفردوس أمام آدم وبنيه.

*****

إنها عبارة معزية، نتذكرها في بدء العام الجديد.

مهما ضاقت الدنيا أمامك، ومهما تعقدت السبل، وأغلق الناس قلوبهم وأحشاءهم، ودعوت وليس من مجيب، وبحثت وليس من صديق، حينئذ تتعزى بقول القديس يوحنا الحبيب: "نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ" (رؤ٤: ١).

يقولها لكل مَنْ في ضيقة، ولكل خاطئ أتعبته الخطية.

لكل خاطئ سيطرت الخطية عليه... حاول أن يتخلص منها مرارًا ولم يستطع، وكاد ييأس... طرق باب التداريب الروحية، وكل جهاد شخصي. وطرق أبواب الصوم وضبط النفس... ولم يجد طريق التوبة مفتوحًا أمامه... حينئذ يرفع هذا "الخاطئ نظره إلى فوق، ويقول: "رأيت بابًا مفتوحًا في السماء"، "مَعونَتي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، الَّذي صَنَعَ السَّماءَ والأَرْضَ" (مز ١٢١: ٢).

*****

المهم في مشاكلنا أن نرفع نظرنا إلى فوق، وإلى السماء لكي نرى الباب المفتوح، فنتعزى...

مشكلتنا أننا في كل ضيقاتنا، نتجه إلى المعونة الأرضية! نتجه إلى ذكائنا وحيلنا وإلى الذراع البشري في مساعدة الناس لنا. نتجه إلى الظروف والإمكانيات. وبسبب هذا نقع في الحيرة والقلق والاضطراب. ولكن كل هذا يزول، ونطمئن، إن رفعنا نظرنا إلى فوق، لنرى الباب المفتوح في السماء، كما فعل القديس يوحنا الحبيب، شريكنا في الضيقة...

*****

لاحظوا أنه رأى هذا الباب المفتوح، دون أن يطلب.

لم ينفتح هذا الباب بصلواته، إنما هو باب مفتوح بطبيعته، مفتوح بالحب الإلهي...

لم يقل يوحنا "افتح لي بابًا في السماء، لأرى عرشك وجندك". إنما أراه الله كل هذا من حنانه، لكي يعرف أن عطايا الله إنما تنبع من محبته ومن إنعامه... حقًا إنه يقول بالنسبة إلى التعابى "اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ" (مت٧: ٧). لكنه يقول للذين يحيون في الإيمان "وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ" (مت٦: ٣٣). تأتيكم بدون طلب، من الآب السماوي الذي يحب أولاده ويعرف احتياجاتهم...

*****

هذا الباب يفتحه الله، ولا يستطيع أحد أن يغلقه.

حسب وعده الأمين... ذلك لأنه "يَفْتَحُ وَلاَ أَحَدٌ يُغْلِقُ" (رؤ٣: ٧). فإن فتح أمامك بابًا، تجد كل أمورك ميسرة، "لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ" (يش١: ٥). "وَلاَ يَقَعُ بِكَ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَكَ" (أع١٨: ١٠). وأبواب الجحيم لن تقوى عليك (مت١٦: ١٨).

إذًا لا تضيع وقتك منقبًا في الأرض، تحفر لك أبارًا مشققة لا تضبط ماء (إر٢:

١٣). إنما يكفي أن تضمن المعونة الإلهية، تضمن الباب السماوي المفتوح، وحينئذ يصير لك كل شيء...

*****

هذا الباب المفتوح رآه يوحنا وهو في ضيقة منفيًا في جزيرة بطمس، ومضطهدًا لأجل الكلمة.

في وقت لم يكن يجد فيه على الأرض حنانًا ولا عدلًا، ولم يجد من البشر معونة ولا سندًا... حينما بدا أن كل إنسان قد تخلى عنه، أو عجز عن معونته، فتُرِك إلى أعدائه يحكمون عليه... في هذا الوقت الذي أغلقت فيه أبواب الأرض، نظر وإذا باب مفتوح في السماء، وسمع صوتًا يقول له: "اصْعَدْ إِلَى هُنَا فَأُرِيَكَ..." (رؤ٤: ١) وأراه عرش الله في الرؤيا، وقوات السماء...

عجيب هو الله حقًا في عمق عطاياه، الله "الْمُقِيمِ الْمَسْكِينَ مِنَ التُّرَابِ" (مز١١٣: ٧).

ولعل القديس يوحنا كان يقول للرب: من أنا يا رب الذي تصنع معي كل هذا، أنا البائس الملقى في هذه الجزيرة النائية، أنا غير المستحق أن أرى عرش الإمبراطور تراجان، كيف أستحق أن أرى عرش ملك الملوك ورب الأرباب؟! نعم تعال يا يوحنا واصعد لترى هذا العرش، لكي تعرف أن كل أباطرة الأرض هم حفنة من تراب...! ويقف أمامنا سؤال:

كيف صعد يوحنا إلى السماء، ليرى هذه الرؤيا؟

هنا تقف اللغة عاجزة... نعم كيف صعد؟ أنا لست بمستطيع أن أجيب... أفضل إجابة هي أن أقول: لا أعرف... لست أجد ألفاظًا في اللغة العربية، ولا في أية لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن هذا المعنى... لذلك اكتفى بأن أتركه إلى تأملاتكم

الخاصة.

"**اصعد إلى هنا**". هذا أمر. كيف نفذه يوحنا؟ أو كيف نفذ في يوحنا؟

كيف صعد إلى السماء؟ وكيف دخل من هذا الباب المفتوح؟ وكيف رأى؟ بالعين أم بالروح أو بعين روحية؟ وكيف؟ ... المهم أن الله حول ضيقته إلى فرح، وجهله إلى معرفة، ونفيه إلى ترقية، وإنعام، وأعطانا عربونًا لحياة أخرى ستكون بعد القيامة، ومنحنا نحن رجاء في تلك الحياة...

كل هذا حدث ليوحنا، وهو في المنفى...

لم تحدث هذه الرؤيا وهو في أورشليم، مدينة الملك العظيم، ولا وهو في الهيكل ولا حتى في قدس الأقداس، ولا إلى جوار تابوت العهد. ليس في كل تلك الأماكن العظيمة والمقدسة، حيث ينتظر الإنسان أن يرى رؤى... إنما في الضيقة، وفي النفي...

*****

حقًا "لاَ يَأْتِي مَلَكُوتُ اللهِ بِمُرَاقَبَةٍ" (لو ١٧: ٢٠).

أننا لا نعرف متى ولا أين يفتقدنا الله بنعمته، بعمل روحه القدوس. لا نعرف متى تفتح السماء أبوابها؟ ومتى يأتينا الصوت كبوق، أو كريح عاصف، أو كصوت مياه كثيرة...؟ إنه لا يأتي بانتظارنا أو توقعنا، أو مراقبتنا... لسنا نعرف متى يأتي الرب لمعونتنا ومتى يعلن لنا.

المهم أن نكون مستعدين لعمل الروح فينا...

نفتح نحن قلوبنا، فيفتح لنا الرب بابًا في السماء.

نصعد بأرواحنا إلى السماء، بينما أجسادنا لا تزال على الأرض، حينئذ يصعدنا الرب إلى السماء، حتى لو بقينا ظاهريًا على الأرض... "أَفِي الْجَسَدِ أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ

أَعْلَمُ. اللهُ (وحده) يَعْلَمُ" (٢كو١٢: ٣). هنا ونقول إن رؤيا يوحنا تحمل لنا أعظم رجاء مفرح وهو:

*****

أن أبواب السماء صارت مفتوحة. وقد رآها القديس اسطفانوس الشماس من قبل:

وذلك حينما حنق عليه اليهود ليقتلوه. يقول الكتاب: "وَأَمَّا هُوَ فَشَخَصَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُمْتَلِئٌ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، فَرَأَى مَجْدَ اللهِ، وَيَسُوعَ قَائِمًا عَنْ يَمِينِ اللهِ. فَقَالَ: «هَا أَنَا أَنْظُرُ السَّمَاوَاتِ مَفْتُوحَةً، وَابْنَ الإِنْسَانِ قَائِمًا عَنْ يَمِينِ اللهِ" (أع٧: ٥٥، ٥٦).

هذه السماء المفتوحة أمامنا هي أملنا الكبير الذي نسعى إليه لكي نرى فيها مجد الله ونبصر الرب يسوع.

رآها اسطفانوس أول الشمامسة، ورآها يوحنا الحبيب، مفتوحة. وأبصرا شيئًا من المجد العتيد، كعربون للملكوت الأبدي... والعجيب أن كلًا منهما قد رآها وهو في ألم واضطهاد، مرذولًا من الناس، أحدهما في وقت رجمه، والآخر أثناء نفيه... وذلك لكي نفهم أن طريق هذه السماء هو الصليب، وأنه "بِضِيقَاتٍ كَثِيرَةٍ يَنْبَغِي أَنْ نَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (أع١٤: ٢٢).

*****

وقبل اسطفانوس ويوحنا، أبصر السماء حزقيال النبي:

رأى عرش الله محمولًا على الكاروبيم (حز١). ورأى هذا المنظر حينما كان ضمن المسبيين، عند نهر خابور. وقال في ذلك: "كَانَ... وَأَنَا بَيْنَ الْمَسْبِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ، أَنَّ السَّمَاوَاتِ انْفَتَحَتْ، فَرَأَيْتُ رُؤَى اللهِ..." وشرح ما رآه... ثم قال: "هذَا مَنْظَرُ شِبْهِ مَجْدِ الرَّبِّ. وَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي، وَسَمِعْتُ صَوْتَ مُتَكَلِّمٍ..." (حز١: ٢٨). عجيب

أن يرى هذه الرؤيا وهو في السبي... كيوحنا في النفي.

بنفس الوضع رأى دانيال النبي شبه المنظر وهو في السبي:

رأى ابن الإنسان وهو على سحاب السماء، أمام الآب، وقد "أُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ" (دا٧: ١٣، ١٤). ورأى رؤى أخرى، وأرسل له الله الملاك جبرائيل ليفسرها له (دا٨: ١٦).

كل هذه الرؤى رآها أنبياء وقديسون في ضيقاتهم.

سماء الله وعرشه رآهما يوحنا في النفي، اسطفانوس قبل رجمه. وحزقيال ودانيال وهما في السبي. ولا شك أن هذه المناظر التي يسمح الله لقديسيه أن يروها أثناء ضيقاتهم لأجل اسمه، إنما هي لون من العزاء الإلهي أثناء الآلام...

*****

وأنتم أيها الأخوة، هل رأيتم هذه السماوات المفتوحة؟ أم أن لكم عيونًا ولكنها لا تبصر؟

وإن كان كذلك، فمتى تنقشع تلك الغشاوة عن أعيننا، حتى نرى ما يمكن أن يراه الروحانيون... كأشخاص في الجسد، نحن لا نرى، ولكن متى صرنا في الروح، مثلما كان يوحنا "فِي الرُّوحِ فِي يَوْمِ الرَّبِّ" (رؤ١: ١٠)، حينئذ سنرى.

طالما عيوننا مشغولة بالجسد وبالمادة وبالعالم، ومغلقة بالهيولانيات، فلا يمكن أن ترى الروحيات.

السماء المفتوحة رآها القديسون في ضيقاتهم، أما المترفون الذين يعيشون في المتعة والفرح واللذة، فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى باب مفتوح في السماء! وإن طلبوا من الله،

فسيقولون: افتح لنا أبوابًا على الأرض. فالسماء لم يأت موعدها بعد... افتح لنا أبواب الكنوز والرزق والترقيات. هؤلاء المترفون، أخشى أنهم في السماء أيضًا سيسمعون تلك العبارة المخيفة "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ قَدِ اسْتَوْفَيتم أَجْرَكُمْ!" (مت٦: ٥).

ومثل المترفين، كذلك لا يطلب المنشغلون بابًا في السماء.

إن كل تفكيرهم مركز في العالم وفي الأرضيات. ليس لديهم وقت ولا رغبة لكي يرفعوا نظرهم إلى فوق. مثالهم ذلك الغني الغبي، الذي قال: "أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَمِيعَ غَلاَتِي وَخَيْرَاتِي، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اِسْتَرِيحِي وَكُلِي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي!" (لو١٢: ١٨، ١٩).

*****

إذًا علينا أن نرتفع فوق الأرضيات، لنرى الباب السماوي المفتوح...

مثال ذلك: فلك نوح الذي تغرب عن العالم، وارتفع فوق المياه التي غطت كل شيء. وفتح أبونا نوح فيه طاقة، تشبه الباب المفتوح في السماء. وخرجت من الطاقة حمامة جاءت بغصن زيتون، رمزًا للسلام الإلهي في الأرض الجديدة التي باركها الرب...

إن لم تستطع أن ترتفع فوق الأرضيات بصفة دائمة، فليكن ذلك على الأقل في فترات، كيوم الرب.

لقد منحك الرب هذا اليوم، ليكون لك معه، تنحل فيه من الأرضيات، لكي ترتبط بالواحد الذي هو الله: تفكر فيه، تكلمه، تستمع إلى صوته في قلبك، وقد تطهر ذهنك – ولو مؤقتًا – من كل ما هو مادي... حينئذ ستبصر الباب.

مؤلفات قداسة البابا شنوده

شخصيات

١- آدم وحواء / قايين وهابيل.
٢- موسى وفرعون.
٣ – يونان.
٤ – مار مرقس.
٥- الأنبا أنطونيوس.
٦ – القمص ميخائيل إبراهيم.

من الميلاد إلى القيامة

١ – كيف نبدأ عامًا جديدًا.
٢- تأملات في القيامة.
٣ – من وحي الميلاد.
٤- روحانية الصوم.
٥ – تسبحة البصخة.
٦ – أسبوع الآلام.
٧- خميس العهد.
٨ – الجمعة الكبيرة.
٩ – كلمات المسيح على الصليب.
١٠ – تأملات في القيامة.

صلوات

١ – صلاة الشكر والمزمور الخمسين.
٢ – مزامير الغروب.
٣ – يستجيب لك الرب.
٤ – يا رب لماذا؟
٥- سبحوا الله.

كتب روحية

١- انطلاق الروح.
٢- حياة الشكر.
٣- حياة الإيمان.
٧ – الهدوء.
٨- مقالات روحية (الجمهورية).
٩- الدموع.

٤- معالم الطريق الروحي.
٥ - الوجود مع الله.
٦- الله وكفى.
١٠ - العظة على الجبل.
١١- خبرات روحية ج١، ج٢.
١٢ - حياة الرجاء.

الحروب الروحية

١- حروب الشياطين.
٢- الحروب الروحية.
٣ - الغضب.
٤ - الإدانة.

لاهوت وعقائد

١ - الزوجة الواحدة.
٢- الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي.
٣ - بدعة الخلاص في لحظة.
٤ - المطهر.
٥- الكهنوت.
٦ - لاهوت المسيح.
٧- اللاهوت المقارن.
٨- طبيعة المسيح.

الوصايا العشر

٤ كتب.

كلمة منفعة

٤ كتب.

حياة النقاوة

١ - حياة التوبة والنقاوة.
٢ - اليقظة الروحية.
٣ - السهر الروحي.
٤ - الرجوع إلى الله.

سنوات مع أسئلة الناس

٧ كتب.

الخدمة

١ – التلمذة.

٢ – الغيرة المقدسة.

الفهرس

قصة هذا الكتاب ٥
الفصل الأول ٧
الرجاء ٨
حياة الرجاء يلزمها الثقة ١٧
أمور تساعد على الثقة ٢٠
الفصل الثاني ٢٢
كل الأشياء تعمل معًا للخير (رو٨: ٢٨) ٢٣
قصة يوسف الصديق ٢٣
خطية آدم ٢٤
الموت ٢٥
الأمراض ٢٥
تجربة أيوب ٢٦
التجارب عمومًا ٢٨
كلمات في الرجاء ٣٣
الفصل الثالث ٣٥
تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم ٣٦
فشل الالتجاء إلى غير الله ٣٩
الله هو حلّال المشاكل ٤٠
كيف تأتي إلى الله؟ ٤٢
الفصل الرابع ٤٦
سعي الله لخلاصنا ٤٧
يطلب ما قد هلك! ٥٠
مثال شاول الطرسوسي ٥٤
مثال عذراء النشيد ٥٤
زيارات النعمة للجميع ٥٦

مثال الزارع ٥٨
الله يصالحنا معه ٥٩
قصة يونان النبي ٦٠
الشركة مع الله ٦٢
بأنواع وطرق شتى ٦٤
الفصل الخامس ٦٧
اهتمام الله بالأشياء الصغيرة ٦٨
اختار الصغار في السّن ٦٨
٢- الصغار في العدد ٧٥
٣- الاهتمام بالقليل في النوعيّة ٧٧
٤- اهتمام الله بالأشياء الصغيرة ٨٢
٥- الله يهتم بالعمل الصغيرة ٨٨
الفصل السادس ٩٣
الله حنون عطوف ٩٤
أعطانا وصايا في مستوى احتمالنا ٩٤
حنو الله ورأفته على الحيوان ٩٥
حنو الله الفائق على الإنسان ٩٨
الفصل السابع ١٠٢
أحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض ١٠٣
مَن ردهم الرب إلى أرضهم؟ ١٠٣
٢- من ردهم إلى أرض الأحياء بالتوبة ١٠٩
٣- أردكم إلى الأرض الجديدة ١١٧
الفصل الثامن ١١٩
دون أن نطلب ١٢٠
دون أن نطلب ١٢٠
٢- نعم الله العظيمة ١٢٤

٣- الرؤى والظهورات ١٢٦
٤- مواهب العهد الجديد ١٢٩
٥- كرم الله في عطاياه ١٣٠
٦- في الدعوة الإلهية ١٣٣
٧- العطاء والإيمان ١٣٥
الفصل التاسع ١٣٩
الله يعمل معنا ١٤٠
الفصل العاشر ١٤٩
انتظر الرب ١٥٠
نوعية الانتظار ١٥٠
ثلاثة أمور يرتكز عليها انتظارك ١٥١
لا تلجأ إلى الطرق البشرية ١٥٢
إلى متى ننتظر؟ ١٥٤
مهما بدا أنه تأخر ١٥٦
مفهومنا الخاطئ للتأخير ١٥٨
أسباب وحكمة ما نظنه تأخيرًا ١٥٨
الفصل الحادي عشر ١٦٢
شجعوا صغار النفوس، اسندوا الضعفاء ١٦٣
الله العطوف ١٦٣
أمثلة ١٦٥
نصائح ١٧٠
الفصل الثاني عشر ١٧٣
الله الذي يبدأ ١٧٤
الفصل الثالث عشر ١٨٥
نهاية أمر خير من بدايته ١٨٦
قصص نهايات طيبة ١٨٧

نهاية طيبة مع بداية متعبة ١٩١
الفصل الرابع عشر ١٩٢
تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر ١٩٣
الطفل موسى ١٩٣
الأرض الخربة ١٩٤
العاقر ١٩٦
قصص معونة ١٩٦
كل شيء مستطاع ١٩٩
الفصل الخامس عشر ٢٠٣
أبصرت بابًا مفتوحًا في السماء ٢٠٤
مؤلفات قداسة البابا شنوده ٢١٧

في هذا الكتاب

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

هذا الكتاب (حياة الرجاء) هو الجزء الثاني من مجموعة "الإيمان والرجاء والمحبة". وقد صدر الجزء الأول منها عن (حياة الإيمان).

تجد فيه ١٥ محاضرة عن الرجاء، اخترناها لك من بين محاضرات عديدة جدًا ألقيناها في هذا الموضوع الهام. ونرجو إن أحب الرب وعشنا أن ننشر الباقي في مناسبة مقبلة.

لا تدع الشيطان يحاربك في يوم ما بقطع الرجاء والدخول في اليأس وتأكد أنه:

وتأكد أن كل مشكلة لها حل أو حلول. والله قادر على حل كل المشاكل، وعلى فتح كل باب مغلق...

وليكن اللخ معك في كل ضيقة، يقف إلى جوارك وينقذك...

البابا شنوده الثالث